مستشرقون من قبل عصر الاستشراق
مستغربون من قبل عصر الاستغراب

مستشرقون مِنْ قَبْل عصر الاستشراق

مستغربون مِنْ قَبْل عصر الاستغراب

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد
منشية الصدر - العباسية - القاهرة
(**فوق نفق قصر الزعفران**)
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

قبل جحا كان أبو دُلامة

(كلمة عن الاستشراق والاستغراب قديما)

الاستشراق حقل معرفى واسع نشأ فى الغرب لدراسة الحضارات الشرقية فى آسيا وأفريقيا بكل جوانبها، كالحضارة الفرعونية والحضارة البابلية والحضارة الفارسية والحضارة الهندية والحضارة الصينية والحضارة اليابانية وحضارات القارة السوداء، وكذلك الحضارة العربية بطبيعة الحال منذ أقدم عصورها لا من أول ظهور الإسلام فحسب كما قد يظن كثير منا. فالاستشراق، كما نرى، ميدان رحب المجال متعدد الاهتمامات، ولا يقتصر، كما قد يتخيل البعض، على دراسة الإسلام بتاريخه ورجاله وبلاده وشعوبه ومذاهبه وآدابه وعلومه وفنونه وسياساته وحروبه واقتصادياته وأحواله الاجتماعية، فحضارة الإسلام ليست إلا جانبا واحدا من الجوانب التى يدرسها المستشرقون. بل إن دراسة الإسلام لا يختص بها الغربيون، إذ هناك دارسون يابانيون وهنود وصينيون مثلا يدرسونه كما يدرسه الغربيون، وإن سُمُّوا بـ"المستعربين" لأنهم شرقيون كالعرب والمسلمين فلا يقال عنهم إلا على سبيل التوسع: "مستشرقون".

وتعد الأهداف السياسية والدينية أبرز ما يتغياه المستشرقون عموما، وإن كان بعضهم يتعاطف مع قضايا الشرق، وقد يقف منها موقفا يعاكس موقف بلاده. بل إن بعض المستشرقين الذين يدرسون الإسلام قد دافعوا عنه

وعن حضارته، حتى لقد اعتنق الإسلامَ عددٌ كبير منهم. وقد بدأ الاستشراق فى أسبانيا فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) حين اشتدت حملة نصارى الأسبان على المسلمين، إذ دعا ألفونس ملكُ قشتالة رجلَ الدين الأسكتلندى مايكل سكوت إلى دراسة حضارة المسلمين علما ودينا، فجمع سكوت طائفةً من الرهبان بديْرٍ قرب طليطلة، وشرعوا فى ترجمة بعض الكتب الإسلامية العربية. وقام رئيس أساقفة طليطلة ريمون لول بنشاط كبير فى ترجمة تلك الكتب. ومع مرور الزمن اتسع الأوربيون فى هذا المجال، وأنشأوا مطابع عربية لطبع الكتب التى كانت تدرس فى المدارس والجامعات فى بلدانهم.

وبالمثل أنشئت كليات لتدريس اللغات الشرقية فى عواصم أوروبا فى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى (أواخر القرن الثامن عشر الميلادى). وكان الغرض الأول منها، وبالذات فيما يخصنا نحن المسلمين، تزويد السلطات الاستعمارية بخبراء فى شؤوننا، ثم أخذ الطلاب المسلمون يؤمُّون هذه الكليات الأوربية للدراسة فيها. والعبد لله واحد من هؤلاء الطلاب المسلمين الذين درسوا فى جامعة أوربية وحصلوا على درجة الدكتورية فى الأدب العربى من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م وعلى يد أستاذ مصرى مُتَبَرْطِن هو د. محمد مصطفى بدوى. وعلى نفس المنوال أنشأت الدول الاستعمارية مؤسسات تعليمية فى البلاد الإسلامية التى خضعت لنفوذها لخدمة أغراضها منها فى مصر على سبيل المثال المعهد الشرقى بدير الآباء الدومينيكان، والمعهد

الفرنسى، والجامعة الأمريكية، وكلية فكتوريا، ومدارس الراهبات والفرنسيسكان والفرير، وفى لبنان جامعة القديس يوسف (الجامعة اليسوعية حاليًا) والجامعة الأمريكية، وفى سوريا مدارس اللايبك، والفرير، وكلية السلام. . .

وقام كذلك عدد من المستشرقين بإصدار مجلات لنشر البحوث الاستشراقية، وجمعوا المخطوطات العربية الإسلامية ونقلوها إلى بلادهم بأعداد هائلة بلغت مئات الآلاف. كما ألفوا الكتب والموسوعات التى تتناول جوانب حضارتنا المختلفة وحققوا ما جمعوه من مخطوطات من بلاد المسلمين. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عقدوا أيضا المؤتمرات لتدارس الجديد الذى توصلوا إليه عن الشرق وحضاراته المختلفة.

وهم، فى غالبهم، متعصبون لبلادهم وحضارتهم وثقافتهم يعملون بكل سبيل على إيهام الشرقيين، وبخاصة المسلمون، بأنهم سوف يظلون متخلفين إن لم يتخلَّوْا عن ثقافتهم ويتبنَّوْا أساليب حياة الغربيين. فالغربيون، كما يرددون دائما، هم المثال الأعلى الذى ينبغى أن يحتذى، وإلا فلا أمل. وكثير منهم، فى دراستهم للإسلام بوجه عام، يجتهدون بكل ما لديهم من طاقة وعزم فى التشكيك فيه وفى رسوله وكتابه ورجاله، ويلوون النصوص ويطبخون النتائج سلفا كى تأتى على وفاق أغراضهم من تسفيه كل ما يتصل بديننا وثقافتنا، اللهم إلا من عصم اللهُ، وقليلٌ ما هم.

هذا هو الاستشراق المؤسساتى الرسمى. ولكنى كثيرا ما قلت لنفسى منذ وقت بعيد إننا إذا مددنا أبصارنا إلى ما قبل ذلك التاريخ الذى نشط فيه الغربيون قبل عدة قرون بعد أن انقلبت الآية وشرع المسلمون يتقهقرون فى الوقت الذى كانت أوربا تتقدم وتتحضر وتخرج من سباتها وتخلفها الطويل أيام عز المسلمين والإسلام، إذا فعلنا ذلك تحققنا أن الاستشراق لم ينتظر حتى ذلك الوقت، بل كان هناك أوربيون اهتموا بدراسة الشرق قبل سطوع نور الإسلام بأزمان متطاولة، وأوربيون اهتموا بالكتابة عن الإسلام وحضارته منذ وقت مبكر من تاريخ الدين المحمدى الكريم. من هنا فكرت فى وضع الكتاب الذى بين يدى القارئ مبينا فيه تلك الفكرة، وموردا بعض الأسماء التى مارست الاستشراق قبل الاستشراق الرسمى بزمن طويل. وتوقفت أمام ثلاثة منهم: اثنان قبل الإسلام هما هيرودوت، الذى اكتفيتُ بدراسة ما كتبه عن مصر الفرعونية فى القرن الخامس قبل الميلاد، وديودور الصقلى، الذى ركزتُ على ما سجله عن بلاد العرب فى القرن الأول قبل الميلاد، ثم يوحنا الدمشقى الرومى، الذى كان يعمل مثلما عمل أبوه من قبله فى البلاط الأموى، وألف كتابا ضَمَّنَه فصلا حول الإسلام هاجمه فيه وشكك فى نبوة رسوله وعاب كل شىء يتعلق به وقدم أسوأ التفسيرات لكل مبدإ كريم فيه واختلق ودَلَّس. وقد قمت بتحليل ما كتبه كل منهم وفصلت القول فيه تفصيلا وأدليت برأيى واضحا صريحا.

ومن الناحية الأخرى كثيرا ما كنت أسأل نفسى أيضا: لماذا لا ندرس نحن الغرب وتاريخه وأديانه ورجاله وأحواله وثقافاته القديمة والحديثة كما يدرسنا الغربيون؟ وسرعان ما أجبت نفسى قائلا: ولكننا ندرس الغرب فعلا كما يدرسوننا. أليس فى كل جامعة عندنا أقسام تدرس اللغات والآداب والحضارات الأوربية من إنجليزية وفرنسية وألمانية؟ ثم توسعنا فى هذا المجال وصرنا ندرس اللغات والآداب والثقافات اللاتينية واليونانية والإيطالية والروسية والإسبانية. بل لقد أنشئت فى جامعاتنا أقسام لدراسة لغة اليابان وآدابها وحضارتها، وكذلك الحال بالنسبة للصين. وحين كتب الكاتبون منا عن الاستغراب، بمعنى دراستنا للغرب كما يدرس الغربيون الشرق والعرب والإسلام، عدت أتساءل: ألم يكتب المسلمون القدماء عن الغرب منذ وقت مبكر؟ ألم يرحل جغرافيونا إلى البلاد الأوربية وسجلوا ما رأوه هناك؟ ألم يقم رجالنا بسفارات إلى تلك الدول وكتبوا عن تلك السفارات وضمنوا كتاباتهم كل ما شاهدوه وسمعوه أثناء ذلك؟ ثم أخذت أتذكر أمثلة من هنا وهناك، فتبين لى بكل وضوح أن أسلافنا قاموا بأنشطة استغرابية كالتى نتحدث عنها الآن، وإن لم يسموها هذه التسمية ولا استعملوا مصطلحاتها ولا حاولوا تنظيمها تنظيما مؤسساتيا كما فعل الغربيون فى ميدان الاستشراق.

والاستغراب، كما ألمحت آنفا، هو العلم الذى يهتم بدراسة الغرب من جميع نواحيه الدينية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية والسياسية والعلمية والأدبية. بالضبط كما يدرسوننا هم من جميع تلك النواحى. وهو لم يصبح

علمًا مستقلا بعد، ولكن المأمول أن تقوم المؤسسات العلمية لدينا فى العالم العربى والإسلامى بتنظيم ذلك وبلورته فى منظومة كمنظومة الاستشراق تكون لها مجلاتها وتمويلاتها ومؤتمراتها وتتغيا دراسة الغرب دراسة متكاملة تتبلور فى دائرة معارف كتلك التى أصدرها المستشرقون عن حضارة العرب والمسلمين، دراسة نقدية لا تكتفى بالرصد المبهور أو الدرس البارد بل تقف عند عيوبه وجوانب النقص فى حضارته مثلما تقف عند حسناته وإبداعاته ونواحى التفوق فى تلك الحضارة دون خوف أو تردد، ودون رغبة فى العدوان أو التحامل.

لقد كانت أوربا قبل نهضتها الحديثة تغطّ فى سُبَات الجهل والتخلف والمعتقدات الفاسدة، والصراع الطبقى والتناحر حول الزعامة والسلطة. ولما كُتِب لها النهوض من سباتها سعت لأخذ علوم المسلمين وثقافتهم، والتوصل إلى مناط قوتهم وعوامل مجدهم وأسباب إحرازهم مراكز القيادة آنذاك. وقد هاجر كثير من شبان أوروبا ورجالها لطلب العلم فى مراكز الثقافة الإسلامية وخاصه فى الأندلس، وأُرْسِلَت البعثات التعليمية الرسمية إلى هذه المراكز، وأنشئت المدارس فى أوربا على غرار ما كان عليه الأمر فى بلادنا، وكان هناك اجتهاد ناشط لنقل التراث العلمى الإسلامى إلى اللغة اللاتينية التى كانت لغة العلم فى أوروبا فى ذلك الوقت، وبدأت حركه الترجمة فى القرن التاسع الميلادى، ونمت بعد ذلك، ولا سيما بعد سقوط طليطلة، فقد أنشأ رئيس

أساقفتها، كما سلفت الإشارة، ديوانًا للترجمة قام بنقل التراث العربى من فلسفه وأدب وفلك وطب.. إلخ.

ولّما كانت الحضارة الغربية بشقيها هى الحضارة السائدة الآن فمن الواجب على المسلمين أن يعرفوها معرفة علمية وثيقة متكاملة مثلما أن الغرب حين بدأ نهضته العلمية والثقافية والفكرية توجه إلى دراسة العالم الإسلامى وأفاد من إنجازات الحضارة الإسلامية وتعاوَن علماؤه فى تلك الدراسة وأنشأوا منظومة الاستشراق. لقد كتب أجدادنا فى هذا المجال كثيرا من الكتب والدراسات، وكل ما نريده أن يكون هناك تكامل بين دارسينا الحاليين للغات والآداب والعلوم والمجتمعات والاقتصادات والسياسيات والتواريخ الغربية وأن يكون هدفنا هو كيفية الإفادة من تلك الدراسات بحيث نلحق بالغرب علما واقتصادا وسياسة واكتشافات وإبداعات ولا نظل هكذا عالة عليه ننتظر حتى يكتشف هو شيئا جديدا فنتعلمه وننقله إلى بلادنا ونطبقه ثم نكتفى بذلك فلا نفكر فى أن تكون لنا مشاركة إيجابية فى تلك الإنجازات الثقافية والحضارية، ومن ثم نبقى دائما فى موقف المستهلكين ولا نتقدم أبدا ونظل تابعين للغرب مكتوين بنيران مخططاته ومؤامراته دافعين الثمن غاليا جدا.

ومن ثم ينبغى أن يكون هدف الاستغراب هو إعادة التوازن فى مجال الثقافات الإنسانية بدلا من رجحان كِفَّة الثقافة الغربية وشَوَلان كفة ثقافتنا العربية الإسلامية. فطالما أن التوازن غير متحقق سيظل الغربيون هم أصحاب السيادة كما هم الآن، وسنظل نحن مجرد تابعين نمشى خلفه ونسير على خطاه

ونكتفى بتقليده تقليد القرود. بل إن كثيرا منا ليتمرد على ثقافته العربية الإسلامية ويلتحق بالغربيين فى كل ما يقولون. والأمثلة معروفة. والغرب، فى ثقته الزائدة بنفسه وبإنجازاته وسيادته للعالم منذ عدة قرون، يعمل على محو تاريخنا ودِيننا ولغتنا ويبذل كل ما لديه من جهود لطمس هويتنا. ونحن الآن فى مفترض طرق: فإما نَهَضْنا نهضة حقيقية ووضعنا نُصْبَ أعيننا اللَّحَاق به ومنافسته بُغْيَةَ التفوقِ عليه كما صنع هو من قبل بالنسبة لنا، وإما الهلاك والبوار، أو على الأقل: الانتظار عدة قرون أخرى نذوق فيها الهوان والضياع ونضل الطريق نحو العزة والكرامة والتقدم كما هو حالنا الآن.

وقد وقفتُ فى الفصل الأخير من الكتاب الحالى عند بعض الأمثلة على ما يمكن بكل سهولة وسلاسة أن يدخل فى مجال الاستغراب مما خلَّفه لنا أسلافنا الكرام مثل وصف أبى سفيان بن حرب للمجلس الذى عقده هرقل حين أتته رسالة نبينا الكريم تدعوه إلى الإسلام، وإلا باء بإثم أتباعه، الذين يقف هو حائلا بينهم وبين التعرف إلى الدين الجديد ومانعا لهم من اعتناقه، وسفارة يحيى الغزال الشاعر الأندلسى فى عهد الخليفة الأموى عبد الرحمن الأوسط فى منتصف عشرينات القرن الثالث الهجرى إلى بلاد المجوس وما حكاه عن كل ما شاهده هناك، ورحلة ابن فضلان إلى ملك البلغار بتكليف من الخليفة العباسى المقتدر بالله أوائل القرن الرابع الهجرى وما كتبه عنهم وعن أحوالهم المختلفة، ثم أخيرا ما سجله أسامة بن منقذ (من أهل القرن السادس الهجرى) عن مجتمعات الصليبيين فى الشام فى كتابه الشهير: "الاعتبار".

وهذه النصوص تنطق بكل قوة بما كان لنا أيامذاك من سيادة ورجحان عكس حالنا اليوم. فالأيام دُوَل، ولا شيء يبقى كما هو على توالى الحَدَثان.

هيرودوت

هيرودوت مؤرخ يونانى عاش فى الفترة بين عامى ٤٨٤ و٤٢٥ ق. م، وهو من مواليد مدينة هاليكارناسوس المعروفة الآن باسم "كاريا" فى تركيا. ويسمى: أبا التاريخ، فهو أول مؤرخ يجمع مادته بطريقة منهجية ويصوغها نثرا فى أسلوب أدبى شائق. وكان كثير الأسفار، فرحل إلى البلدان المحيطة بالبحر المتوسط ووصل إلى مناطق جد بعيدة. ومن البلاد التى زارها مصر، وقد توغل فيها جنوبا حتى وصل إلى شلال النيل. كما وصل إلى البحر الأسود، وجزيرة البيلوبونيز فى البحر المتوسط، وإلى جنوب إيطاليا وفلسطين و بابل وليبيا وغيرها.

ولم يصلنا عنه إلا كتابه المعروف باسم "تاريخ هيرودوت"، الذى جمع فيه بين كتابة التاريخ والأسلوب الأدبى وضَمَّنَه الحكايات الشائقة: ما كان منها صحيحا أو مجافيا للمنطق والعقل، وإن كان قد حاول الالتزام قدر استطاعته بسرد الحقائق وتشغيل ملكته النقدية. وكان التاريخ قبله يميل إلى رواية الأساطير والحكايات الخرافية. وموضوع كتابه هو تاريخ الحروب بين الإغريق والفرس ونشأة الإمبراطورية الفارسية وتوسعاتها مع كثير من المعلومات الهامة عن تاريخ بعض الدول الأخرى ودياناتها وأنماط البشر فيها وأنظمة حكمها. فهو كتاب فى السياسة والاقتصاد والعادات والتقاليد والأديان والآثار والتاريخ والجغرافيا وما إلى هذا.

وقد اعتمد هيرودوت فى تاريخ اليونان على النقوش والكتابات المنتشرة فى أرجاء بلاده، علاوة على ما سمعه من الروايات المتعلقة بالحروب الفارسية. أما فى كتابة تاريخ البلدان الأخرى فاعتمد على مشاهداته الشخصية وما استمع إليه من حكايات قصها عليه الكهان والبحارة والتجار وغيرهم، فضلا عما استقاه من مؤلفات سابقة عن تواريخ تلك الأمم. وكان حريصا على وصف كل ما يشاهده فى طريقه من المعابد والآثار وصفا مفصلا. وسوف نكتفى بما قاله فى كتابه المذكور عن بلادنا المحروسة، معتمدين على ترجمة د. محمد صقر خفاجة للجزء الخاص منه بمصر بعنوان "هردوت يتحدث عن مصر" (تقديم وشرح د. أحمد بدوى/ دار القلم/ ١٩٦٦م).

وأول شىء كتبه هيرودوت عن مصر كلامه (ص٥٩ من كتاب "هردوت يتحدث عن مصر") عن مدى قِدَم المصريين وعراقتهم، إذ كانوا يعتقدون أنهم أعرق أمم الأرض، إلى أن حكمهم بسماتيك، الذى يرى بعض المؤرخين، ومعهم د. أحمد بدوى أنه ليس مصريا أصيلا بل ينتمى إلى جنس أجنبى عن البلاد، ففكر أن يضع حدا لهذا الاعتقاد، وأحضر رضيعين عهد بهما إلى أحد الرعاة وأمره أمرا ألا يفتح فمه بكلمة أمامهما حتى يكبرا ويستطيعا النطق، وعندئذ ينظر ليرى إلى أية لغة ينتمى أول مقطع يخرج من فمهما، فاتضح أن هذا المقطع فريجى، وعندئذ هدأت الخواطر وعُرِف أن المصريين ليسوا أقدم أمم الأرض بل الفريجيين سكان آسيا الصغرى.

وهذا برهان مضحك، إذ من قال إن الأطفال حين ينطقون أول مقاطعهم ينطقون مقاطع من لغة أقدم البشر؟ ترى هل برمج الله سبحانه الأطفال على هذا الأساس؟ فأين الدليل؟ ثم ما دام الطفل سينطق مقطعا من أقدم لغة أفلم يكن الأحجى أن يكون هذا المقطع من لغة آدم وأولاده أول سكان الأرض؟ إن الطفل إنما ينطق مقاطع من الكلمات التى تتكرر كثيرا على مسمعه فى صغره مثل "بابا، ماما". وما دام الطفلان لن يسمعا سوى ثغاء العنزتين اللتين كُلِّف الراعى بحلبهما كل يوم حتى يشرب الطفلان ما يحتاجانه من اللبن وينموا نموا صحيا سليما فكان ينبغى أن يكون المقطع الأول لكل منهما شيئًا من ثغاء العنزة. أليس كذلك؟ أما إذا حيل بينهما وبين أصوات العنزتين فلا أظنها يمكن أن يصدرا من الأصوات إلا الصياح الوحشى الذى لا يشبه لغة البشر.

وهذا كله إن كان من الممكن ألا ينطق الراعى أمامهما بأية كلمة، وهو ما لا يمكن أن يكون، اللهم إلا إذا بتر الملك لسانه. وهناك من قال إن الملك فعلا قد قطع ألسنة بعض النسوة اللاتى كلفهن، لا الراعى، بهذه المهمة. ولكن هل كانت النسوة ليظللن يؤدين مهمة كانت سببا فى قطع ألسنتهن ولا يهربن من وجه هذا الملك الظالم المتوحش؟ وحتى فى هذه الحالة فإنهن سوف يَزُمْن تعبيرا عما يدور فى أنفسهن. إننا نحن البشر لسنا آلات يمكن التحكم فيها تماما بل نحن فكر ومشاعر وغرائز تدفعنا دفعا إلى التكلم: فرحا وحزنا وغضبا ورضا ونشوة وفتورا وملالا وتحمسا، وسهوا ونسيانا أيضا. وقد كنت أربأ بهيرودوت، وهو صاحب العقل الحصيف الذى كثيرا ما توقف إزاء هذه

الحادثة أو تلك أو هذا الادعاء أو ذاك وقلَّبه على وجوهه المختلفة حتى استبان له وجه الحق فيه، قد كنت أربأ به أن يقبل هذه الخرافة التى لا تدخل عقل عاقل. لكنه للأسف لم يفعل.

ومن الغريب العجيب أن تقول الخرافة إن الطفلين ظلا عامين كاملين لا ينطقان إلى أن فاجآ الراعى وهو يفتح الحظيرة التى كان يحبسهما فيها بأن صاحا معا وهما يرتميان على قدميه: "بيكوس". ترى هل هناك طفل يظل عامين لا ينطق شيئا؟ والمضحك أن ينطق الطفلان فى ذات الوقت ذات الكلمة دون أن يكون هناك اتفاق عليها. كيف؟ وإذا كانت الكلمة تعنى الخبز كما تقول الخرافة فكيف شعر الطفلان بالحاجة إلى الخبز، وهما لم يَخْبُراه ولم يرياه فضلا عن أن يكونا قد أكلاه؟ إن الطفل لو ترك للبن لظل يطلب اللبن لا يبغى به بديلا. وإذا كان هيرودوت قد وصف القول بقطع ألسنة النسوة المار ذكرهن بأنه سخف من السخف فكيف فاته أن يعمل جهازه النقدى فى الحكاية الخرافية الأصلية إذن؟

لقد قرأت، فى موقع "موضوع"، المقال التالى عن التكلم عند الأطفال (٢٦/ ٢/ ٢٠١٨م): "كيفَ يتعلّم الطّفل الكلام فى الرحم؟ يعتقد العديد من الباحثين بأن لغة التفاهُم والتواصُل تبدأ فى الرحم، فكما يعتاد الجنين على صوت إيقاع قلبك، فهو يعتاد على صوت الأمّ ويُميّزهُ مِن بين الأصوات. ومنذ الولادة وإلى ٣ اشهر من عُمر الطفل: البُكاء هُوَ وسيلة التّواصُل الأولى التّى يستخدمُها الطّفل، وكُلّ نبرة بُكاء تختلِف عن الأُخرى حسب الغرض مِنها.

ومن ٤ إلى ٦ أشهر يبدأ الطّفل فى هذهِ المرحلة العُمريّة بالثرثرة العشوائيّة. ومن ٧ إلى ١٢ شهر سيبدأ الطّفل بمناداة الأُم بـ"ماما" والأب بـ"بابا"، وما إلى ذلك. ومن ١٣ إلى ١٨ شهر: فى هذهِ المرحلة سيبدأ الطّفل بنُطق كلماتٍ مُتفرقة وليست جملا كامِلة. ومن ١٩ إلى ٢٤ شهر: هُنا سيبدأ بتركيب بعض الجُمَل الصغيرة، وستتطور مع مرور الوقت".

على أن هذا لا يعنى أن هيرودوت كان يفضل الفريجيين على المصريين، بل العكس هو الصحيح، إذ كان يفضل دائما المصريين حتى على الأغارقة أنفسهم: ففى ص٦٨– ٦٩ مثلا يقول عن التقويمين: المصرى واليونانى: "أما بخصوص المسائل الإنسانية فالكهنة متفقون فيما بينهم على أن المصريين كانوا، من بين سائر البشر، أول من عرف السنة الشمسية وأنهم قسموا فصولها اثنى عشر قسما. ويقول الكهنة إنهم اهتدوا إلى معرفة هذا التقسيم بمراقبة النجوم. وهم، فى نظرى، يتفوقون بتقويمهم هذا على اليونانيين لأن هؤلاء يضيفون كل ثلاثة أعوام شهرا نسيئًا إلى السنة حتى تستقيم الفصول، أما المصريون فيعدون اثنى عشر شهرا، ولكل منها ثلاثون يوما، ويزيدون على هذا العدد خمسة أيام كل سنة. وبذلك تنتهى دورة الفصول عندهم بنفس التاريخ الذى بدأ به التقويم".

ثم يورد قولهم إن "المصريين كانوا أول من سمى الآلهة الاثنى عشر بألقابها، وإن اليونانيين نقلوا ذلك عنهم. ويقولون إن المصريين كانوا أول من وقف للآلهة الهياكل والتماثيل والمعابد، وإنهم أول من حفر الصور على

الأحجار. وقد برهنوا لى على أن أغلب ما قالوه قد حدث فعلا. وقالوا أيضا إن مينا كان أول ملك لمصر من البشر، وإن مصر فى عهده كانت كلها مستنقعا ما عدا ولاية طيبة، بينما لم يظهر فوق الماء جزء واحد من الأرض التى توجد الآن شمال بحيرة موريس. وهذه تقع من البحر على سفر سبعة أيام تصعيدا فى النهر. ويظهر لى أن كلامهم عن وطنهم صحيح، إذ يتضح لمن لم يستمع إليهم من قبل ولمن عساه أن يكون قد رأى البلاد وحسب، وكان عليما بصيرا، يتضح له أن مصر التى يبحر إليها اليونانيون أرض مكتسبة وأنها هبة من النيل". ومما فضل به مصر أيضا على غيرها من البلاد قوله إن نهر النيل لا يصمد له فى المقارنة من حيث العظمة أى نهر آخر من الأنهار التى يعرفها (ص٨٠– ٨١).

ويذهب هيرودوت إلى القول بأن المصريين هم الذين توصلوا إلى علم المساحة وأن الإغريق قد تعلموا ذلك منهم (ص٢٢٦). وفى كلامه ما يشير إلى أن مصر كانت مقصد مريدى التحضر والتربية السليمة (ص٢٣٠– ٢٣١)، وهو ما أبرزه د. أحمد بدوى فى الهامش الأول من الصفحة رقم ٢٣١. كما أكد هيرودوت أن الأثيوبيين صاروا أكثر تمدنا لأنهم تطبعوا بالطبائع المصرية (ص١١٠). وعند كلامه عن حكم أمازيس لمصر ذكر أن هذا الحاكم هو واضع قانون يفرض على كل مصرى أن يبين كل عام مصادر أمواله لحاكم ولايته، وإلا كان عقابه الموت، مضيفا أن صولون الأثينى نقل هذا القانون عن

المصريين ووضعه للأثينيين وأنهم ما زالوا يطبقونه حتى ذلك الوقت، إذ لم يعترض عليه أحد منهم (ص٣٠٩– ٣١٠) .

ويقف المؤرخ اليونانى أمام ما يسميه: "اللابيرنث"، أى المتاهة، فيصفه وصف عِيَانٍ بأنه عمل يَقْصُر عن وصفه البيان، وأنه لو قُدّر لامرئ أن يجمع معرضا للمبانى والآثار الفنية التى شيدها اليونان لبدت كلها عملا أقل من هذا اللابيرنث بشأن ما تطلبه من نفقات واقتضاه من عمل شاق وما فيه من قاعات تعد بالآلاف تحت الأرض وفوق الأرض، وأن الأهرام تجل عن الوصف وأن كلا منها يكافئ كثيرا من الآثار اليونانية (ص٢٨٠– ٢٨١) . ويبدى د . أحمد بدوى فى الهامش تحسره على ضياع هذا الأثر، الذى كان عجيبة من عجائب الدنيا، وكان يفوق جميع المعابد المصرية من حيث المساحة وتعدد الغرفات وزينتها وزخرفها وتماثيلها .

وعلى نفس النحو من الانبهار يتريث هيرودوت أمام بحيرة قارون، التى يؤكد أنها بحيرة صناعية أحدثها المصريون وأوردوا إليها الماء إيرادا بوساطة قناة. وقد أثار موضوع الأتربة التى خرجت منها: أين ذهبت؟ فقال إنه سأل المصريين الذين يقطنون قريبا من البحيرة، فأخبروه بأن التراب الذى كانوا يستخرجونه من البحيرة كان يحمل إلى النيل ويرمونه فيه، فيأخذه النهر فى طريقه. وقد أعلن تصديقه لهذه الرواية (ص٢٨٣– ٢٨٤) . وفى فلم "الهروب الكبير" نشاهد كيف كان أسرى الحلفاء فى المعتقلات الألمانية يتخلصون من التراب المستخرج من النفق الذى كانوا يعدونه لهروبهم بأن يحمل كل منهم مخلاة

صغيرة داخل ملابسه يملؤها بشيء من تراب الحفر ويفتحها باحتراس وهو يتمشى فى فناء المعتقل فيتسرب التراب خفية إلى ما تحت قدميه، فيسويه بحذائه. ورغم أن فى الأمر فيما يبدو لى مبالغة لا تصدق بسهولة فإنى أكتفى هنا بذكر ما شاهدته فى الفلم لأنه يذكرنا على نحو ما بكيفية تخلص المصريين من أتربة حفر البركة المذكورة طبقا لرواية هيرودوت.

ومما بهره من آثار مصر أيضا ما فعله الملك أمازيس حين أمر بإحضار محراب مقدود من صخرة واحدة من جنوب مصر، واستغرق إحضاره ثلاث سنوات، واستخدم فى هذا النقل ٢٠٠٠٠ عامل. وكان طول المحراب من الخارج كما يقول إحدى وعشرين ذراعا، وعرضه أربع عشرة، وارتفاعه ثمانى. ويقال إن أحد رافعيه قد سُحِق تحته، وإنه لهذا السبب لم يُسْحَب إلى داخل المعبد وظل فى مدخله (ص٣٠٧– ٣٠٨). ولا شك إن سحب محراب بهذه الضخامة وبطول تلك المسافة وبجهد هذا العدد الهائل من الرجال لهو إنجاز خطير ليس له، فيما نعرف، نظير.

والمشهور أن هرقل، كما تقول "الموسوعة العربية العالمية" مثلا، هو إحدى شخصيات الأساطير اليونانية، وأنه ولد فى طيبة، وكان ابن الأميرة إلكمين وزيوس ملك الآلهة، وأن هيرا، زوجة زيوس، كانت تغار من إلكمين وتكره هرقل وتضطهده، وحاولت فى طفولته أن تقتله، ولكنه تنبه لخطتها وأفلت منها. وكان أمامه خياران: الحياة السهلة البهيجة أو الحياة الفاضلة الصعبة مع الانتصار، فاختار الحياة الفاضلة الصعبة. وقد كلف بالقيام باثنتى

عشرة مهمة خارقة أنجزها وأصبح حرًّا طليقًا . وتقول الأسطورة إنه صعد بعد موته إلى جبل الأوليمب وأصبح إلهًا.

لكن هيرودوت يؤكد أن هرقل هذا مصرى لا إغريقى، إذ كان أبواه من سلالة مصرية، وأن الإغريق أخذوه عن المصريين (ص١٣٧– ١٣٨)، ويصف إحدى الروايات الإغريقية عنه بأنها سخيفة (ص١٤٢)، ويفندها لصالح رواية المصريين، إذ يزعم الإغريق أنه لما جاء إلى مصر وضع المصريون الأكاليل على رأسه ليضحوا به للإله زيوس، لكنه لما بدأت شعائر التضحية ثار وقتلهم على بكرة أبيهم. وسر ما فى الرواية من سخف فى نظره معرفته بأن المصريين لا يضحون بالبشر، علاوة على أنه لا يمكن عقلا أن يقدر هرقل على قتل تلك الآلاف المؤلفة وحده.

كذلك أورد هيرودوت فى كتابه قصة هيلينا التى اشتعلت بسببها حرب طروادة المشهورة فى التاريخ والأساطير، ولكنه أوردها طبقا لرواية المصريين، وهى تخالف ما جاء عنها فى ملحمة هوميروس. وقد رجح الرواية المصرية (ص٢٣٤)، مؤكدا أن هوميروس كان يعرف الرواية الصحيحة لكنه أهملها عمدا (ص٢٣٦) .

وفى "الموسوعة العربية العالمية" نقرأ فى مادة "هيلين الطروادية" ما نصه: "هيلين الطروادية أجمل امرأة فى العالم كما تزعم الأساطير الإغريقية. وقد كانت السبب الرئيسى للحرب الطروادية، التى هزمت فيها اليونان مدينة طروادة. وكانت هيلين ابنة زيوس ملك الآلهة حسب الأسطورة، وأما أمها

فهى من البشر، واسمها ليدا . وطبقًا لإحدى الأساطير ظهر زيوس فى صورة بجعة عندما زار ليدا، وفقست بيضة البجعة فيما بعد لتخرج منها هيلين. وتذكر أسطورة أخرى أن زيوس تزوج نيمسيس إلهة القضاء والقدر فى أساطير الإغريق، التى أعطت ليدا البيضة التى خرجت منها هيلين.

وعندما كانت هيلين طفلة وقع بطل أثينى يدعى: ثيسيوس فى غرامها واختطفها، وأنقذها أخواها كاستور وبولوكس. وتودَّد العديدُ من الأبطال اليونانيين إلى هيلين، إلا أنها تزوجت منيلاوس، ملك إسبرطة. وقد زار أحد الأمراء الطرواديين، ويدعى باريس، إسبرطة وأقنع هيلين بالعودة معه إلى طروادة. وقاد شقيق منيلاوس، ويدعى أجاممنون، جيشًا يونانيًا ضد طروادة ليعيد هيلين، وقُتِل باريس أثناء الحرب. ثم تزوجت هيلين شقيق باريس بعد ذلك ويدعى: ديفوبوس، وقتل أيضًا . وبعد أن استولت اليونان على طروادة عادت هيلين إلى منيلاوس وعاشا سعداء.

وطبقًا لإحدى الأساطير التى ذكرها الشاعر ستيسيكوروس لم تصل هيلين إلى طروادة مع باريس على الإطلاق، فقد رحلت مع باريس بعيدًا إلى مصر حيث ظلت ضيفة على الملك بروتيوس. وذهب شبح هيلين إلى طروادة بدلا منها، وبعد انتهاء الحرب، عادت هيلين إلى منيلاوس وعاشا سعيدين فى مصر. وقد فتنت شخصية هيلين الكُتَّاب لقرون عدة، فصورها بعض المؤلفين امرأة مخادعة يقودها ولع لخيانة وطنها وعائلتها . إلا أن كُتَّابًا آخرين نظروا إلى هيلين على أنها ضحية لا ذنب لها فى جمالها الفاتن".

فهذا الكلام عن مجيء هيلين إلى مصر هو ما يؤكده هيرودوت واصفا فى ذات الوقت كلام هوميروس فى ملحمته بأنه خلاف الحقيقة. جاء فى الصفحة رقم ٢٣١ من كتاب "هردوت يتحدث عن مصر" وما بعدها أن الإسكندر ثانى أبناء برياموس صاحب طروادة، وكان يعرف أيضا باسم "باريس"، قد خطف هيلين من مضيفه فى إسبرطة وركب البحر إلى بلاده، لكن ريحا عاتية طوحت به إلى مصر، ولجأ إلى معبد هناك له حرمته، فلا يستطيع أحد أن ينال ممن يلجأ إليه منالا. إلا أن أخبار الإسكندر اللاأخلاقية وصلت إلى سمع المسؤولين فى البلاد، فأحضروه وتيقنوا من جريمته، ثم تركوه يمضى دون أذى، ودون أن يأخذ معه هيلين أيضا أو شيئا مما استولى عليه من أموال مضيفه. ثم علق هيرودوت على ذلك قائلا: "يخيل إلىَّ أن هوميروس كان على علم تام بهذه الرواية، ولكن لما لم تكن مناسبة للملحمة مثل الرواية الأخرى التى أخذ بها فإنه قد أغفلها مع الإشارة إلى أنه كان على معرفة تامة بها".

كذلك يؤكد مؤرخنا اليونانى أن ميلاميوس العراف والحكيم اليونانى قد تعلم من المصريين الاحتفال بالإله ديونيسيس، ومن ثم فاليونانيون هم الذين أخذوا هذه الشعائر من المصريين، وليس العكس (ص١٤٩– ١٥٠)، وأن المصريين سبقوا الشعوب كلها إلى إقامة الأعياد العامة والمواكب العظيمة، ومنهم تعلمها اليونانيون، بدليل أنها تقام فى مصر منذ زمن بعيد فى حين لم يحتفل بها الإغريق إلا منذ وقت قريب (ص١٥٩)، وأنهم أول من راعى تحريم معاشرة

النساء فى المعابد وتحريم الدخول إليها قبل الاغتسال بخلاف سائر الشعوب حاشا اليونانيين، إذ تعتقد هذه الشعوب أن البشر فى ذلك لا يختلفون عن الحيوانات (ص١٦٦) . وبالمناسبة ففى القرآن الكريم فى سورة "البقرة": "ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد" . وبعض الفقهاء فى الإسلام لا يجيز للجُنُب والحائض والنُّفَسَاء دخول المسجد، اللهم إلا إذا كان الواحد منهم مجرد عابر له. وعلى نفس المنوال نجده يؤكد أن أسماء الآلهة كلها تقريبا قد أتت من مصر إلى بلاد الإغريق (ص١٥٠)، وأن اليونانيين لم يعرفوا أصل أى من الآلهة ولا تاريخها القديم ولا أشكالها إلا بالأمس القريب (ص١٥٥) . كذلك نجده (ص٢٣٧– ٢٣٩) يعيب وينتقد انتقادا شديدا مينلاوس اليونانى لأنه غدر بأهل مصر وذبح اثنين من أولادهم ضحية للإله رغم إكرامهم التام له.

وكان الحرم موجودا فى مصر أيضا، فقد ذكر مؤرخنا اليونانى أنه كان هناك على الشاطئ الشمالى لمصر على الفرع الكانوبى منه معبد لهيراكليس إذا لجأ إليه أى إنسان ورسم نفسه بالعلامات المقدسة لم يحلّ لأحد أن يمسه بسوء، وأن هذه السُّنَّة كانت لا تبرح موجودة فى زمنه (ص٢٣٢) . وقد مر آنفا القول بأن الإسكندر ثانى أبناء برياموس صاحب طروادة قد خطف هيلين من مضيفه فى إسبرطة وركب البحر إلى بلاده، لكن ريحا عاتية طوحت به إلى مصر، ولجأ إلى معبد هناك له حرمته بحيث لا يستطيع أحد أن ينال ممن يلجأ إليه منالا.

ويقول هيرودوت أيضا إن المصريين بوجه عام لا يتخذون عادات اليونان ولا عادات أى من الشعوب الأخرى (ص١٩٩) . ومما ذكره من عادات أسلافنا فى تلك الأزمنة الأساليب التى كانوا يراعونها فى الحداد والدفن، إذ كانوا إذا مات رجل وجيه لطخت كل نسوة بيته رؤوسهن أو وجوههن بالطين، وطفن بالمدينة يلطمن خدودهن وقد شمرن ثيابهن وكشفن عن صدورهن، ومعهن قريباتهن. وهو ما يصنعه الرجال أيضا، إذ يلطمون ويشمرون. وحين ينتهى ذلك تحمل الجثة للتحنيط (ص١٩٢– ١٩٣) . وكنت فى طفولتى أشاهد نساء الميت فى قريتنا يفعلن أشياء شبيهة بذلك كتلطيخ شعورهن بالطين وبالنيلة الزرقاء وصراخهن وخمش وجوههن وشق جيوبهن وتعديدهن مناقب الميت حقيقية كانت أو مزعومة، وتغيير ملابسهن بأخرى سُود، مع مشاركة نسوة الجيران لهن فيما يصنعن.

وما دمنا قد تطرقنا إلى الحديث عن التحنيط فقد كان المحنطون، طبقا لكلامه، يستخرجون المخ من فتحتى الأنف بقطعة معقوفة من الحديد وعقاقير معينة يصبونها بداخل الرأس، ثم يخرجون الأحشاء عن طريق إحداث شق فى الكشح ويغسلونها بنبيذ التمر ويطهرونها بالتوابل، ثم يحشون الجوف بمسحوق المر والدارصينى وغيره ثم يخيطونها ثانية، ثم يملّحون الجثة بتغطيتها بالنطرون لمدة سبعين يوما ثم يغسلونها ويلفونها بشرائط من الكتان الشفاف ويغطونها بالصمغ. وثم طريقتان أخريان للتحنيط ذكرهما هيرودوت أيضا (ص١٩٤– ١٩٨) .

هذا ما قاله هيرودوت نقلا عما سمعه من المصريين، وربما شاهده أيضا . ومع ذلك فقد قرأت، فى "بوابة الوطن الألكترونية" على المشباك تحت عنوان "دراسة كندية: كلام هيرودوت عن التحنيط فبركة" لأمنية نجيب بتاريخ ٢٣/ ٧/ ٢٠١٣م، ما يلى: "بددت دراسة حديثة كثيرًا من الأساطير والأفكار المغلوطة حول المومياوات وأسرار عملية تحنيط المصريين القدماء لموتاهم، ومنها أن التحنيط كان قاصرًا على الملوك والأمراء وأتباعهم المخلصين فقط وأن انتزاع المخ والأحشاء من الأنف كان هو التقنية السائدة فى التحنيط . وحسب الدراسة التى أجراها العالم الكندى أندرو وايد وزميله أندرو نيلسون على ٨٤ من المومياوات القديمة بمتاحف فى جميع أنحاء العالم باستخدام أشعة إكس فإن ما سبق مجرد أقاويل غير دقيقة روج لها المؤرخ اليونانى الشهير هيرودوت حين روى وصفًا لعملية التحنيط خلال زيارته لمدينة طيبة، وأكد فى رواياته أن المصريين يحنطون الأثرياء بانتزاع المخ عبر الفتحة اليسرى من الأنف، ويستخدمون محاليل كيميائية رخيصة فى تحنيط الفقراء الذين يتم دفنهم دون أن يُلَفُّوا فى كفن من الكتان الذى يميز شكل المومياء المعروف .

وأثبتت الدراسة أنه بحلول عهد الملك توت عنخ آمون، الذى توفى عام ١٣٢٣ قبل الميلاد، أى قبل ذهاب هيرودوت لمصر، أصبحت كل تقنيات التحنيط، التى كانت قاصرة على النخبة، متاحة لعامة المصريين وفى مقدرتهم المالية . وأشارت الدراسة إلى أن عملية التحنيط نفسها لم تكن دائمًا مثلما وصفها المؤرخ اليونانى: فأحيانًا كانت تُترَك الأحشاء الداخلية والرئتان والمخ

داخل المومياوات، وفى بعض الأحيان الأخرى كانت تتم إزالة المخ من خلال ثقب فى منطقة التقاء العمود الفقرى والجمجمة وليس الأنف. ولم تجد الدراسة أى دليل على استخدام مواد أخرى أرخص لتحنيط الفقراء، لكنِ العالمان الكنديان لاحظا اختفاء القلب فى معظم الفقراء المحنطين على عكس جثث الأثرياء، الذين احتفظوا بقلوبهم. واستنتج الباحثان فى الدراسة التى نشرتها صحيفة "يو إس إيه توداى" أن الاحتفاظ بالقلب كان امتيازاً خاصًا بالنخبة فقط" . وأترك للقارئ الفرصة للمقارنة بين ما قاله هيرودوت وما قاله العلماء الكنديون. ولست بسبيل إبداء رأيى فى أى الكلامين هو الصحيح أو الأصح (https://www.elwatannews.com/news/details/229904?t=push) .

ويتفوق المصريون، حسبما يقول هيرودوت، على كل الشعوب التى عرفها تفوقا كبيرا، ويؤدون تمارين لتقوية الذاكرة، ويهتمون بصحتهم اهتماما بالغا حتى ليتناولون ثلاثة أيام من كل شهر مقيئات وحقنا شرجية لتنظيف معداتهم، إذ يعتقدون أن جميع الأمراض تأتى من الطعام (ص١٨٢) . وهذا يذكرنا بالقول المشهور: "المعدة بيت الداء، والحِمْيَة رأس الدواء"، الذى يُنْسَب خطًا إلى النبى عليه السلام، بينما يؤكد العلماء أنه من كلام الأطباء، وينص بعضهم على أن صاحبه هو الحارث بن كلدة طبيب العرب فى الجاهلية تحديدا .

وبالمثل يؤكد هيرودوت أن الأطباء كثيرون جدا فى مصر، وأنهم يراعون التخصص مراعاة تامة: فهذا للعيون، وذاك للرأس، وذلك للأسنان، والرابع

للأمعاء، والخامس للأمراض الخفية. . . وهكذا، ولا يخرج طبيب عن تخصصه (ص١٩١– ١٩٢) . ويدلل د. أحمد بدوى (هـ١/ ص١٩١– ١٩٢) على تقدم المصريين القدامى فى الطب، وفى طب العيون على وجه خاص، بأن قورش ملك الفرس، عندما أصيب فى عينيه، استنجد بأمازيس فرعون مصر كى يرسل إليه طبيبا من لدنه ليعالجه.

وفى الصفحة رقم ٢٢٠ يقرر هيرودوت أن الختان تقليد مصرى أصيل أخذه بعض شعوب المنطقة منهم. كما يؤكد أن المصريين هم أول القائلين بخلود الروح، ودخولها بعد فناء الجسد فى جسم حيوان آخر عند ميلاده، ثم بعد تطويفها ثلاثة آلاف عام بجميع مخلوقات الأرض والماء والهواء تدخل ثانية فى جسم إنسان عند مولده، وأن هناك مفكرين أغارقة قد اعتنقوا هذه النظرية، وزادوا فزعموا أنها من بُنَيّات عقولهم هم، وإن لم يسجل أسماءهم رغم معرفته بها .

وثم حكاية هامة رواها هيرودوت عن الملك أمازيس، الذى تزوج امرأة يونانية، لكنه لم يستطع معاشرتها هى بالذات دون سائر زوجاته، فاتهمها بأنها استخدمت ضده وسائل السحر، وقرر أن يقتلها شر قتلة انتقاما منها جراء ما فعلته به حسب اعتقاده، وصارحها بذلك. فما كان منها إلا أن استنجدت بأفروديت ناذرةً لها، إذا ما حلت مشكلتها مع الملك فى الليلة التالية، أن ترسل إليها تمثالا. وقد نجح استنجادها بأفروديت وانحلت مشكلتها مع زوجها، وصارت قريبة جدا من قلبه. وواضح أن الكلام فى

هذه الحكاية عن الربط، الذى لا يزال كثير منا حتى الآن يؤمنون به وينجم عن ذلك الاعتقاد كثير من المشاكل، ومنها القتل. فما تقول الحكاية عما كان الملك ينتويه إذا ما استمرت مشكلته مع زوجته ليس بالشىءالغريب. والذين يؤمنون بالربط منا حاليا يستدعون بعض النصوص الدينية لدعم وجهة نظرهم.

ومما سلف يتضح أن هيرودوت يثنى على مصر ثناء عظيما ويصدق ما يقوله الكهنة عن سبقها وتفوقها حتى على الإغريق أنفسهم، الذين يعتزى إليهم. ومعنى هذا أن الرجل كان حسن الرأى جدا فى مصر وشعبها ولا يحاول النيل منه ولا منها رغم أنه كتب هذا الكتاب لنفسه وقومه، وكان يستطيع أن يعطى نفسه الحرية فى الاختلاق على بلادنا وأجدادنا وتشويه صورتنا كما يشاء. لكنه آثر الموضوعية والتزام الحقائق.

كذلك ذكر هيرودوت أن قمبيز إثر فتحه لمصر ارتكب كثيرا من الشرور وشط فى استعمال العنف والقسوة وظل يمعن فى ارتكاب الآثام حتى أصيب بلُوثَةٍ فجُنَّ، ثم هلك عند سورية فى طريق عودته إلى فارس عام ٥٢٢ ق. م. وذكر د. أحمد بدوى أن ما كتبه هيرودوت عن قمبيز وحملته على مصر هو تقريبا كل ما فى أيدينا عن هذه الحوادث (ص٥٤– ٥٥). بل إن هيرودوت يتفق مع ما قاله المصريون عما ينتظر بلاد الإغريق من جفاف بسبب انعدام الأنهار فى بلادهم، ولم يذمهم أو يقلل من شأن كلامهم (ص٨٥– ٨٦). وبالمثل نراه يغبطهم على سهولة زراعتهم لأرضهم بسبب النهر ومَيْث التربة (ص٨٧)، وإن كان د. بدوى لا يتفق معه فى ذلك (٨٧ فى الهامش). كذلك يرى

هيرودوت أن أجدادنا قديمون قدم الخليقة البشرية (ص٩٠) . ويخطِّئ قومه (اليونانيين) فى تصورهم أن العالم مكون من أوربا وآسيا وليبيا، إذ هناك أيضا مصر كما يقول (ص٩٠– ٩١) .

وقد تناول هيرودوت فى كتابه موضوعات كثيرة: دينية وعلمية وسياسية واجتماعية وجغرافية وفلكية وطبية وغيرها، ولم يقتصر على وصف العادات المصرية آنذاك كما زعم بعض من اعترضوا عليه. ومما وصفه من عادات مصرية (ص١١٦ فصاعدا) أن النساء كن يرتدن الأسواق ويعملن بالتجارة. ولا أدرى ما وجه الغرابة فى هذا حسب كلامه؟ إن هذا يحدث فى بلاد كثيرة جدا فى الشرق والغرب على السواء . وعلى أية حال فالنساء فى مصر حتى الآن يرتدن الأسواق ويعملن بالتجارة. لكن الغرابة فى قوله إن الرجال يَبْقَوْن فى البيوت ويمارسون النِّسَاجة. ووجه الغرابة فى الأمر أن الرجال لا يمكنهم أن يعملوا جميعا فى صناعة النسيج، إذ المجتمعات تحتاج إلى الزراعة والصناعة والنقل والتعليم والبناء والطب والصيدلة وتمهيد الطرق والقضاء والمحاماة والحرب وإقامة شعائر الدين. فكيف يقال إن الرجال فى مصر القديمة كانوا لا يخرجون من بيوتهم وكانوا جميعا يشتغلون بالنسج؟ فمن يقوم بالمهن الأخرى إذن؟

ومما قاله كذلك أن النساء كن يحملن الأثقال على أكتافهن بينما الرجال على رؤوسهم. وهذه لا أستطيع البت فيها، فقد تكون وقد لا تكون. إلا أننا نلاحظ الآن أن الآية انعكست فى هذه النقطة، فالنساء هن اللاتى يحملن

الأثقال على رؤوسهن، والرجال على أكتافهم. ومن العيب الآن أن يحمل الرجل شيئا فوق رأسه. أما زعمه أن النساء يَبُلْنَ واقفات بعكس الرجال، الذين يقعدون القرفصاء حينئذ، فهو زعم عجيب، إذ يصعب جدا على العبد لله أن يتصور وقوع الأمر من النساء على هذا النحو.

وبالنسبة لتناول المصريين طعامهم فى الطرقات فلا أظنه يقصد أنهم جميعا كانوا يفعلون ذلك بل أن تناول الطعام فى الشارع أمر غريب فى البلاد الأخرى. وبالمناسبة فقد جاء وقت على علماء الدين فى الإسلام كانوا يرون أن الأكل فى الطريق ينال من مروءة الشخص. أما الآن فلم يعد فى الأمر ما يعاب، فالناس كلها تقريبا يمكن أن تأكل فى الطرقات بعد اختراع الساندويتش. ولكن استغرابه تَغَوُّطَ المصريين فى بيوتهم هو استغراب غريب مستغرب، فهو مما يُثْنَى عليه لا مما يستغربه المستغربون. أم تراه كان يرى أن الأفضل قضاء الحاجة فى الشارع؟ اللهم إلا إذا كان يقصد أن فى بيوتهم مراحيض، وأن الناس فى كثير من البلاد الأخرى كانوا، إذا قضوا حاجتهم، قضوها خارج البيت بعيدا عن الأنظار لا فى الشارع أمام المارة. وقد غبر على يثرب أيام النبى عليه السلام وقت كان أهلها يقضون حاجتهم فى الخلاء، بعيدا عن العيون بطبيعة الحال. ولكن مما يستغرب فعلا، إن صح، أنه ليس فرضا على الأولاد الذكور أن يعولوا آباءهم، بينما هو فرض على البنات حتى لو لم يردن.

ومما استغربه أيضا من طباع المصريين أنهم يُسْكِنون حيواناتهم معهم فى بيوتهم على العكس من الشعوب الأخرى، التى تسكن فى عزلة عن الحيوانات. وهذه لا تزال عادة فاشية بين الفلاحين المصريين حتى الآن، إذ تشكل الزريبة جانبا من المنزل، مَثَلُ الحيوانات فى ذلك مَثَلُ أصحابها. أما أن المصريين كانوا يعيبون صنع الخبز من القمح والشعير ويفضلون صنعه من الأذرة فقد أذكر أننا، ونحن صغار، كنا نتفاخر بأن خبز بيت الواحد منا مصنوع من القمح غير المخلوط بدقيق الذرة رغم ما كنا نجد من صعوبة شديدة فى مضغه. والآن صرنا على العكس نفضل خبز القمح المخلوط بالذرة لأنه صحى أكثر.

كما ذكر رحالتنا أن أسلافنا كانوا يعجنون العجين بأرجلهم بينما يعجنون الطين بأيديهم. والمعروف أن هرس البلح ليكون عجوة كان إلى وقت غير بعيد يتم بالأقدام، وكذلك عصر الزيتون مثلا، أما عجن الدقيق بالأرجل فلم أسمع به إلا من هيرودوت، وإن كان د. أحمد بدوى لا يستبعد أن يتم هذا فى المخابز العامة. ومع ذلك ففى مخابزنا العامة الحالية لا يحدث هذا على أية حال. كذلك فعجن الطين يمكن أن يتم بالأرجل والأيدى حسب الظروف ومقدار الطين المعجون: فإذا كان كبيرا استُخْدِمَت الأرجل، وإذا كان قليلا فبالأيدى. وأما رفع الروث فقد كان الرجال يتعاملون معه فى الزريبة بالفأس والجاروف بخلاف النسوة الفقيرات اللاتى كن يجمعنه من الطرقات، فقد كن يستعملن أيديهن، وكن يصنعن منه أقراص الجلة لاستخدامها كوقود. وأذكر أن الصينيين

كانوا، منذ عدة عقود، يحولون مياه الصرف الصحى إلى نوع من الوقود السائل. ولا أدرى هل ما زالوا يفعلون ذلك أو أقلعوا عنه كما أقلعت النساء المصريات عن استعمال الروث وقودا. لقد صار الريفيون وسكان المناطق الشعبية بالمدن فى مصر يستعملون الفرن الحديد المتنقل الذى يشعلونه بأنبوبة الغاز، أو يشترونه جاهزا من الطابون.

ومما يخالف المصريون فيه الآخرين أيضا، كما لاحظ هيرودوت، أنهم يكتبون من اليمين إلى الشّمال، والإغريق من الشمال لليمين. ومعروف أن الأوربيين جميعا يفعلون ذلك، أما نحن العرب فنكتب من اليمين إلى الشمال كما كان المصريون القدماء يكتبون. وهناك الكتابة الهيروغليفية، التى تعجّ بصور الطيور والحيوانات والبشر، وهو ما يخالف المصريون القدامى فيه الأمم الأخرى. ومن طباعهم أيضا التى لاحظها هيرودوت زيادة التقوى لديهم عن غيرهم من البشر. فإذا صح هذا فأَمْرٌ يحسب لهم بكل يقين، أما إن كان المراد أنهم يراعون الشكليات الدينية فهذا أمر آخر، وكثير من الناس على مدار التاريخ ينهجون هذا النهج، فيهتمون أشد الاهتمام بسطح الدين مع إهمال الجوهر.

وفى كتاب هيرودوت أن المصريين يَعُدُّون الخنزيرَ نجسًا، ولا يَطْعَمه منهم سوى الفقراء (ص١٤٤). ولا يأكل الكهنة السمك ولا يطيقون رؤية الفول، الذى يقول كاتبنا إن المصريين لا يزرعونه ولا يأكلونه لا مطبوخا ولا نيئا (ص١٢٥– ١٢٦). أكتب هذا الكلام وأنا أضحك، فقد أصبح الفول المدمس

والفول النابت والفول المجروش والفول الأخضر والفول المشوىّ والفول المقلىّ، والبصارة والطعمية والعجة، وهى تُعْمَل من الفول، من أكلات المصريين المفضلة الآن جدا. بل لقد صار الفول والطعمية عنوانا على مصر، وصار عدد مطاعمهما فى البلاد أكثر من الهم على القلب. وتضارع هذه المحلات محلات الفش آند تشيبس فى بريطانيا. وكثير من العرب يعايرون المصريين بهذا اللون من الطعام مع أنه لون شهى وغير معقد ومعقول التكلفة بالنسبة لألوان من الأطعمة الأخرى. وكاتب هذه السطور يغرم غراما شديدا بشطائر الفول والطعمية، ودائما ما تستغرب زوجتى حبى لها وتقول ضاحكة: ألم تشبع أيام العزوبة من الفول والطعمية؟ فأرد ضاحكا: وهل مِنْ عاقل يشبع من الفول والطعمية؟ من فات قديمه تاه!

وفى دين أجدادنا المصريين، حسب هيرودوت، تعقيدات كثيرة جدا. خذ مثلا هذه: إنهم يعتقدون بقداسة الثيران ولكن بشروط، ومن ثم يفحصونها حتى إذا رأى الكاهن شعرة واحدة سوداء فى جسد الثور عده نجسا. وهو يفحصه قائما وراقدا، ثم يسحب لسانه إلى الخارج ليرى هل هو خال من علامات بعينها، كما ينظر فى شعر الذَّنَب ليرى أن نبته طبيعى. وفى النهاية يضع عليه علامة على أنه ثور طاهر. ومن يضحِّ بثور غير موسوم على هذا النحو كانت عقوبته الموت. وبعد هذا يذهبون بالحيوان الموسوم إلى المذبح، فيوقدون نارا ويسكبون خمرا على الضحية ثم ينحرونها وهم يبتهلون إلى الإله، ثم يقطعون رأسها ويسلخون جلدها ثم يستنزلون على الرأس كل ما

عندهم من لعنات. وإذا كان هناك تجار من اليونان باعوا لهم الرأس، وإلا أُلْقَوْا به فى النهر. ومعنى اللعنات: "إن كان هناك خَطْبٌ سيحل بالمضحين أو بمصر كلها فلينزل على هذا الرأس". وحين ينتهون من صلاتهم يخرجون المعدة ويتركون الحوايا والدهن بالجسم، ثم يقطعون الأرجل ونهاية العَجُز والأكتاف والرقبة، ويملأون بقية جسد الثور خبزا نقيا وعسلا وزبيبا وتينا وبخورا ومرا . . . إلخ، ثم يسكبون عليه الزيت ويحرقونه. وأثناء احتراق الأضحية يلطمون جميعا، وبعد انتهاء اللطم يوضع أمامهم طعام مما تبقى من الذبيحة (ص١٢٧– ١٣١).

وفى الكتاب كلام كثير عن الرؤى والأحلام والعرافين والكهان والأوحاء التى يتلقونها من الآلهة وإيمان أجدادنا المصريين بذلك. وهو ما يذكرنا بما كان كهان العرب فى الجاهلية يزعمونه من أنهم يَتَلَقَّوْن الوحى من الجن والشياطين ويصدّقهم الناس ويأتونهم فيستفتونهم فى أمور الغيب والمستقبل والسرقات والمخبَّآت وما إلى ذلك. وجاء الإسلام فقضى على الوثنية ومعابدها وكهانها وأعلن فى حسم جازم أن الغيب من شؤون عالِم السر والنجوى لا يشاركه أحد من مخلوقاته فى هذا. ويمكن القارئ أن يجد شيئا من حديث العِرَافة ووحى الآلهة للعرافين فى ص١٥٦– ١٥٩، ١٨٧، ٢٦٠، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٨٤، ٣٠٦ مثلا. ويتكرر عند هيرودوت كلون من الإجلال والتقديس قوله أحيانا كلما أتى ذكر إله معين: "مَنْ لا أسمّيه" بدلا من ذكر اسمه فعلا (ص٢٦٠، ٣٠٢، ٣٠٣ مثلا)

على أن فى الكتاب خرافات تاريخية لا يمكن تصديقها . فبعد موت سيزوستريس مثلا خَلَفَه على العرش ابنه قيروس حسبما ذكر الكاتب، وحدث أن أصابه العمى حين فاض النهر فيضانا هائلا غمر الزروع وثارت الرياح واضطرب النهر، فتملكه سخطٌ مُضِلٌّ جعله يمسك رمحا ويرميه وسط دوامات النهر، فكان أن عَمِىَ لمدة عشرة أعوام، ثم فى السنة الحادية عشرة جاءه وحى من مدينة بوطو ينبئه أن مدة العقوبة قد انتهت وأنه يمكن أن يسترد نور عينيه إذا غسلهما ببول امرأة لم تجتمع إلا بزوجها فقط، وهو ما لم يتحقق إلا بعد تجربة أبوال نساء كثيرات دون جدوى أحرقهن جميعا، وتزوج تلك التى شُفِىَ على يديها (ص٢٢٨– ٢٢٩) . وهذا كلام لا يصدَّق، ويشبه أحاديث السمر لا التاريخ.

ومن هذه الحكايات الخيالية ما حكاه هيرودوت عن أحد الملوك من أنه نزل حيا إلى العالم السفلى الذى يسميه الإغريق بـ"الجحيم" حيث لعب النرد مع ديميتر وتغلب عليها أحيانا وتغلبت هى عليه أحيانا أخرى، ثم عاد ثانية إلى الأرض ومعه منديل مشغول بالذهب هدية منها . ويضحك الإنسان حين يرى فى الجحيم نردا ولعبا واستمتاعا، والجحيم إنما جعل للعقاب وإحراق من يدخله لا لتسليته وتوفير مواد اللهو له، ودعنا من المناديل المشغولة بالذهب تلك التى تدل على الحب والغزل. فهل فى الجحيم غزل وحب وهدايا ؟ إنه الفردوس إذن لا الجحيم.

ونزول الملك إلى العالم السفلى يذكرنى بشاب معجبانى فى قريتنا أيام طفولتنا كان عاقلا متزنا، وفجأة اضطرب سلوكه وصار يمسك بخيزرانة فى يده يضرب بها من يحلو له ضربهم ممن يقابلهم فى طريقه خلال شوارع القرية وحاراتها . وقيل فى تبرير هذا الاضطراب إنه ضرب ذات ليلة قطة سوداء هى فى الحقيقة جنية من الجن، فخطفته ونزلت به إلى عالمها تحت الأرض وأصابته بالخبل وحُبْسَةٍ فى لسانه. ثم فجأة اختفى من القرية، وأخذنا نسمع أنه يحمل إبريقا كبيرا من الماء يطوف به أيام الجُمَع ساعة الخطبة فى مساجد بعض المدن القريبة يسقى المصلين. ثم بعد فترة عاد إلينا وقد استعاد عقله أو جزءا كبيرا منه وارتدَّ إليه صوته. ثم دارت الأيام ومات رحمه الله بعد أن تزوج إحدى جاراتنا وأنجب منها ولدا صار رجلا ملء هدومه الآن. أما كيف ينزل الإنسان تحت الأرض، إن كان هناك فعلا شىء اسمه "تحت الأرض"، فذلك موضوع آخر.

وقد علق هيرودوت على حكاية نزول الملك إلى عالم الجحيم بما يدل على أنه لا يصدق شيئا منها . قال: "وليقبل رواياتِ المصريين من يرى أن مثل هذه الأشياء تحتمل التصديق. أما أنا فمهمتى أن أسجل فى هذا التاريخ ما أسمع من أقوال أية جماعة" (انظر الحكاية كلها ص٢٤٤– ٢٤٧) . وهناك أيضا حديثه عن بناء الأهرام وما يتصل به من شائعات سخيفة عن اشتغال ابنة فرعون داعرة حتى تستطيع المساهمة فى إتمام عملية البناء (ص٢٤٨)، وهو ما سوف نناقشه بالتفصيل لاحقا .

ومن ناحية الجغرافيا أشار هيرودوت إلى أن الدلتا وما فوقها من جهة الجنوب كانت مغمورة بالماء (ص٨٠)، وأنه كانت هناك ثلاثة أفرع للنيل ثالثها يشق الدلتا فى منتصفها (ص٩٣)، وأن النيل فى الفيضان كان يغمر أجزاء من بلاد العرب وأجزاء من ليبيا (ص٩٥)، وأن أحدا من المصريين أو الليبيين أو اليونانيين لا يعرف شيئا عن منابع النيل (ص١٠١)، اللهم إلا شخصا واحدا يتصور أن منابع النيل فى جنوب مصر (ص١٠٣. وانظر تعليق د. بدوى عن منابع النيل هـ٤ ص١١٣، وكلام هيرودوت مرة أخرى عن منابع النيل ص١١٤–١١٥). وهو يسمى البحر الأحمر: خليجا (ص٨١)، ويقول إنه كان هناك فى مصر بحر غير البحر الأحمر يشقها فى وسط الدلتا، وإن ذلك البحر قد رُدِم فى عشرة آلاف عام. ودليله أن الأصداف مثلا تُرَى فوق الجبال، وأن ثم طبقة ملحية تتآكل بفعلها الأهرام وأن الرمال لا توجد فى مصر إلا على سلسلة الجبال التى تقع فوق ممفيس، كما أن تربة مصر تختلف عن تربة بلاد العرب وليبيا وسوريا. كذلك يعزو تربة مصر السوداء المتشققة إلى أنها رواسب طميية جلبها النهر من أثيوبيا، ولهذا تختلف مثلا عن تربة ليبيا الرملية (ص٨٢– ٨٣). وبالمثل تحدث عن القناة التى حفرها نيخوس بن أبسماتيك وأكملها بعده دارا وصعوبة تحديد مكانها وعدد من هلك من العمال فيها (ص٢٩٠). ويطلق على بلاد النوبة اسم أثيوبيا (ص٨٢) طبقا لما كان يقوله قومه (ص٢٥٥ هـ٤). ويبدو أن ليبيا عنده كانت تغطى كل بلاد المغرب

العربى حاليا . وتنتهى أفريقيا بعد حدود أثيوبيا، التى هى النوبة الحالية. وتختلف أسماء كثير من المدن القديمة عما تعرف به الآن.

وقد اشتهر هيرودوت بأنه "أبو التاريخ" . لقبه به شيشيرون الكاتب والخطيب الرومانى، وشاع ذلك اللقب منذ ذلك الحين. لكن بعض علمائنا يرفضون هذا التلقيب ويرون أنه تلقيب فى غير محله، وأن الأجدر به هو مانيتون المؤرخ المصرى القديم. ومع هذا فقد دافع عن هيرودوت د . أحمد بدوى فى المقدمة التى صدر بها كتاب د . محمد صقر خفاجة: "هردوت فى مصر" قائلا: "فأما أنه "أبو التاريخ"، أى إمام كتاب التاريخ، فذلك رأى رآه الناس منذ نظروا تراثه وقلبوا فيه، ولا حيلة لنا فيما رأى الناس أو اصطلحوا عليه. وتلك كنية لم تعرف لواحد من قبله ولا من بعده، وستظل له ما بقى التاريخ وبقى فى الدنيا من يقرأ التاريخ أو يكتب فيه" (ص ٩) .

وهذا رأيى أيضا مُذْ قرأتُ اعتراض بعض علماء المصريات من أبناء وطنى، كما سنرى بعد قليل، على ذلك التلقيب أو تلك الكنية كما جاء فى كلام د . أحمد بدوى، الذى قال ذلك لأنها مُصَدَّرة بكلمة "أب"، فهى إذن "كنية" تبعا لقاعدة النحاة فى تقسيمات الاسم العلم إلى اسم ولقب وكنية، إذ الكنية لديهم ما كانت مصدرة بكلمة "أب" أو "أم"، واللقب ما أشعر بمدح أو ذم كـ"الزعيم" أو "الموسوس" مثلا، أما الاسم فكـ"أحمد، إبراهيم، سعاد، فاطمة"، وإن كنت أرى أنه لا يكفى أن يكون الاسم العلم مصدَّرا بـ"أب" أو "أم" حتى نعده "كنية" بل لا بد أن يكون أَبا أو أَمَّ فلانٍ أو فلانةٍ مثل "أبو

أحمد" و"أم سميحة"، أما "أبو التاريخ" فالتاريخ ليس فلانا ولا فلانة، ولم يُقْصَد بهذه التسمية الإشارة إلى نسب، بل المقصود مدح الكاتب الإغريقى بالتفوق والريادة فى كتابة التاريخ، ومن هنا يرانى القراء الكرام قد سميتُ ذلك الاسم: "لقبا" لا "كنية".

ومع هذا فلست أحب أن أجعل من الحبة قبة، بل كل ما أردت هو أن أثير مسألة نحوية تحريكا للعقول والقلوب، ثم سواء عندى أخذ القراء الكرام بوجهة نظرى أو وجهة نظر الأستاذ الدكتور. فهو مجرد اجتهاد لأن النحاة، فيما أعلم، لم يلمسوا النقطة التى أثرتها، ومن ثم لم يفرقوا بين "أبو سيد" و"أبو الكرم" مثلا، بل كل ما قالوا هو أن الكنية ما صُدِّر بـ"أب" أو "أم"، هكذا بإطلاق. وأرجو ألا يكون اجتهادى خاطئا.

والآن إلى ما قاله العلماء الذين أنكروا إطلاق هذا اللقب (أو تلك الكنية) على هيرودوت حسبما جاء فى تقرير بعنوان "هيرودوت "أبو الأكاذيب" وليس "أبو التاريخ"- رواد التاريخ الفرعونى اعتبروه من "الجهّال المغرضين"، ويؤكدون: شَوَّه الحياة المصرية القديمة وصَوَّر الفراعنة كأنهم بدائيون يعبدون التماسيح والعجول والقطط" منشور فى صحيفة "اليوم السابع" بتاريخ الجمعة، ١٣ مايو ٢٠١٦م. قال كاتب التقرير:

"وفى تصريحات خاصة لـ"اليوم السابع" قال الدكتور عبدالحليم نور الدين، رئيس اتحاد الأثريين المصريين، إن هيرودوت حاول أن يزيف التاريخ حيث إنه كان يستطلع الأحداث ويراها ثم يكتبها. ومشكلته أنه عندما أتى

إلى مصر فى القرن الخامس ضلِّل فى بعض الأحيان بمعلومات خاطئة حيث إنه كان لا يعرف اللغة المصرية القديمة: الهيروغليفية.

وأكد الدكتور عبدالحليم نور الدين أن هيرودوت كان يعتمد على مصادر غير موثوق بها خلال كتابته للتاريخ، ولذلك كتب بعضا من "الخرافات". وكانت من ضمن المعلومات المغلوطة حكايته لقصة بناء الأهرامات حيث إن هيرودوت قال فى كتابه إن هرم خوفو بُنِىَ بالدعارة عندما طلب خوفو من ابنته ممارسة البغاء، فكان يعطيها كل رجلٍ الحجارةَ لاستكمال بناء الهرم. وهذا كلام عارٍ تماما من الصحة.

وأضاف رئيس اتحاد الأثريين المصريين أن هيرودوت قام بزيارة مصر فى وقت كانت اليونان تعادى مصر، وبالتالى فهو كان ينحاز لبلاده فى طريقة كتابة التاريخ المصرى لأنه فى كثير من الأحيان يعتمد على مصادر يونانية موجودة بمصر آنذاك. لكن فى الوقت نفسه قام بسرد حقائق مهمة لا نستطيع أن ننكرها، فكان يسجل كل الشواهد التى يراها، مشيرا إلى مانيتون، الذى قام بكتابة التاريخ، ولكن النسخة الأصلية من تاريخ مانيتون فقدت أثناء حريق مكتبة الإسكندرية، ولم يصل من هذا التاريخ إلا مقتطفات نقلها بعض المؤرخين.

الدكتور وسيم السيسى، عالم المصريات، قال إن أكبر خدعة فى التاريخ أن يقال على هيرودوت إنه أبو التاريخ. فهذه المعلومة ليست صحيحة على الإطلاق لأن كلامه "غلط"، وأبو التاريخ الحقيقى هو مانيتون، وهو مؤرخ

مصرى من مدينة سمنود، محافظة الغربية، كان كاهنا فى عهد الملك بطليموس الثانى (٢٨٠ق. م)، الذى كلفه بكتابة تاريخ مصر القديمة. وأوضح السيسى أن هيرودوت كان يونانيا، وكتب معلوماته عن رجل الشارع المصرى، وكل ما كتبه هو عادات وتقاليد الشعب المصرى مثل حبهم فى طعام معين، ومثل قوله إنه شاهد المصريين بصحة جيدة، وهذا كله ليس تاريخا، وإنما شواهد بسيطة. لكنْ أبو التاريخ الحقيقى مانيتون، الذى كُلِّف رسميا من بطليموس الثانى حيث سمح له بفتح جميع المكتبات أمامه حتى يستطيع كتابه التاريخ. وأخذ مانيتون هذه المهمة على عاتقه، واعتمد فى كتاباته على الوثائق التى خلفتها الحضارة المصرية، التى كانت تضمها دور حفظ الوثائق بالمعابد، بالإضافة إلى كل ما وجده فى متناول يديه من وثائق الإدارات الحكومية وغيرها.

وأضاف وسيم السيسى أن مانيتون هو من قام بتقسيم الدول إلى قديمة ووسطى وحديثة، بالإضافة لتقسيم الدول إلى أسرات، ولكل أسرة ملوك. وهذا لكونه على علم باللغة المصرية القديمة بإتقان، لكن هيرودوت كان جاهلا بهذه اللغة، ولا يعلم عنها شيئا إلى جانب أنه يونانى، فكيف يصبح هذا أبوالتاريخ؟

وقال الدكتور أحمد حميدة، رئيس المتحف الأثونى، إن هيرودوت وقع فى الكثير من المغالطات التاريخية التى ذكرها فى كتابه عن مصر، الذى ذكر فيه أخطاء كثيرة مثل أسماء وتتابع الملوك وعدد سنوات الحكم، بالإضافة إلى

مغالطات تتعلق بالجوانب الأخلاقية للشخصية المصرية، بالإضافة إلى أنه وأغلب المؤرخين الذين زاروا مصر مثل ديودور الصقلى وبلوتارخ الرومانى زاروها فى أكثر فترات ضعفها فاسْتَقَوُا الكثير من معلوماتهم عن طريق الأساطير والخرافات التى لا تعكس حقيقة الطابع المصرى ولا التاريخ والحضارة المصرية، فجاءت كتابتهم بها الكثير من التجنى على مصر والمصريين.

فمثلا ذكر هيرودوت أن ابنة الملك خوفو صاحب أعظم عجائب الدنيا السبع أرادت أن تبنى هرما لها، فأشار عليها والدها بأن تعمل فى الفجور لكى تستطيع أن تبنى هرمها . وهذا كلام غير منطقى، وينافى كل الأعراف والتقاليد المصرية القديمة التى كانت تدعو دائما للفضيلة وتدعو دائما للأخلاقيات والمثل العليا .

وأوضح أحمد حميدة أنه لا شك أن هيرودوت أشار فى مواضع ليست قليلة إلى جوانب من الحياة الدينية والحياة اليومية المصرية، فلم يكن على طول الخط متجنيا على مصر وعلى حضارتها . وفى النهاية لا يمكننا أن نحكم عليه بأنه كان متجنيا على طول الخط ولا منصفا على طول.

وفى الحقيقة فإن الهجوم على هيرودوت ومحاولة بعض الباحثين إعادة النظر فيما كتبه أمر غير قاصر على المصريين فحسب. فموقع "ancientegyptonline" انتقد هيرودوت قائلا: إن هذه الأساطير مجرد حكاوى خيالية وغير محتملة ولا تمس الواقع، وهذا يرجع إلى أنه زار

مصر خلال فترة قصيرة نسبيًا، بالإضافة إلى أنه لا يعرف اللغة المصرية القديمة. وأكد الموقع أن هيرودوت اعتمد على وصف ما رأى وسمع عن مصر وليس على كتب موثقة. هذا بالإضافة إلى أنه لم يستخدم الأسماء المصرية الفرعونية من أجل القدرة على تحديد ما كان يشير إليه. وهذا ما أكده عالم المصريات بسام الشماع قائلا: إن هيرودوت ارتكب العديد من الأخطاء التاريخية الجسمية فى كتابة الذى يتحدث فيه عن مصر خلال رحلته قام بها .

وأوضح الشماع أن هذا الكتاب تم ترجمته على يد علماء الآثار والتاريخ إلى اللغة العربية وأطلق على هذا الكتاب "هيرودت يتحدث عن مصر" . وبفضل هذا الكتاب تأكدنا من أن هيرودوت زيف التاريخ المصرى ونقل بعض المعلومات المغلوطة التى ليس لها أساس من الصحة. لذلك أطلقت عليه: "أبو الأكاذيب" وليس "أبو التاريخ" مثلما يظن البعض.

وأشار الشماع إلى أن وزارة التربية والتعليم المصرية تظن أن هيرودوت صاحب مقولة أن "مصر هبة النيل" فى مادة الدراسات الاجتماعية، ولكن هذه الجملة ترجع إلى المؤرخ اليونانى هيكاتيه الملطى، الذى سبق هيرودوت بكثير، وذكر هذه الجملة فى أحد كتبه مما يدل على أن هيرودوت "حرامى" اقتبس هذه المقولة ونسبها إلى نفسه. كما سرد الشماع بعضا من الحقائق التاريخية التى قدمها هيرودوت عن حضارة مصر الفرعونية، التى منها أن الرجل المصرى القديم كان يجلس فى بيته ليقوم بأعمال النسيج. ولكن بالطبع هذه الحقيقة غير صحيحة لأن المصريين كانوا يشيدون الأهرامات ويعملون

على رعى الأبقار والأغنام ويزرعون. لذلك غير منطقى أنهم يَبْقَوْن فى البيوت، فمعنى ذلك أن النساء هى اللاتى قامت ببناء الأهرامات وحملت هذه الأحجار الضخمة. وهذا "غير معقول".

وتابع الشماع أن "المرأة لا تصبح كاهنة لإله أو إلهة"، وهذا المعلومة غير صحيحة لأن الحضارة المصرية القديمة تؤكد أن النساء كن يعملن فى المعابد. ووصف الشماع أن هيرودوت وصف فى كتابه الثانى أن "المصريين يعجنون العجين بأقدامهم، أما الطين فيعجنونه بأيديهم"، وهذه المعلومة أيضا ليس لها أساس من الصحة. وهذا يرجع إلى أن المتحف المصرى توجد به تماثيل تعجن العجين بأيديها فى "المَجُور"، وهو إناء ذات شهرة واسعة فى الصعيد المصرى.

ولفت الشماع أن هذه الحقائق المزيفة التى قدمها لم تقف عند هذا الحد مطلقا حيث أكد هيرودوت أن "المصريين لا يبذرون الفول فى بلدهم مطلقا". وبالطبع هذه الحقيقة مغلوطة لأن بمقابر الدولة القديمة اكتشفوا فول بنى استخدمه المصرى القديم لتحضير الطعام أو ليكون غذاء للروح أو للقرابين أو يكون مع المومياوات فى الحياة الأبدية. كما وصف الشماع أن المصرى القديم استخدم الفول فى بعض من الأشياء الأخرى حيث إنه كان يجرش الفول ليصنع منها عجينة، كما يوجد الفول بكثرة فى مقبرة الوزير رخميرع، الذى كان يستغل عجينة الفول لصناعة الفلافل، التى زعم الصهاينة أنهم أول من اخترعوها،

ولكن هذا خطأ كبير لأن الفول موجود منذ أيام تحتمس الثالث فى القرن ١٤٠٠ سنة الميلادى .

وتابع الشماع أن هناك قصتين ذكرهما هيرودوت من وحى خياله، ويوجد بهما تجاوز كبير ومسىء للحضارة المصرية: الأولى تخص بنت الملك خوفو صاحب ٢ مليون و٣٠٠ حجر. يدعى أن ابنته لم يكن لديها أحجار لتشييد الهرم مما يدل على أن الهرم الصغير شُيِّد بالدعارة. هذه الحكاية خيالية ولا يمكن لأى فرد عادى تصديقها . وهذا يرجع إلى أن مصر استطاعت تكوين حضارتها عن طريق الحجر، فكيف لم تتمكن من إقامة هرم صغير؟

أما بالنسبة للقصة الثانية فقال بسام الشماع إن الفراعنة لم يرغبوا فى تحنيط النساء خوفا من الاعتداء الجسدى عليهن من قِبَل المصريين، متسائلا: ما هو مصدر هيرودوت عن هذه القصص والحكايات الخيالية التى اعتمد عليها، خصوصا أنه لم يتمكن من فهم اللغة الهيروغليفية؟

وأضاف الشماع أن هيرودوت روى قصة تقول إن أفعى ذات أجنحة كانت تهاجم مصر، فهجم عليها المصريون وقتلوها ثم احتفظوا بعمودها الفقرى فى مكان ظاهر. وادعى هيرودوت "كذبا" أنه رأى هذا العمود الفقرى أثناء رحلته فى مصر. وهو بالطبع أمر كاذب بالمرة، وهذا لأن الأفاعى عامة لا يدخل فى تكوين جسمها "عمود فقرى" ولا حتى "عظام" من أى نوع. كما تساءل الشماع متعجبا: لماذا لم يذكر هيرودوت أى تفاصيل عن أبو الهول

المصرى؟ فهل يعقل بأن مؤرخا كبيرا تجول فى ساحات الأهرامات لم ير تمثالا بحجم أبو الهول فى منطقة الجيزة؟ ومن الممكن أن يكون هيرودوت اليونانى أراد تسجيل هذه المعلومات المغلوطة لكى يضعف مكانة مصر الحضارية، خاصة بأن اليونان كانت تمتلك حضارة يونانية عريقة. . .

لا نريد أن نقول إن معظم ما تم تدوينه وسرده خطأ، لكن علينا التفكير فى كل ما يطرح علينا وأن ندرسه دراسة حقيقية. والعلم مع تطوره الحديث يتيح لنا كشف العديد من الحقائق التى تنفى بعض ما سجله. على سبيل المثال هيرودوت المعروف بـ"أبو التاريخ"، والذى كان موضع اختلاف بين العلماء والمؤرخين: فمنهم من يقول إنه ليس "أبو التاريخ"، والبعض الآخر يلتمس له العذر لعدم معرفته باللغة المصرية القديمة واعتماده على حكايات من الرجل المصرى القديم".

هذا ما قاله التقرير المذكور. لكن هل حاول هيرودوت، كما نُسِب إلى د. عبد الحليم نور الدين، تزييف التاريخ؟ إن بقية الكلام تسير فى اتجاه معاكس، إذ تذكر أنه تم تضليله. ومعروف أن تعرُّض الشخص للتضليل غير التزييف تماما. فالتضليل معناه أن الشخص المضلَّل لم يقصد الخطأ ولا تعمد الإساءة، بل نقل ما سمع بحسن نية، وأن المشكلة ليست فيه بل فى من روى له ما روى من حكايات خاطئة، بخلاف المزيِّف، فإنه شخص قد دخل الميدان وفى نيته الكذب وتضليل القراء، وهو ما لم يقدم التقرير دليلا على وقوعه من هيرودوت. أما قول التقرير على لسان د. نور الدين إن هيرودوت كان يستطلع

الأحداث ويراها ثم يكتبها فلست أرى فيه سببا لتوجيه اللوم أو الانتقاد إلى المؤرخ الإغريقى.

كذلك فإنه، على قدر فهمى، لا توجد لغة اسمها اللغة الهيروغليفية، اللهم إلا إذا قلنا مثلا إنه توجد لغة تسمى: "اللغة الرقعية أو اللغة الثلثية أو اللغة الديوانية" مثلا. فالهيروغليفية طريقة من طرق الكتابة، وليست لغة من اللغات. ولا أظن د. نور الدين هو قائل ذلك. تقول مادة "الهيروغليفية" بـ"الموسوعة العربية العالمية": "الهيروغليفية شكل من أشكال الكتابة التى تستخدم فيها الرموز التصويرية لتمثل أفكارًا وأصواتًا معينة. وتدل الهيروغليفية فى الأعم الأغلب على الكتابة المستخدمة فى مصر القديمة... واستخدم المصريون القدماء الكتابة الهيروغليفية لمدة تزيد على ٣٠٠٠ عام. وقد استخدموا تلك الكتابة بدرجة رئيسية فى النقوش الدينية على المعابد والنُّصُب التذكارية الحجرية ولتسجيل كلمات وأفعال الشخصيات والأسر الملكية... وبعد انقضاء القرن الثالث الميلادى استبدل المصريون بالكتابة الهيروغليفية ألفباءً أبسط، ولكن سرعان مافُقِدَت المعرفة بهذه الرموز، وبقى معنى الكتابة الهيروغليفية لغزًا مبهمًا حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى عندما تمكن الباحثون من فك رموزها...

تُقْرَأ بعض النصوص الهيروغليفية من اليمين إلى اليسار، وبعضها من اليسار إلى اليمين وفقًا لاتجاه ونوع الحرف الهيروغليفى. وقد كتب النساخون أيضًا بشكل أعمدة تقرأ من أعلى إلى أسفل. تجدر الإشارة إلى أن الكتابة

الهيروغليفية اسْتُخْدِمَت لغرض التزيين والزخرفة. . . وفى فترة لاحقة، حوالى عام ٧٠٠ق.م، استحدث المصريون الكتابة الديموطية، وهى أبسط وأسرع فى الكتابة من الكتابة الكهنوتية. واستخدم غالبية المصريين الكتابة الديموطية، كما استعملها أيضًا النساخون لأغراض المراسلة وحفظ السجلات". وواضح أن الهيروغليفية لون من الكتابة لا لغة من اللغات. وفى الإنجليزية يطلقون على ما لا يستطاع قراءته من الخطوط: "hieroglyphic".

أما إشارة هيرودوت إلى مصدر التمويل الخاص ببناء هرم ابنة خوفو وأنه الدعارة، التى مارستها تلك الابنة، إذ كانت تطلب ممن يعاشرونها حجارة لذلك البناء، واتهام د. نور الدين للرحالة الإغريقى بأنه كان يردد الخرافات ويعتمد على مصادر غير موثوق بها، فالواقع أن هيرودوت لم يؤكد هذا الكلام، بل لم يتركه يمر دون تعليق استنكارى من جانبه، إذ قال: "ولقد بلغ كيوبس، فيما يقولون، أحط درجات الرذيلة حتى إنه، لحاجته إلى المال، وضع ابنته فى ماخور وأمرها أن تحصل على مبلغ معين لم يذكروا مقداره. وفضلا عن حصولها على ما أمرها به أبوها فإنها فكرت بدورها فى ترك أثر خاص بها. لذلك كانت تطلب إلى كل من دخل عليها أن يهدى إليها حجرا. ومن هذه الأحجار، فيما يقال، بُنِىَ الهرمُ الذى يقع بين الثلاثة، وهو أمام الهرم الأكبر" (ص٢٥٤– ٢٥٥). وبالمناسبة قد عاب د. أحمد بدوى فى مقدمته لكتاب د. محمد صقر خفاجة على هيرودوت أنه ردد هذا الكلام السخيف دون انتقاد أو حرج أو تورع (ص٣٦).

لكن هيرودوت فى الواقع لم يورد تلك الرواية إيراد المصدق لها، بل قال: "فيما يقولون"، "فيما يقال". كما أنه، غير بعيد من ذلك، يقول عن هرم الملك مانكاورع إن بعض اليونانيين يذكرون أنه ينسب إلى الغانية رودوبس، ثم يعقب على هذا قائلا: "لكنهم لا يقولون صدقا"، مستبعدا أن تبنى امرأة مثلها هرما، إلى جانب أنها كانت فى ربيع الحياة إبان حكم الملك أمازيس لا فى عهد منكاورع، أى فى عصر لاحق يفصل بينه وبين العصر الذى بنيت فيه الأهرام أعوام طوال. كذلك نراه يقول إنها، وإن كانت قد أحرزت ثروة كافيه لها، لم تكن تملك من المال ما يكفى لبناء هرم مثل هذا. كما اتهم بعض اليونانيين بأنهم هم أصحاب هذه الشائعة. فكيف بعد هذا وذاك تتهمه بأنه قد روى حكاية ابنة خوفو رواية المصدق؟

لقد تشكك الرجل فى كلتا الروايتين، وإن كان تشكيكه فى رواية الغانية أكثر تفصيلا من تشكيكه فى رواية ابنة خوفو. وقد قَرَفَه د. عبد الحليم نور الدين بأنه كان واقعا تحت تأثير العداء الذى كان بين اليونان ومصر فى ذلك الوقت، فكان منحازا لبلاده فى كتابة التاريخ المصرى. لكنْ فاته أن هيرودوت قد أبدى إعجابه مرارا بمصر والمصريين وتقدمهم الحضارى ونَصَّ على أخذ الإغريق منهم هذه أو تلك من العقائد والآلهة وقواعد السلوك وما إلى ذلك كما يظهر فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب.

ويدافع د. أحمد بدوى (فى الهامش رقم ١ ص٢٥٤ وفى ص٣٦) عن خوفو وابنته مشيرا إلى أن تمسك المصريين بقيم الأخلاق الكريمة يمنعهم من

هذا، وبخاصة أن عقوبة الزنا عندهم هى القتل. ولم يستبعد أن تكون هذه الرواية من اختراع أعداء خوفو أو من بعض أولاده من أم أخرى غير أم تلك الابنة. ونضيف نحن إلى هذا أنه لا يعقل أن تزاول ابنة مَلِكٍ كبيرٍ كملك مصر فى ذلك الوقت مهنة الدعارة بحيث يدخل عليها كل من هب ودب. ترى كيف يتحمل أبوها نظرة الناس إليه؟ ثم هل كان خوفو بجلالة قدره وهيلمانه عاجزا عن توفير ما يحتاج من أموال للبناء وغير البناء عن طريق الضرائب مثلا أو مصادرة الأملاك أو حتى إجبار الناس على الدفع؟ فكيف استطاع إذن بناء الهرم الأكبر وتوفير مستلزماته من أحجار وملاط وغير ذلك من مواد البناء، وأطعم وأسكن وأعاش وعالج آلاف العمال أثناء ذلك؟ وكيف بالله يتصرف كل عميل من عملاء ابنته البغىّ فى إحضار الحجر الهائل الضخامة الذى كان عليه إحضاره كما تقول الرواية المضحكة؟

ثم إن ذلك معناه أن البنت كان عليها أن تمارس البغاء بعدد أحجار الهرم قبل أن تقرر التوقف عن هذا العمل الشائن. ومثل هذا العمل لا تستطيعه إلا بغىٌّ محترفةٌ. فهل كانت ابنة خوفو كذلك؟ وأيا ما يكن الحال فلم يعرف التاريخ، فى حدود علمنا، أنْ كلَّف ملكٌ ابنتَه بممارسة الدعارة، وعلى هذا النحو الفاضح، وأن تبيح نفسها للعالمين جميعا، بَلْهَ أن ترضى ابنة ملك بهذا الأمر بكل أَرْيَحِيَّةٍ وانصياعٍ. ومع هذا كله فإنى آخذ على هيرودوت أنه لم يُعْمِل عقلَه كما أعمله فى حكاية البغىّ رودوبس وهرم منكاورع ويَنْفِ الأمرَ كلَّه جملة وتفصيلا كما فعل هناك.

وفيما يتعلق بسكوت هيرودوت عن الحديث عن أبى الهول حاول د. أحمد بدوى، الذى تعجب هو أيضا من هذا الصمت، أن يفسره بأن الرمال كانت تطغى على التمثال أحيانا فتطمره فلا يظهر (هـ٣/ ص٣٠٦- ٣٠٧). لكن ألم يذكر أحد أمام الرحالة الإغريقى قط أن هناك تمثالا عجيبا اسمه أبو الهول مطمورا فى الرمال؟

أما ما ذكره د. وسيم السيسى من أن كل ما كتبه هيرودوت هو عادات وتقاليد الشعب المصرى مثل حبهم لطعام معين وأنه رآهم بصحة جيدة فهو كلام عار عن الصحة تمام العُرْى، فقد تحدث الرجل عن تاريخ المصريين وآثارهم ومعتقداتهم وملوكهم وعاداتهم وتقاليدهم ودينهم وصناعاتهم وعلومهم ومعابدهم وكهانهم ومدنهم وجغرافية بلادهم وما استفاده الإغريق منهم. . . إلخ. فهل هذا بالشىء القليل؟ نعم لقد اكتشف علماء التاريخ المصرى القديم فى كتابه أخطاء ذكر بعضها د. أحمد حميدة فى التقرير الذى نحن بشأنه هنا، ومن قديمٍ اتهمه بلوتارك راميا إياه بالخبث، وكذلك ثوسيديدس البيزنطى. كما كان ألفرد ويدمان المؤرخ الألمانى "شديد الميل إلى عدم تصديق هردوت فى كثير مما رواه عن مصر والمصريين"، وكذلك العالم البريطانى سايس، الذى زنَّه، فى كتاب له صدر أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، بالجهل والسرقة ممن سبقوه، ووليام هايدل فى منتصف أربعينات القرن الماضى، والعالم السويدى سويدربرج فى منتصف العقد الخامس من نفس القرن حسبما نقرأ فى مقدمة

د . أحمد بدوى لكتاب د . محمد صقر خفاجة (بهامشى الصفحتين: العاشرة والحادية عشرة، ومتن الصفحة التاسعة عشرة) .

لكن هذا لا يجعلنا نعمى عما كتبه عن أسلافنا وبلادنا ونقول إن كل ما كتبه هو أننا بصحة جيدة ونحب الطعام الفلانى . هذا فى الواقع جحود أى جحود ! ثم إن اهتمامه بالعادات والتقاليد والحياة اليومية فى مصر القديمة لهو أمر محمود، إذ التاريخ الصحيح ليس هو أخبار الحكام والجيوش والمعارك فقط، بل هو هذا مع أخبار الشعوب وحياتها بكل ما فيها . إن وسيم السيسى فى الواقع يشهد دون أن يدرى شهادة حق فى حق المؤرخ الإغريقى . ولو قارنا بين ما كتبه هيرودوت وما كتبه هوميروس مثلا فى ملحمتيه الشعريتين: "الإلياذة" و"الأوديسة" لتبين لنا قيمة تاريخ هيرودوت، إذ كانت الملاحم مفعمة بالأساطير والخرافات التى لا يمكن ولا يصح الاعتماد عليها فى كتابة التاريخ .

وهناك قول وسيم السيسى أيضا إن أبا التاريخ الحقيقى هو مانيتون المصرى الجنسية، الذى كلفه بطليموس الثانى بكتابة التاريخ المصرى وفتح له جميع المكتبات أمامه، فقام بتلك المهمة معتمدا على الوثائق التى خلفتها الحضارة المصرية وكانت تضمها خزائن المعابد، وقَسَّم الدول المصرية القديمة إلى أسرات وملوك، ونجح فى ذلك أيما نجاح لمعرفته المتقنة باللغة المصرية القديمة على عكس هيرودوت . والواقع إنه ليسعدنى غاية السعادة أن يكون مانيتون على هذا المستوى العظيم من العلم والإبداع، ويحق لى أنا حفيده أن

أفتخر بإنجازه الكبير، بيد أن هذا الافتخار لا ينبغى أن ينسينى فضل هيرودوت رغم كل ما يمكن أن يوجه إليه من نقد، فقد اجتهد وتعب وتجول واستمع وشاهد وسأل وكتب ثم ألف تاريخه، وخصص منه جزءا كبيرا لبلادنا العظيمة ضَمَّنَه أشياء فى منتهى الأهمية لا يمكن تجاهلها ولا التقليل من شأنها رغم قصر المدة التى قضاها فى ربوعنا، وإلا كنا منكرين للجميل.

أما بالنسبة إلى الأخطاء التى نص عليها ذوو الاختصاص فى كتابه فهو فى نهاية المطاف وأوله بشر، وبشر غريب عن البلاد، ولم يمكث بها سوى فترة قصيرة لا تتجاوز أشهرا أربعة كما جاء فى مقدمة د. أحمد بدوى لكتاب د. خفاجة، ولم يكن يعرف لغتها، واعتمد كثيرا على ما قيل له، وعَزَا جانبا كبيرا منه إلى الكهان المصريين. ومعروف الآن أن كثيرا من رجال الدين وعلمائه الحاليين رغم كل التقدم الذى يعيشه العالم تعشش فى أدمغتهم عن الدين والدنيا أفكار عامية مشوشة لا نتقبلها نحن الذين نرى أن عقولنا أكثر تنورا، وأن فهمنا للدين والحياة من ثم أفضل وأزكى. فليس من الغريب أن نجد بين ما كتبه هيرودوت بعضا مما لا ينطبق على الواقع فى مصر أوانذاك. ويكفيه أنه قد حاول كثيرا إخضاع ما يقال له للتمحيص العقلى، وأنه يؤمن بأن بلاده قد أخذت من مصر الكثير. فهو لا يعادى مصر ولا المصريين إذن ولا ينوى من وراء ما كتب شرا.

وإذا كان د. أحمد بدوى قد ألمح إلى أن هيرودوت يعد طليعة للاستعمار الإغريقى لمصر فالحق أنه ليس هناك دليل على هذا، وبخاصة أن

الرجل كان مغضوبا عليه فى بلاده، فتركها وأخذ يسيح فى الأرض، ولم نسمع أن بلاده قد نظرت إلى ما كتبه عن مصر باعتباره تقارير يعتمد عليها فى التطلع لاحتلالها ولا ذكر أحد ذلك منذ ذلك الحين. ثم إن الرجل حين انتهى من رحلاته لم يعد إلى اليونان بل قصد إيطاليا واستقر فى مدينة من مدنها الجنوبية إلى أن وافته منيته كما جاء فى مقدمة د. أحمد بدوى لكتاب محمد صقر خفاجة (ص١٦). بل إنه قد أثنى على العرب لَدُنْ كلامه عن اتفاقهم مع قمبيز الملك الفارسى على مساعدته لغزو مصر قائلا إنهم يوفون بالعهد متى أَعْطَوْا أحدا كلمتهم. ومعروف أن الفرس كانوا أعداء للإغريق وتتصادم مصالح الفريقين فى البلاد المجاورة. فلو كان هيرودوت ربيئةً استعماريةً لقومه لقد كان خليقا أن يهاجم الفُرْس والعرب معا ويَسُوطهم بانتقاداته ويفترى عليهم الأكاذيب انتصارا لقومه. ولكنه لم يفعل.

وقد استند د. وسيم السيسى، فيما استند فى إنكار أبوة هيرودوت للتاريخ، إلى أنه يونانى لا مصرى. وهذا الأمر لا ينبغى أن يفسد علينا رؤيتنا للأشياء ولا موضوعيتنا. فليكن مانيتون مؤرخا عظيما بل فليكن أعظم من هيرودوت ألف مرة، فهذا أمر يبهجنا، لكن هيرودوت سبق مانيتون بزمن طويل. كما أن تاريخه لا يقتصر على مصر بل اتسع فشمل بعض دول المنطقة أيضا. فهو إذن أبو التاريخ بهذا المعنى، ثم يأتى من بعده مانيتون فيتفوق عليه فى كتابة تاريخ بلاده. ما المانع؟ لكم من تلميذ تفوق على أستاذه، لكن هذا التفوق لا يلغى أستاذية الأستاذ ولا تلمذة التلميذ. ومن ثم لا ينبغى أن نتهم

الرجل بأنه "أبو الأكاذيب". أخطأ: نعم. كذب: لم يثبت عليه ذلك. وأخيرا فإن د. عبد الحليم نور الدين قد ذكر، فى التقرير المشار إليه، أن تاريخ مانيتون قد احترق مع مكتبة الإسكندرية ولم يصل إلينا منه سوى مقتطفات من خلال كتابات بعض المؤرخين.

على أن تلقيب الرجل بأنه "أبو الأكاذيب" ليس من بُنَيّات علمائنا هؤلاء بل هو لقب أطلق عليه منذ زمن بعيد ردا على تلقيبه بـ"أبى التاريخ". كتب جوشوا مارك مقالا عن هيرودوت فى " Ancient History Encyclopaedia" المشباكية قال فيه ما نصه بالإنجليزية:

"A Greek writer who invented the field of study known today as `history'. He was called `The Father of History' by the Roman writer and orator Cicero for his famous work: "The Histories" but has also been called "The Father of Lies" by critics who claim these `histories' are little more than tell tales".

ثم مضى الكاتب فذكر شيئا مما استند إليه منتقدو هيرودوت ومتهموه بالكذب، إذ جاء فى كتابه عن بلاد فارس أنه رأى نملا فى حجم الثعلب ينثر ترابا ذهبيا حين يحفر جحره، فأخذوا يلوحون أدهارا بهذا الخبر قائلين إن الرجل يخترع الحكايات اختراعا. إلا أن مستكشفا فرنسيا رأى فى الهيمالايا مرموطا (فأرا جبليا) بهذا الحجم يفعل ما قال هيرودوت إن النمل فى فارس يفعله. وهذا نص ما كتبه جوشوا مارك عن هذا الموضوع:

"One example of this is his claim of fox-sized ants in Persia who spread gold dust when digging their mounds. This account has been rejected for centuries until, in 1984 CE, the French author and explorer Michel Peissel, confirmed that a fox-sized marmot in the Himalayas did indeed spread gold dust when digging and that accounts showed the animal had done so in antiquity as the villagers had a long history of gathering this dust".

كذلك لدينا المقولة الشهيرة الذائعة الصيت والمنسوبة إلى هيرودوت، وهى أن "مصر هبة النيل". وقد أشار بسام الشماع إلى أن مؤلفنا أخذ هذه المقولة من المؤرخ الإغريقى هيكاتيه الملطى. فليكن، لكنها لم تَذِعْ وتَشِعْ إلا بعدما تبناها وأطلقها هيرودوت. وبالمثل يؤكد د.مصطفى وزيرى مدير عام آثار الأقصر أن "مقولة المؤرخ هيرودوت: "مصر هبة النيل" خاطئة تمامًا لكون نهر النيل مر بـ١١ دولة قبل الوصول لمصر... ولم يخلِّف حضارة مثلما خلَّف فى مصر. فإذن فالمقولة الصحيحة أن "مصر هبة المصريين". والنيل يسمى بالهيروغليفى "إتر عا" أى النهر العظيم أو النهر العالى، وهو قريب من المصطلح الذى نستخدمه حاليًا ونقول عنه: "ترعة"، أى مجرًى مائىٌّ يربط مدنا ببعضها أو قرى مختلفة".

ولا شك بالفعل فى أنه لولا المصريون ما كانت مصر، إذ لا يمكن أن يوجد بلد فى غياب أصحابه. لكن د. وزيرى يعرف أيضا أن الحضارة تعتمد

على عدة عناصر: الطبيعة والبشر والزمن. فالعنصر البشرى إذن مهم، لكن عنصر الطبيعة مهم أيضا. ولا شك أن الدور الذى يلعبه النيل فى تاريخ المصريين وحياتهم دور محورى. ونحن الآن نضع قلوبنا على أيدينا خشية أن يحرمنا "سد النهضة" الأثيوبى من جزء كبير من حصتنا من ماء النهر المبارك. وثم فرق هائل بين مصر النيل وبلاد العرب مثلا التى لا يجرى فيها أنهار. فلا يصح أن نغمط فضل النيل. ونحن حين نشيد بالنيل لا نقصد أن للنيل إرادة وأنه يقف معنا عن وعى واختيار وحب، بل نقصد أنه عامل حاسم من عوامل نهضتنا ودعامة راسخة صلبة من دعائم وجودنا قَيَّضَها لنا ربُّ الكون سبحانه، الذى خلقنا كما خلق لنا النيل، فتعاونّا نحن والنيل فى صنع الحضارة المصرية.

على أن د .أحمد بدوى، رغم ما أخذه على هيرودوت، لم يقلل من شأن هيرودوت، بل أثنى عليه فى مقدمته الأولى للكتاب ثناء عظيما حتى لقد دعا له بأن يغمره الله ببره ورحمته وأن يغفر له ما قد يكون قد وقع فيه من أخطاء تاريخية. قال: "وإذا كان هردوت قد ودع الدنيا إلى الآخرة ليلقى جزاءه بين يَدَىْ عالِمِ الغيب والشهادة فإن من الحق علينا، نحن أبناء هذا الشعب الإمام البنّاء وخلفاء ذلك السلف الصالح الذى سبقنا إلى تعمير هذا الوطن والإسهام فى تأدية رسالة النور والخير إلى العالم الإنسانى كله، أن نذكر هردوت بالخير والشكر وعرفان الجميل وأن ندعو الله أن يغمره ببره ورحمته

وأن يغفر له ما قد يكون وقع فيه من سوء بجهالة أو خطإ فى التقدير. فالله سبحانه واسع المغفرة، وهو الغفور الرحيم" (ص٦).

ليس ذلك فقط بل يقول فى المقدمة الثانية للكتاب (ص٢٤) إن هيرودوت "لم ينس... أن يتحدث عن تقدمهم (أى المصريين) فى العلوم التى بَزُّوا بها شعوب الدنيا ودُورِ عبادتهم وما ضمت عمائرها الرائعة من قصور ومسلات، ومن تماثيل وصور ومحاريب، ومن كنوز رائعة، وتحدث عن الأهرام وعن قصر التيه (اللابيرنث)، وعن القناة التى تصل ما بين النيل والبحر الأحمر، وعن بحيرة موريس وعظمتها وعن قيمتها وأثرها فى حياة البلاد الزراعية والاقتصادية. كل أولئك أشياء وصفها هردوت. وليس من الإنصاف أن ننكر عليه فضله فى ذلك. جزاه الله، برغم كل شىء وبرغم كل ظن، عن هذا الوطن وشعبه خيرا".

وهو كلام بلغ فيه د. بدوى غاية السماحة وسعة العقل والصدر. وهذه أول مرة أرى من المسلمين أو من غير المسلمين من يدعو لواحد من الأقدمين السابقين على دينه، وبخاصة إذا كان وثنيا حسبما نظن. ثم لم يكتف د. بدوى، عليه رحمات الله، بهذا بل مضى فكال الثناء والإعجاب كيلا للكتاب أيضا. ومع هذا فإن د. بدوى قد انتقد هيرودوت وشكك فى مصادره ورجح أن تكون هذه المصادر فى الأغلب الأعم هى بنى قومه الذين كانوا يعيشون فى مصر دون أن يكونوا ملمين جيدا بأوضاع المصريين وثقافتهم وتراثهم (ص٣٠).

ديودور الصقلى

ديودور الصقلى مؤرخ يونانى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد . وهو من مواليد صقلية طبقا لما أخبرنا به هو نفسه فى موسوعته: "مكتبة التاريخ" . وعاش فى روما فى عهدى يوليوس قيصر وأغسطس، وزار عدد من البلدان جنوب البحر المتوسط وشرقه بين عامى ٦٠ و٥٧ ق. م. وكتب تاريخ العالم فى موسوعة من أربعين مجلدا أسماها: "Bibliotheca historica"، وقد أطلق عليها "مكتبة" لأنها كانت تجميعا لعمل الكثير من المؤرخين. وللأسف لم يتبق منها إلا خمسة عشر مجلدا لا غير. وقد خص ديودور بالمجلد الأول تاريخ الحضارة المصرية القديمة، وبالمجلد الثانى الحضارة الآشورية وتاريخ الشام وبلاد الرافدين وتاريخ الهند وشبه الجزيرة العربية، وبالمجلد الثالث شمال أفريقيا، أما تاريخ اليونان وأوروبا فخصه بالمجلد الرابع والخامس والسادس. . . وهكذا . وسوف يكون كلامنا هنا عما كتبه ديودور الصقلى عن بلاد العرب فى المجلد الثانى. وقد ذكر الرجل أشياء كثيرة هامة عن تلك البلاد، فتحدث عن صحرائها وشدة حرارتها وثمارها وفواكهها وزهورها ونباتاتها وحيوانها وخيامها ونشاط سكانها . لكنه للأسف لم يتحدث عن لغتها ولا أدبها ولا دينها، ولم يورد شيئا عن رجالها ومشاهيرها .

ويفهم من كلامه فى وصف النعامة وفواكه الجزيرة العربية وصحرائها وسكانها أنه زار بلاد العرب. لكن وهيب كامل، الذى نقل الجزء الخاص بمصر من كتابه عن تاريخ العالم، يؤكد فى مقدمته لترجمة هذا الجزء، أنه لم يزر من

البلاد التى كتب عنها سوى روما ومصر، ولم يزر مصر كلها بل بعضا منها ليس إلا. قال ما نصه: "ويَدَّعِى ديودور أنه زار كل الأماكن العظيمة الشأن فى أوربا وفى الشرق وأنه لاقى فى هذا السبيل متاعب وأهوالا جساما، ولكن ليس فى كتاباته ما يثبت لنا أنه زار بلادا غير روما، التى قضى فيها زمنا ما ووجد كثيرا من المواد الأساسية لدراسته، ومصر، التى انحدر فيها جنوبا حتى منف. فقد ورد فى وصف منف ذكر ضريح لإزيس يُرَى إلى وقتنا هذا فى حرم معبد هيفا بستوس. ويذهب البعض إلى أنه زار الأقصر محتجين على ذلك بأن الدقة التى يمتاز بها وصفه لمعبد الرمسيوم لا تتأتى إلا لشاهد عيان. ولكن إذا كان ديودور نفسه قد عزا الوصف إلى المؤرخ هيكاتيوس فليس بنا من حاجة إلى افتراض أمر رحلته إلى الأقصر. أما سائر ما ورد فى رواياته عن مصر من تفاصيل فقد يكون مستقى من هيرودوت وهيكاتيوس والمؤرخ الجغرافى أجاثار خيديس إلا كنيدى، الذى عاش فى القرن الثانى ق. م.

ويشير ديودور أحيانا كثيرة إلى الوثائق المصرية الهيورغليفية كأنه اعتمد عليها فى إثبات تاريخ البلاد. والواقع من الأمر أنه كان يجهل اللغة الهيروغليفية. فإشاراته إلى النصوص الهيروغليفية مأخوذة من المؤرخ هيكاتيوس. ونستطيع أن نؤكد كذلك أن ديودور لم يزر بلاد النهرين لأنه قال إن نينوى تقع على نهر القرات. ومن حسن الظن به أن ننفى أمر ذهابه إلى أثينا. هذا خير له من أن نقول إنه ذهب إليها ولم يجد فى بدائع الأكروبول ما يستحق الذكر. وقال ديودور إنه اكتسب من الرومانيين فى صقلية معرفة واسعة باللغة

اللاتينية. ولا نستطيع أن نجزم بأنه استعمل فى دراسته تاريخ روما المصادر اللاتينية أم المصادر اليونانية. ويذهب بعض النقاد إلى أنه كان يجهل اللغة اللاتينية جهلا يكاد يكون تاما، ولكننا لن نأخذ برأيهم دون تحفظ. فلعل معرفته باللغة اللاتينية كانت بالقدر الذى يسمح له بالنظر فى المصادر ومراجعتها" (ديودور الصقلى فى مصر – القرن الأول قبل الميلاد/ ترجمة وهيب كامل/ دار المعارف/ ٢٠١٣م/ ١٠- ١١).

ويقول د. إحسان عباس (بحوث فى تاريخ بلاد الشام- تاريخ دولة الأنباط/ دار الشروق/ عمان/ ١٩٨٧م/ ١١) إن ديودور الصقلى اعتمد على تاريخ كتبه شاهد عيان اسمه هيرونيموس القارديائى (Hieronymus of Cardia). وقد صور لنا الأنباط ووصف بعض أحوالهم فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد اعتمادا على ذلك المصدر. لكن كلامه يوحى أنه يتحدث عنهم حديث عيان، وليس قبل ذلك بعدة قرون.

والآن إلى حديثه عن بلاد العرب، فنجده يقول أولا إنها تقع بين الشام ومصر. ولا يدرى الإنسان كيف يكون ذلك، فالشام إن كانت تقع فوق بلاد العرب، أى شمالها، فإن مصر لا تقع تحت بلاد العرب فى الجنوب، بل الواقع جنوبها هو بحر العرب والمحيط الهندى. وإنما تقع مصر غرب البحر الأحمر، الذى يقع بدوره غرب بلاد العرب. فكيف تكون بلاد العرب واقعة بين الشام ومصر. وكما رأينا فقد ذكر وهيب كامل مترجم الجزء الخاص من كتابه عن مصر إلى أن دعواه زيارة كثير من البلاد هى دعوى غير مسلمة، ووقف مثلا

عند قوله مثلا إن نينوى تقع على نهر الفرات فى بلاد ما بين النهرين. ولوهيب كامل الحق فيما قال، فنينوى آخر عاصمة للإمبراطورية الآشورية القديمة كانت قائمة على الضفة الشرقية لنهر دجلة على بعد ٣٧٠كم تقريبًا شمالى بغداد الحالية، وليس على الفرات. وها هو ذا ديودور يقول إن بلاد العرب تتوسط ما بين الشام ومصر، وهو قول غير صحيح كما يعرف ذلك كل من له أقل إلمام بخريطة المنطقة. ثم لو كان قد زار بلاد العرب، وهى التى تهمنا الآن، فأين الحكايات التى تقص ما رآه وسمعه وقابله هناك من أشخاص وأحداث كما هو الحال مثلا فيما كتبه هيرودوت عن مصر حسبما رأينا فى الفصل الخاص به؟

كذلك نراه يقول إن بلاد العرب مقسمة بين عدة أمم. لكنه لا يذكر إلا أمة واحدة هى العرب، ومنهم العرب الأنباط، الذين يقول إنهم يقطنون شرقى البلاد، ويشغلون مساحة من الأرض هى فى جزء منها صحراء، وفى الأجزاء الأخرى بدون ماء. ولا ندرى هنا أيضا ما المراد من أن بعض الأرض التى يسكنونها صحراء، وبقيتها بلا ماء. فهل الجزء الصحراوى من أرضهم ذو ماء كما يفهم من الكلام؟ ثم يمضى مؤكدا أن أرضهم شحيحة الثمر، ومن ثم لا يجد السكان وسيلة للعيش سوى السلب والسرقة. واستطرد قائلا إنهم يجوبون البلاد المختلفة يزعجون السكان بسرقاتهم. وهو يتحدث عنهم على هذا النحو وكأنهم مجموعةٌ من اللصوص وسَلَبَة الأموال لا تستقر فى مكان بل دائمة التحرك هنا وهناك لا شعبٌ له دولة مستقرة ويعيش حياة اقتصادية مزدهرة كما سوف نرى حالا.

ويمضى فيقول إنه من الصعب السيطرة عليهم، إذ لهم فى تلك البلاد الجافة آبار حفروها وغَطَّوْها فى مواضع يسهل عليهم وحدهم الوصول إليها ولا يعرف أحد من الغرباء طريقها، فيلجأون إليها ساعة الخطر ويجدون عندها الأمان، على حين يموت مطاردوهم عطشا أو بأية بلوى أخرى، ونادرا ما يعودون إلى بيوتهم. ثم يضيف أن هؤلاء العرب لا يمكن غزو بلادهم أو استعبادهم. وهم من جانبهم لا يقبلون أن يحكمهم أحد غيرهم، ويعيشون فى حرية دائمة وكاملة، ولم تستطع أمة من الأمم المجاورة أن تغزوهم رغم زحفها على بلادهم بجيوش جرارة.

وذكر ديودور الصقلى أنه كان للأنباط صخرة شديدة التحصين تُبْلَغ قمتها بوساطة طريق واحد لا يتسع إلا لمرور شخص واحد كانوا يصعدون إليها ويلقون بأحمالهم، وأن فى بلادهم بحيرة كبيرة ماؤها نتن الرائحة مر المذاق لا يمكن أن يعيش فيها سمك أو أى كائن حى آخر، وأن ثم أنهارا بلغت الغاية فى عذوبة المياه تصب فى تلك البحيرة، ومع ذلك تظل البحيرة منتنة الرائحة. ولكن كيف يا ترى تكون هناك تلك الأنهار، وقد قال قبلا إن البلاد جافة تماما ؟ وهل من المعقول أن يكون عند القوم تلك الأنهار الحلوة المياه ولا ينتفعون بها لا فى زراعة ولا فى شرب؟ ويقول أيضا إنه فى كل عام يطفو الكبريت فى منتصف سطح البحيرة على هيئة قطع ضخمة، فيبدو من بعيد كأنه جزيرة، ويعلو البحيرة حينئذ بخار منتن يتغير لون الذهب والفضة والنحاس بسببه ثم يعود كل معدن إلى لونه الطبيعى بعد انقشاعه. كما تصيب الأمراض أجساد

البشر وتقصر أعمارهم بسبب النار والنتن. ومع هذا يكثر هناك النخيل لأنه يسقى بماء الأنهار والينابيع الصحية، وينمو البلسم، الذى يجنون منه أرباحا طائلة، إذ لا ينمو فى أى مكان آخر بالعالم، فهو يشكل دواء رائعا يصفه الأطباء لمرضاهم.

لكن إلى أى حد يصدق كلامه عن الأنباط؟ جاء فى مادة "الممالك العربية القديمة" من "الموسوعة العربية العالمية" عن الأنباط ما يلى: "مملكة الأنباط (٣٠٠ق. م- ١٠٦م): الأنباط أو النبطيون قبائل بدوية كونت مملكة امتدت من غزة شمالا إلى مدائن صالح جنوبًا، واتخذت البتراء عاصمة لها. وقد بدأت مملكة الأنباط فى القرن الرابع قبل الميلاد، وبلغت أوج مجدها فى القرن الأول الميلادى حيث امتد نفوذها إلى دمشق. واكتسبت هذه المملكة أهميتها من وقوعها فى طريق التجارة من الشمال والجنوب. وضعفت البتراء عندما اتجه الرومان إلى السفر بحرًا إلى الهند. وعندما رأى الرومان توسع الأنباط هاجم الامبراطور تراجان البتراء ودمرها عام ١٠٥م، وضم مملكة الأنباط إلى مملكته".

وهو ما نقرؤه أيضا فى مادة "الأنباط" بموسوعة "المعرفة" المشباكية مع الإضافات التالية: ". . . وكان جيروم أول من رأى نسبة الأنباط إلى نبط بن إسماعيل بن إبراهيم. وهو، بحسب كتب السيرة، جد النبى محمد. وأقدم ما يعرف عنهم هو ما دونته السجلات الآشورية فى القرن الثامن قبل الميلاد عن شعب يدعى: "نبطو" كان يسكن فى شمال الجزيرة العربية. وأقدم خبر عن

مملكتهم هو غارة قام بها أنتيجوناس حاكم سورية اليونانى فى سنة ٣١٢ ق. م. على مدينة البتراء، وإن ذهبت تلك الغارة بغالبية جنود أنتيجوناس.

لقد كان الأنباط يطلقون على انفسهم اسم "النبط"، وهى قبيلة بدوية كانت تنتشر فى سيناء والنقب منذ القرن السادس قبل الميلاد. وفى القرن الثانى قبل الميلاد احتلوا مناطق الأدوميين فى الأردن وأخضعوهم وأقاموا مملكة الأنباط وجعلوا سلع (الرقيم) عاصمتهم. وكذلك تمكنوا من إخضاع عدة شعوب أخرى كالآراميين والكنعانيين والقيداريين والعمونيون والمدينيين فى المنطقة الممتدة بين دمشق وسيناء. وتمددوا لمنطقة العلا واتخذوا من الحِجْر (مدائن صالح) مدافن لأثريائهم وسادة القوم والمسؤولين النبطيين...

وكان النبط (الأنباط) قبائل بدوية ينتشرون فى النقب وسيناء بالأصل، واحتلوا مناطق الأدوميين بالأردن فى القرن الثانى قبل الميلاد. وذُكِروا فى النصوص الآشورية على أنهم يعيشون فى بادية الشام وأنهم تحالفوا مع قبيلة قيدار الإسماعيلية. وورد فى النصوص الآشورية أن ملك قمرو (مالك قمرو) ابن عميطع سيد قبيلة مسئا الإسماعيلية غزا قبيلة نبطى، وقتل عددًا من أتباعها. وتطلق النصوص الآشورية تسمية "العرب" على القيداريين، لكنها لا تطلق هذه التسمية على النبط.

وقد امتدت دولة الأنباط فى أوج ازدهارها من سيناء الى النقب إلى جنوب سوريا. وكان حارثة أول ملك نبطى ذكرته النقوش سنة ١٦٩ ق. م. والأنباط أو النبط قبائل بدوية من سيناء والنقب تمكنت من الاستيلاء على سلع/ البتراء (مدينة الأدوميين) وجعلها عاصمه لهم". وثم صورة مرفقة بهذه

المادة لآثار نبطية كتب تحتها العبارة التالية: "آثار مدينة عبدة النبطية على قمة جبل فى النقب ترجع الى القرن الأول قبل الميلاد" .

وفى نفس المادة بموسوعة "ويكيبيديا" نقرأ الآتى: "الأنباط (النبط: ١٦٩ق. م – ١٠٦م) هى مملكة عربية قديمة قامت فى صحراء النقب وسيناء والأردن وأجزاء من شمال شبه الجزيرة العربية. وكانت عاصمتهم مدينة البتراء فى الأردن، وكانت محطة إستراتيجية واقعة على طريق البَخُور، إذ إنها تقع على مفترق طرق القوافل القادمة من اليمن، وتربطها بالشام ومصر والبحر الأبيض المتوسط. وكان اهتمامهم قليلا بسلسلة الواحات المنتشرة التى كانت ضمن مملكتهم، ومارسوا الزراعة بشكل محدود، ولم تكن حدودهم مع الصحراء مؤمَّنة بشكل فعال. وفقدت استقلالها فى عهد الإمبراطور الروماني تراجان. وقد تمكن الأنباط من استغلال موقع بلادهم لمرور شرايين التجارة بين الشام واليمن، وكذلك قاموا بالوساطة فى نقل التجارة بين مصر والشام وأماكن أخرى من شبه الجزيرة العربية، ففرضوا ضرائب على التجارة والتجار. وقد كان ميناء غزة المفضل لدى الأنباط لقربه من البتراء، بالإضافة إلى أنهم شقوا قنوات الرى واهتموا بالزراعة واستغلال أرضهم وما فيها من موارد طبيعية، وتعلموا وأتقنوا استغلال مناجم النحاس والحديد . كما ضربوا النقود على الطريقة الشامية وجمعوا ثروات عظيمة نتيجة لازدهارهم الاقتصادي.

ونشأت مملكة الأنباط فى الأردن والنقب والمنطقة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة العربية فى المكان الذى عُرِف باسم "بلاد العرب الحجرية أو الصخرية: Arabia Petrea" عند الإغريق والرومان. وكانت دولة الأنباط تمتد من حدود دمشق شمالا إلى حدود العلا جنوبًا، ومن بادية الشام شرقًا مرورًا إلى صحراء النقب وشبه جزيرة سيناء غربًا. وفى أوج اتساعها امتدت دولة الأنباط من منطقة دمشق إلى شبه جزيرة سيناء، وشملت صحراء النقب وسهل البقاع، وضمت الأجزاء الجنوبية والشرقية من فلسطين وأقاليم حوران وأدوم وردان وأجزاء من ساحل البحر الأحمر".

وننقل أيضا من النسخة الإنجليزية من نفس الموسوعة هذه الفقرة التى تقول نفس الشىء عن الأنباط ومملكتهم المزدهرة وموقعها:

"The Nabataean Kingdom (Arabic: الْمَمْلِكَة ٱلنَّبَطِيَّة, translit. *Al-Mamlikat An-Nabaṭiyyah*), also named: Nabatea (/ˌnæbəˈtiːə/), was a political state of the Arab Nabataeans during classical antiquity. The Nabataean Kingdom controlled much of the trade routes of the region, amassing a large wealth drawing the envy of its neighbors. It stretched south along the Red Sea coast into the Hejaz, up to as far north as Damascus, which it controlled for a short period (85–71) BC".

وفى النسخة الفرنسية من موسوعة "إنكارتا": " Nabatéens, ancienne peuplade du nord-ouest de l'Arabie. Sa capitale était située à Pétra, en Jordanie. Au I^er^ siècle av. J.-C., le royaume nabatéen englobait une large zone à l'est de la Palestine, de Damas à la mer Rouge. Il fut annexé par Rome en 106 apr. J.-C. et devint la province d'Arabia Petraea. Les Nabatéens parlaient une

langue nord-sémitique, dont l'écriture annonce celle de l'arabe".

فكلام ديودور الصقلى إذن عن وجود أنباط فى بلاد العرب صحيح، وإن لم تنحصر حدود دولتهم داخل بلاد العرب بل شملت بعضا من سورية كذلك. وصحيح أيضا أنهم كانوا قوما مُتَبَدّين. لكنهم لم يكونوا يسكنون شرق جزيرة العرب كما يقول بل بعض المناطق الغربية فى جنوب الشام وشمال بلاد العرب. كذلك كان للأنباط فى وقت ديودور الصقلى مملكة وعاصمة، وتستفيد من التجارة التى تمر بها وتعيش جراء ذلك فى ازدهار اقتصادى. وهذا كله لا يتسق مع ما يقوله عن اعتماد الأنباط فى عيشهم على النهب والسرقة. كما أنهم لم يشكلوا أمة مختلفة عن العرب بل هم عرب من العرب، مثلهم فى ذلك مثل المناذرة والغساسنة والسبئيين والمعينيين.

لو أنه قال إن سائر العرب فى معظم الجزيرة ممن لم يكونوا ينضوون تحت أية دولة بل كانوا منقسمين إلى قبائل ويعيشون على الرعى فى الأغلب الأعم كانت تقوم بينهم الحروب لأتفه الأسباب، ويرون فى الإغارة بعضهم على بعض عملا من أعمال البطولة والفخار لكان لكلامه معنى. أما الأنباط فكانوا، كما رأينا، أصحاب دولة رغم أنهم كانوا فى البداية بدوا، إذ تطوروا واستقروا واشتغلوا بالتجارة والزراعة، وكانوا يفيدون أولا من التجارة المارة بأرضيهم بين الشمال والجنوب، ثم صاروا هم أنفسهم تجارا كما ذكر د. إحسان عباس فى كتابه عنهم. كما أن كلام موسوعة "المعرفة" عن حملة أنتيجوس وهلاك معظم جنودها يتسق مع ما قاله ديودور الصقلى عن فشل الجيوش التى حاولت

إخضاع النبطيين وهلاك الكثير منهم فى الصحراء. أما حديث مادة الموسوعة عن الآثار الموجودة فوق أحد جبال النقب فقد يذكّرنا من بعيد بكلامه عن الجبل الذى كان الأنباط يصعدونه ويلقون عليه بأحمالهم، وإن كان كلامه فى هذا الصدد موجزا وغامضا وغريبا.

ولكن ما تلك البحيرة الآسنة المنتنة الرائحة التى لا يعيش فيها سمك ولا أى كائن حى وتظهر على سطحها قطع الكبريت الضخمة ويتصاعد حولها بخار له نفس نتانة مائها، ويصب فيها عدد من الأنهار العذبة، ورغم ذلك يظل ماؤها كما هو لا يتغير؟ لا أستطيع أن أفكر فى هذا السياق إلا فى البحر الميت، الذى جاء وصفه فى "الموسوعة العربية العالمية" على النحو التالى: "البحر الميّت بحيرة مالحة تقع فى فلسطين المحتلة والأردن عند مصب نهر الأردن. يعد ساحله الذى يبلغ ٣٩٩م تحت مستوى سطح البحر أكثر الأماكن انخفاضاً على وجه الأرض. والبحر الميت هو أشد المسطحات المائية ملوحة فى العالم، إذ تبلغ ملوحته تسعة أضعاف ملوحة المحيط. ويشكل هذا البحر جزءًا من الحدود الفاصلة بين فلسطين والأردن. وتبدو مياه البحر الميت هادئة رقراقة، وتحيط به أرض صخريَّة قاحلة، وترتفع فوق ضفتيه الشرقية والغربية صخور زاهية الألوان. وقد سميت البحيرة بـ"البحر الميت" لأنه لا يوجد فيها سوى القليل من النباتات، كما أنه لا يوجد فيها أسماك غير روبيان المياه المالحة. وإلى جانب هذا تكاد الحياة النباتية تنعدم تمامًا فى الأراضى المالحة التى تحيط بها.

ويقع البحر الميت فى غَوْر عميق فى القشرة الأرضية وتغطى مياهُه نحوًا من١٠٤٠كم٢، ويبلغ عرضه ١٨كم عند أشد النقاط اتساعًا، بينما يبلغ طوله زُهَاء ٨٠كم. وفى البحر الميت شبه جزيرة تعرف باسم "اللِّسان" تمتد إلى داخل البحر الميت من ساحله الشرقى. وشبه الجزيرة تقسم البحيرة إلى حوض شمالى كبير، وحوض جنوبى صغير. ويضم الحوض الشمالى أشد أجزاء البحيرة عمقًا، وفى هذه المنطقة يبلغ قاع البحيرة ٤٠٠م تحت سطحها، ونحوًا من ٧٩٩م تحت سطح البحر.

ويلاحظ أن مستوى المياه فى البحر الميت آخذٌ فى التناقص منذ أوائل القرن العشرين، إذ إن معدَّل هطول الأمطار فى هذه المنطقة أقل من ١٠٠ملم فى العام. ورغم أنَّ نهر الأردن وعددًا من النُّهَيْرات تُغَذِّى البحيرة بمياه عذبة تمتزج عند السطح بمياهها المالحة إلا أن الحرارة فى هذه المنطقة تجعل المياه تتبخر بسرعة شديدة. ولهذا السبب فإن ملوحة البحر الميت لا تقل أبدا. وتتيح نسبة الملوحة العالية فى المياه قدرًا كبيرًا من الطفوية، مما يجعل السباحة فيه أمرًا أكثر سهولة. ويحتوى البحر الميت على كميات كبيرة من الأملاح المعدنية منها ملح الطعام والبروميد وكلوريد الكالسيوم وكلوريد البوتاسيوم.

وفى الجزء الجنوبى من البحر الميت شبكة من الأخاديد صارت بِرَكًا تغطى أكثر من ١٠٠كم٢، وتتبخر مياه هذه البرك تاركة وراءها أملاحًا صُلْبة. ويعتقد البعض أن الاستحمام فى البحر الميت يفيد الصّحة، وذلك لما تحتويه مياهه من أملاح معدنية. وهناك الكثير من المنتجعات الصحية التى تقدم

خدماتها للمستحمين. ومن المرجح أن البحر الميت قد ظهر إلى حيز الوجود قبل ملايين السّنين عندما تخلخلت شبه الجزيرة العربية والقارة الإفريقية وكونتا سدوم وعمورة. وقد ورد ذكر البحر الميت فى الإنجيل مشارًا إليه باسم بحر الملح، كما أنَّ مدينتى سدوم وعمورة القديمتين نشأتا بالقرب من ضفافه".

وفى المادة الخاصة بالبحر الميت فى موسوعة "weziwezi: وزى وزى" المشباكية نقرأ ما يلى: "يعتبر البحر الميت أحد أشهر المعالم الطبيعية فى العالم، فهو أخفض بقعة على سطح الأرض، كما أنه أكثر البحار ملوحةً فى العالم أجمع، وليس فيه أى ملامح للحياة. لهذا يُعْرَف بـ"البحر الميت". وهو على شكل بحيرة مغلقة شديدة الملوحة، ويقع فى منطقة الشق السورى الإفريقى، وتحديدًا فى أخدود وادى الأردن، وتطل عليه كل من الأردن وفلسطين المحتلة. وكما أسلفنا سابقًا فإنه أخفض نقطة على سطح الأرض، إذ إنه ينخفض عن مستوى سطح البحر ما يقارب ٤٠٠ متر. أما نسبة الأملاح فيه فتبلغ ما يقارب ٣٤%، وهى بهذا تعدل تسعة أضعاف تركيز الملح فى البحر الأبيض المتوسط على سبيل المثال...

أُنشئت العديد من بِرَك المياه بالقرب منه، وذلك للحصول على الأملاح الموجودة فى مياهه عن طريق التبخير. ومن أهمها بِرَكٌ لإنتاج العديد من العناصر الكيميائية مثل المنغنيز والمغنيسيوم بالإضافة إلى البوتاس، وهذه البرك تحتاج إلى كميات كبيرة من المياه، مما سبب زيادة انخفاض مستوى المياه فيه... يتميز مناخه بالدفء حتى فى فصل الشتاء، لذلك يزوره السياح

للاستمتاع بالأجواء الجميلة فيه. كما أن نسبة الأكسجين فى هوائه الجوى مرتفعة جدا، مما يجعل هواءه مفيدًا للمرضى الذين يعانون من الربو. وعلى الرغم من شدة ملوحة المياه فيه إلا أنه يوجد فى مياهه بعض البكتيريا والميكروبات التى تعيش فى البيئة المالحة. يبلغ طوله بالحد الاعلى ٦٧ كيلو متراً، أما عرضه فيبلغ ١٨ كيلو متراً. ويطفو على سطحه فى كثير من الأحيان قطع من الإسفلت، بالإضافة إلى الحصى المكونة من هذه المادة وبعض القوالب الصغيرة. . .

ويعتبر من أهم المناطق السياحية فى العالم نظرًا لتركيبة مياهه الفريدة التى تحتوى على أملاح علاجية نادرة مفيدة، إذ تحتوى مياهه على تراكيز عالية من البوتاسيوم بالإضافة إلى الكالسيوم. . . كما أن طينه يعتبر مفيدًا جدًّا لغناه بالعديد من العناصر والمركبات المفيدة للأمراض الجلدية. لذلك يشتهر بالسياحة العلاجية على مستوى العالم" . والآن هل البحيرة التى وصفها ديودور الصقلى هى نفسها البحر الميت؟ لا أستطيع فى الواقع أن أفكر فى احتمال آخر.

ثم ينتقل ديودور بعد هذا إلى الحديث عن البلاد العربية السعيدة التى تشكل الجزء الجنوبى من شبه جزيرة العرب، مُعَدّدا ما تتميز به من كثرة الثمار وغيرها مما سميت بسببه بذلك الاسم، إذ تنتج كثيرا من النباتات العطرية، وتفوح فى أرجائها ألوان الروائح الجميلة، وتكثر أنواع اللبان والمر والبخور التى تحمل إلى كل بلاد الدنيا، وتكثر أصناف الأشجار المتميزة والنباتات المثمرة

الطيبة الطعم الحلوة الرائحة. وبالمثل هناك محاجر كبيرة يحصل منها السكان على معدن حجرى زكى الرائحة يستخدمونه فى البناء، وحين ينزل المطر يذوب المعدن الموجود فى الحجر ويجرى فى مفاصل الأبنية فيجعلها صلبة شديدة التماسك حتى ليبدو الجدار وكأنه قطعة واحدة. كذلك هناك مناجم الذهب الخالص الذى يطلقون عليه: "ذهب بلا نار" لأنه لا يستخلص بالتنقية من شوائب المعادن كما هو الحال فى الأماكن الأخرى بل يحصلون عليه نقيا صافيا لامعا فخما فى حجم ثمار الكستناء.

وتكثر فى بلاد العرب المواشى والحيوانات الوحشية كالأسد والنمر والضبع، وأحجامها أكبر من أحجام مثيلاتها الأفريقية. كما يوجد فيها حيوانات ذات طبيعة مزدوجة من بينها حيوان حجمه حجم الجملِ الحديث الولادة، وعلى ظهره نتوء يشبه سنام الجمل، وعلى رأسه شعر قصير، وله عينان كبيرتان سوداوان تشبهان عينى الضبع، وذيل يشبه ذيل الضبع، وله منقار مدبب صغير، وعنق مستطيل، وله فى نفس الوقت جناحان من الريش اللين المشعر، وفخذان قويان وأظلاف مشقوقة حتى ليبدو هذا الحيوان فى وقت واحد حيوانا أرضيا وطائرا، لكنه لا يقدر على الطيران لضخامة جسمه. وهذا الحيوان هو النعامة، التى إذا ما جرت بدت من سرعتها الشديدة كما لو كانت تطير فى الهواء. وحين يتبعها الرجال على ظهور خيولهم تركل بأقدامها حجارة الطريق فى وجوههم، وقد تقتلهم. وعندما توشك أن تقع فى قبضة مطارديها تدفع بعنقها تحت إحدى الشجيرات، لا غباءً منها

وحماقةً كما يظن الكثيرون إذ تتصور أن مطارديها لن يَرَوْها ما دامت هى لا تراهم، بل لأن رأسها أضعف جزء فى جسدها، ومن ثم تعمل على حمايته وتأمينه بكل وسيلة مستطاعة حفاظا على نفسها، تبعثها على ذلك غريزة ركبها الله فى طبعها تتمسك بسببها بالحياة تمسكا. وهذا الحيوان ما هو إلا مثال واحد على تلك الحيوانات ذات الطبيعة المزدوجة التى تكثر فى بلاد العرب.

ثم يمضى الصقلى فيبدى إعجابه بحرارة تلك البلاد الناتجة عن شمسها الساطعة والتى تجعل كل شىء جميلا ومعطرا وملونا برائع الألوان: نباتات وطيورا وأحجارا كريمة وأرضا. ثم يتحدث عن النخيل وأنواعه وأطواله وألوان بلحه وأعذاقه وتفوقه على النخيل فى غير بلاد العرب. ثم ينتقل إلى الكلام عن اشتغال عرب المناطق الداخلية بالرعى، وترامى الصحراء فيما بينهم وبين بلاد العرب السعيدة وانعدام الماء فى تلك الصحراء واهتداء السارين فيها بالنجوم مثلما يفعل البحارة فى البحار. أما القسم الآخر من بلاد العرب الممتد نحو سوريا فيمتلئ بالزراع، وبالتجار الذين يشتغلون بجلب البضائع وحملها إلى البلاد الأخرى ويزودون المناطق المحيطة بكل ما تحتاجه. ولأن مناطق واسعة من الأرض ترويها الأنهار والأمطار التى تهطل صيفا فإنهم يحصدون زراعاتهم مرتين. وفى هذا المكان يكثر الفيل والحيوانات الأخرى ذات الأحجام الضخمة والطبيعة المزدوجة والأنواع الغريبة، كما توجد الثيران والأغنام الكثيفة الذيول وغيرها من الماشية بكثرة. وهناك أيضا الإبل التى

تتمتع بسنام يعادل سنامين اثنين من أسنمة الأنواع الأخرى من الجمال وتدر من اللبن وتعطى من اللحم وتحمل من الأثقال وتسرع أكثر مما تدر وتعطى وتحمل وتسرع الجمال الأخرى. وهذه الجمال نافعة جدا فى وقت الحرب، إذ تحمل على ظهرها قوّاسين اثنين ظَهْرُ كل منهما فى ظهر الآخر: أحدهما لصد المهاجمين من الأمام، والثانى لصد المهاجمين من الخلف.

وتعليقا على ذلك نقول إن الشعر الجاهلى يحتوى على أسماء كثير من الحيوانات المختلفة: الإبل والأغنام والخيل والبقر الوحشى والحمير الأهلية والمخططة والكلاب والذئاب والسباع والنعام والظباء، بالإضافة إلى الطيور والزواحف مما لم يتطرق ديدور الصقلى إلى كثير منه، إذ لم يذكر الخيول ولا الحمير ولا الظباء ولا الذئاب ولا الكلاب ولا شيئا من الطيور والنحل والذباب والبعوض والضفادع والزواحف. كما لم يذكر القطط والفئران والأرانب والدجاج والقنافذ والثعالب والنمور والفهود وابن آوى وابن عِرْس والخنزير والضب. ترى هل من المعقول أن الحيوانات التى لم يأت على ذكرها لم تكن موجودة فى بلاد العرب آنذاك؟ وفى كتاب "الحيوان" للجاحظ بأجزائه السبعة شواهد لا تحصى عن الحيوانات التى كان يعرفها العرب القدماء.

ثم هل كانت بلاد العرب تعرف الفيل؟ لا أظن الفيل كان يوما من حيوانات تلك البلاد، فـ"هناك نوعان رئيسيان من الفِيَلَة: الفيلة الإفريقية، والفيلة الهندية، التى تُعرف أيضًا بالفيلة الآسيوية. وتعيش الأفيال الإفريقية فى إفريقيا جنوبى الصحراء بينما تعيش الأفيال الهندية فى أجزاء من الهند وفى

جنوب شرقى آسيا" كما جاء فى مادة "الفيل" بـ"الموسوعة العربية العالمية"، وبلاد العرب لا تنتمى إلى أى من هذين الموضعين. ولا يوجد فى الشعر الجاهلى وصف للفيل ولا افتخار بامتلاكه كما وصف شعراء العرب فى ذلك العصر الثور والحمار الوحشى والجمل مثلا وافتخروا بها، اللهم إلا عبارات طائرة مسموعة حُفِظَتْ كما هى. وهذا كل ما استطعت العثور عليه فى شعر ما قبل الإسلام. يقول الطفيل الغنوى:

تَرْعَى مَنابِتَ وَسْمِى أَطاعَ لَهُ بِالجزْعِ حَيثُ عصى أَصحابَه الفيلُ

ويقول تأبط شرا:

فَخَرَّ كَأَنَّ الفيلَ ألقى جِرانَهُ عَلَيهِ فَتًى شَهمُ الفُؤادِ أَسِيلِ

وتقول ذبية بنت بيشة الفهمية:

لَعَمْرى لقد أَبْكَتْ قُرَيْمٌ وأوجعوا بِجرْعةِ بطنِ الفيلِ مَنْ كان باكيا

ويقول صحير بن عمير:

إِذا أَطاشَ الطعنُ أَيدى البَعَلَهْ

وَصَدَّقَ الفيلُ الجَبانُ وَهَلَهْ

وواضح كذلك من قصة هجوم الأحباش على مكة بالفيل أنه كان حيوانا جديدا آنذاك على العرب. ويكفى أن الأحباش على كثرة ما استعدوا لهدم الكعبة واجتياح الحرم وضخامة جيشهم لم يحضروا معهم سوى فيل واحد. بل لم يسمِّ القرآن الكريم الأحباش إلا بأنهم أصحاب الفيل، وهو ما

يشير إلى أنه كان شيئا طريفا وعجيبا حتى لقد اخْتُصِر محاربو الحبش إلى مجرد منتسبين إليه. بل لقد سمَّتْ العربُ ذلك العام بـ"عام الفيل" لأن مشاهدتهم له كانت حدثا عجيبا. وأتصور أن الشواهد الشعرية الآنفة الذكر إنما كانت ثمرة مشاهدة الفيل فى ذلك اليوم أو السماع بوصفه. كما اقتصرت معرفة العرب به بعد ذلك على مشاهدتهم له فى المعارك التى خاضوها ضد الفرس فى فتوحهم بعد وفاة النبى عليه السلام كقول ربيعة بن مقروم الضبى:

وَشَهِدْتُ مَعْرَكَةَ الفُيُولِ، وَحَوْلَها أَبناءُ فارِسَ بَيْضُهُم كَالأَعْبَلِ

وإلى القارئ ما ورد فى "الكامل فى التاريخ" لابن الأثير عن معركة يوم أرماث مع الفرس، وهو يدل على أن العرب لم يسبق لها أن تعاملت عن قرب مع الفيل حتى لقد احتاروا فى البداية كيف يتغلبون عليه عندما ساقت عليهم الفرس فى ذلك اليوم بضع عشرات من الأفيال: "فاجتمعت حلبة فارس على أسد، ومعهم تلك الفيلة، فثبتوا لهم، وكبَّر سعد (بن أبى وقاص) الرابعة، وزحف إليهم المسلمون، ورحا الحرب تدور على أسد، وحملت الفيول على الميمنة والميسرة، فكانت الخيول تحيد عنها. فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو التميمى: يا معشر بنى تميم، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟ قالوا: بلى والله! ثم نادى فى رجالٍ من قومه رماةٍ وآخرين لهم ثقافة فقال: يا معشر الرماة، ذُبُّوا رُكْبَان الفِيَلة عنهم بالنَّبْل. وقال: يا معشر أهل الثقافة، استدبروا الفيلة فقَطِّعوا وُضُنَها. وخرج يحميهم، ورحا الحرب تدور على أسد، وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد. وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا

بأذناب توابيتها فقَطَّعوا وُضُنَها وارتفع عواؤهم، فما بقى لهم فيل إلا أوى، وقُتِل أصحابُها، ونُفِّس عن أسد ورَدُّوا فارسًا عنهم إلى مواقفهم، واقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء. وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة، وكانوا رِدْءًا للناس، وكان عاصمٌ حامية للناس. وهذا اليوم الأول، وهو يوم أرماث".

ومع هذا كله فقد يقال: ربما كانت بلاد العرب تعرف الفيل قديما، ثم تغيرت الأحوال ولم تعد الأفيال تعيش فيها. لكنْ من الواضح أن ذاكرة العرب حتى فى الجاهلية لا تعى شيئا من هذا الأمر. بل إن أساطيرهم وخرافاتهم تخلو من ذكر الفيل. وهذا بخلاف الأسد، الذى أستطيع الاستشهاد عليه فى الشعر العربى الجاهلى بعشرات الأمثلة وصفا وتشبيها واستعارة وتعيينا لأماكن تجمعاته كـ"أُسْد بيشة" و"أسد زارة" و"أسد الخوى" و"أسد أذناب شرقب" و"أسد الضريب" مثلا. بل لقد استعمل العرب كلمة "أسد" اسم علم للشخص وللقبيلة. يقول الأفوه الأودى على سبيل المثال:

وَشَبابٌ كَأَنَّهُم أُسْدُ غيلٍ خالَطَت فَرْطَ حَدّهِم أَحلامُ

ويقول أُحَيْحَة بن الجلاح:

كَأَنّنا أُسْدٌ لَدَى أَشْبُلٍ يَنْهَتْنَ فى غَيْلٍ وَأَجْزاعِ

ويقول النابغة الذبيانى:

إِذا حاوَلْتَ فى أَسَدٍ فُجورًا فَإِنّى لَسْتُ منكَ، وَلَسْتَ مِنّي

ويقول زهير:

لَدى أَسَدٍ شاكى السِلاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظْفارُهُ لم تُقَلَّمِ

ويقول عبيد بن الأبرص:

إِذا ما بَدا ظَلَّت لَهُ الأُسْدُ عُكَّفًا فَهُنَّ، حِذارَ المَوتِ مِنهُ، رُبُوضُ

ويقول رزاح النهدى:

أَلا تَسَلِينَ عَنْ شِبْلَىَّ: ماذا أَصابَهُما إِذا اهْتَرَشَ الأُسودُ ؟

ومن أمثال العرب: "كمبتغِى صيدٍ فى عِرّيسةِ الأسد"، و"أجرأ من خاصِى الأسد"، و"أشجع من ليث عفرين"، و"صاحب السلطان كراكب الأسد: يهابه الناس، وهو له أَهْيَب"، و"أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية"، و"قد يقدم العَيْر من ذُعْرٍ على الأسدِ"، و"لا قرار على زَأْرٍ من الأسدِ"، و"من يتبع الأسد لم يَعْدَم لحما" . ولُقّب حمزة بن عبد المطلب بـ"أسد الله" . وثم موضع فى بلاد العرب على بعد ثمانية أميال من المدينة هو "حمراء الأسد" . ومن الأبراج الفلكية "برج الأسد" . ومن نيران العرب "نار الأسد"، وهى نار يوقدونها إذا خافوه، لأنه إذا رأى النار استهالها، فشغلته عن السابلة. بل لقد استعملت العرب للأسد مئات الأسماء كما جاء فى كتاب "المُزْهِر فى علوم اللغة" للسيوطى منها "أشجع، بَيْهَس، خُنَافِس، دَوْكس، رَهِيص، سَبَنْتَى، ضمضم، عنبسة، فَدَوْكَس، قُصَاقِص، هِزَبْر، هِبْرِزِىّ، قَسْوَرة، هَصْوَرة، ضرغام، شُدَاقم، أبو لبد، عِتْرِس، غضنفر، فُرْهود، بهنس، أبو فراس، ضيغم، رئبال، ليث، عباس. . . " .

وهناك قَصَصٌ كثير عنه فى أدب العرب. ومن اشتهار صفات الأسد زعم العرب أن بنى أسَدٍ هم أُسْد الغياض، وأشبهُ شىء بالأسد، ومن ثم تشتهى من اللَّحْم أشهاها إلى الأَسد. والدَّليلُ، فى رأى القائلين بهذا، على أَنَّهُمْ أُسْد وفى طباعِ الأُسْد أَنَّكَ لو أحصَيْتَ جميعَ القتلى من سادات العرب ومِنْ فُرسانهم لَوَجْدَت شَطْرَها أو قَريبًا من شَطرها لبنى أسد كما ورد فى كتاب "الحيوان" للجاحظ. ومع هذا كله لم يتعرض ديودور الصقلى للأسد فى حديثه عن بلاد العرب.

أما الجمل فقد رأينا ما كتبه عنه مؤرخنا، وخلاصته أن الإبل العربية فى ذلك العصر مزودة بسنام يعادل سنامين اثنين من أسنمة الأنواع الأخرى من الجمال وتدر من اللبن وتعطى من اللحم وتحمل من الأثقال وتسرع أكثر مما تدر وتعطى وتحمل وتسرع الجمال الأخرى. وهذا مما لا يمكن الفصل فيه بالقول بصحته أو زيفه لأنه قد مضى وانقضى مثلما لا يمكن الحكم على ما قاله عن طريقة استعمال الجمال فى الحرب، إذ قال إن كل جمل يحمل على ظهره أوانذلك قَوّاسَيْن اثنين ظهر كل منهما فى ظهر الآخر: أحدهما لرمى المهاجمين من الأمام، والثانى لصد المهاجمين من الخلف. فلا أذكر أننى قرأت عن شىء مثل هذا فى حياة العرب. وقد تكون هذه الطريقة فى الحرب من فوق ظهر الجمل قد اندثرت بعدما كانت موجودة. لكن أيمكن أن يندثر شىء مثل هذا لم يحل محله، فضلا عن أن يتفوق عليه، أسلوب آخر؟ ثم ما السبب يا ترى فى

أن النوق العربية فى ذلك الوقت كانت تدر من اللبن أكثر مما تدره النوق الأخرى؟ ذلك أيضا سؤال لا سبيل إلى الإجابة عليه.

وأما النعامة فلست أجد فيما خَلَّفه لنا ديودور الصقلى ما يمكن أن يرتاب الإنسان فيه. ويمكن مقارنة ما كتبه عنها بتلك المعلومات التى انتقيتها من المادة الخاصة بـ"النعامة" فى "الموسوعة العربية العالمية"، ولسوف يتفق القارئ معى بشأن ما كتبه الصقلى عن ذلك الحيوان (أو الطائر) العجيب. تقول الموسوعة: "النعامة أكبر طائر حى، فقد يصل ارتفاعها إلى مترين ونصف المتر، ويصل وزنها إلى ١٥٥ كجم. وتعيش طيور النعام فى سهول وصحارى إفريقيا . . . والنعامة هى الطائر الوحيد الذى له إصبعان فى كل قدم. . . ويتفاوت لون البشرة الخالية من الريش ما بين الوردى والأزرق. وتحيط بعينى ذكر النعام الرموش السوداء الكثيفة التى يبلغ قطر كل منها خمسة سنتيمترات. ويتميز جسم الأنثى وذيلها وجناحاها باللون البنى الداكن.

ويتميز ذكر النعام بصوت غريب، إذ إنه يصدر زئيرًا مرتفعًا كزئير الأسد، به هسهسة غريبة. ولا تستطيع طيور النعام الطيران، ولكنها مشهورة بسرعتها الفائقة فى الجرى، إذ تساعدها سيقانها الطويلة على الجرى بخطوات واسعة. وقد تصل خطوتها إلى أربعة أمتار ونصف المتر، وسرعان ما تصل سرعتها إلى ٦٥كم/س. وتساعدها سرعتها وقوة إبصارها غير العادية على الهرب من أعدائها، وبخاصة الأُسُود والناس. ومن الخطأ الاعتقاد السائد بأن النعامة تخبئ رأسها فى الرمال عندما يحدق بها خطر، إذ إن النعامة تركل

بساقيها القويتين إذا ما اضطرت للدفاع عن عشها . ويوجد فى أصابع قدمى طيور النعام التى يبلغ طول أكبر إصبع منها ١٨سم أظفار غليظة سرعان ما تتحول إلى سلاح فتاك إذا تعرَّضت لخطر ما.

وتتغذى طيور النعام عادةً بالنباتات، ولكنها تأكل السحالى والزواحف إذا وجدتها . وهى تأكل الكثير من الرمال والحصى ليساعدها على طحن الطعام، وتسهيل عملية الهضم. وتشرب طيور النعام الماء متى وجدته، وبإمكانها البقاء فترات طويلة بدون ماء إذا كانت النباتات التى تتغذى بها غضة خضراء. وذَكَرُ النعام متعدد الأزواج (يزاوج عدة إناث) . ويقوم كل ذكر بحفر عش سطحى، ثم تقوم نحو ثلاث إلى خمس إناث بوضع البيض فى العش. وتضع كل أنثى ما يقارب البيضات العشر. وتتميز كل بيضة بشكلها الدائرى، وقطرها الذى يبلغ ١٥سم، ووزنها الذى يبلغ ١,٥ كغم، ولونها الأصفر الداكن، ومسامها الكبيرة، وقشرتها السميكة.

ويجلس الذَّكَرُ على البيض فى الليل بينما تتناوب الإناثُ الجلوس عليه فى النهار لإبقائه دافئًا . ويفقس بيض النعام بعد خمسة أو ستة أسابيع من وضعه. وعندما يبلغ صغير النعام الشهر الأول من عمره يستطيع الجرى بسرعة كبيرة تعادل سرعة كبار النعام. وتُعَمَّر طيور النعام حتى تبلغ ٧٠ عامًا . وقليل من الطيور تعيش هذا العدد من السنين. ووجدت قبل مئات السنين أسراب كبيرة من طيور النعام بإفريقيا وغربى آسيا . وكان العرب فى شبه الجزيرة العربية يصطادونها من أجل الرياضة والترويح. أما الإفريقيون فقد اصطادوها

من أجل الاستفادة من بيضها للغذاء أو الاستفادة من ريشها . ولكن من النادر أن تصاد طيور النعام من أجل لحومها ، إذ إن لحمها قاس ومذاقه سيئ" .

وليس فى هذا الاقتباس أى كلام عن جمع النعامة فى شكلها وتركيبها بين الجمل والزرافة والضبع . كما اكتفى كاتب المادة بنفى ما شاع عن النعامة من دفنها رأسها فى الرمال ظنا منها أنها ما دامت لا ترى عدوها فعدوها لا يراها بدوره، ولم يحاول توجيه تلك الشائعة . وكان النعام موجودا بكثرة فى بلاد العرب كما يقول د . جواد على فى فصل "الحياة اليومية" من الجزء الرابع من كتابه: "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" . قال: "والنعام من الحيوانات المعروفة فى جزيرة العرب . وقد ذكر علماء اللغة ألفاظا كثيرة قالوا إن العرب أطلقوها على النعام: على ذَكَر النعامة وعلى أنثاها وعلى صغار النعام . ومنها "الجعول"، ويراد بها ولد النعام، وهى يمانية، وكذلك لأصوات النعام وجماعاتها . وورود هذه الألفاظ دليل على كثرة النعام فى جزيرة العرب ووقوف العرب عليها" .

ومن أسمائها فى كتاب "الحيوان" للجاحظ "هِقْل وَهِقْلة، وهَيْق وهَيْقَةٌ، وصَعْل وصَعْلة، وسفَنَّج وسفَنَّجة، ونعامٌ وَنعَامة، والواحد من فراخها الرأل، والجمع رئال ورئلان وأرآل وأرؤل، والأُنثى رألة، وحفّانةٌ والجمع حَفّان، وقد يكون الحَفّان أيضًا للواحد، ويقال لها: قِلاص، والواحدة: قَلُوص . ولا يقال: قلوصة . ويقال: ظليم ولا يقال ظَلِيمة، ويقال: نِقْنِق ولا يقال: نِقْنِقة" . وفى

الأمثال "أصحّ من بَيْض النعام"، ويقال فى العذارى، والمراد سلامتهن من الملامسة والافتضاض. قال الفرزدق:

خرجن إلىَّ لم يُطْمَثْن قبلي وهنَّ أصحُّ من بيض النعامِ

فبِتْنَ بجانبىَّ مُصَرَّعاتٍ وبِتُّ أَفُضُّ أغلاق الختامِ

ومن هذه الأمثال "شالت نعامتهم" إذا ترك القوم مواضعهم بجلاء أو موت، لأن النعام سريع الجرى على سطح الأرض، وكأنه يهم بالطيران. ومن الأمثال أيضا "ذهب النعام يطلب قرنا فجُدِعَتْ أذنه". ومنها "كاد النعام يطير". ومن الأمثال كذلك "أَمْوَقُ من نعامة"، وذلك أنها ربما خرجت لطلب الطعم فمرت ببيض نعامة أخرى فحضنته وتركت بيضها. ولذلك قال الشاعر، وهو ابن هَرْمَة:

وإنى وتَرْكِى نَدَى الأكرمين وقَدْحِى بكَفَّى زِنْدًا شحاحا

كتاركةٍ بيضها بالعراء ومُلْبِسةٍ بَيْضَ أخرى جناحا

ومنها "أَطْرِقْ كَرَا. إن النعام فى القُرَى". والإطراق أن يطأطيء عنقه ويسجد بصره إلى الأرض، و"كرا" ترخيم "كَرَوان" على مذهب قولهم: "يا حَارُ" بضم الراء، وهو ذكر الحُبَارَى، ويكون طويل العنق. يقال له ذلك إذا أريد اصطياده. أى تطأطأ واخفض عنقك للصيد، فإن أكبر منك وأطول أعناقًا، وهى النعام، قد اصطيدت وحملت من الدَّوِّ إلى القُرَى. يُضْرَب لمن يتكبر، وقد تواضع من هو أشرف منه".

وتحت عنوان "القول فى طبائع النعام" من كتاب "مباهج الفِكَر ومناهج العِبَر" يقول الوَطْوَاط: "وإنما ذكرناه مع ذوات الأربع من الوحوش، وإن كان ذا جناح، لأنه، عند المتكلمين فى طبائع الحيوان، ليس بطائر، وإن كان يبيض وله جناح وريش، ويعدون الخفاش طيرًا وإن كان يحبل ويلد وله أذنان بارزتان وليس له ريش لوجود الطيران فيه ومراعاة لقوله: "وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرًا بإذنى". وهم يسمون الدجاجة: طيرًا، وإن كانت لا تطير، والنعامة تسمى بالفارسية: "أشترمرغ". وتأويل "أشتر": جمل، وتأويل "مرغ": طائر. فكأنهم قالوا: جمل طائر. ولما وجد هذا الاسم ظن الناس أنها نتاج ما بين الإبل والطير، وبهذا أُجْرِى عليها مثلٌ فى قولهم: "قيل للظليم: احمل. قال: "أنا طائر". قيل له: فَطِرْ. قال: أنا جمل". ومما أكد عندهم القول بالتوكيد أنهم رَأَوْا فيه من الجمل "المنسم والوظيف والعنق والكرش والخف والخزامة"، ومن الطير "الريش والجناح والمنقار والبيض". ويُشَبَّه النعام بالإبل: تسمى الأنثى منها: قلوصًا". وفى "عيون الأخبار" لابن قتيبة عن النعامة أنها "أخذت من البعير المنسم والوظيف والعنق والخزامة، ومن الطائر الريش والجناحين والمنقار، فهو لا بعير ولا طائر. وقال أوس بن حجر:

وتَنْهَى ذوى الأحلام عنى حلومُهم وأرفع صوتى للنعام المخزَّم

جعله مخزمًا للخرقين اللذين فى عُرْض أنفه فى موضع الخزامة من البعير. وقال يحيى بن نوفل:

ومثل نعامة تُدْعَى: بعيرًا تُعَاصِينا إذا ما قيل: "طيرى"

فإن قيل: "احملى" قالت: فإني من الطير المربَّة فى الوُكورِ

وفيما يتعلق بإشارة الصقلى إلى دفن النعامة رأسها فى الرمال فقد قرأت فى موقع قناة الجزيرة بتاريخ السادس من يناير ٢٠١٦م، وتحت عنوان "لماذا يدفن النعام رأسه فى الرمال؟" ما نصه: "لا تدفن رأسك فى الرمال كما يفعل النعام: مقولة نسمعها جميعًا حينما يتخذ أحدهم قرارًا بالهروب من مشاكله أو الخوف منها . والحقيقة أن التشبيه هنا غير صحيح. ومن الشائعات الخاطئة مع الأسف أن النعامة تدفن رأسها فى الرمال من الخوف والهروب من المخاطر والأعداء . دعونا نتعرف على القصة: النعام طائر من النعاميات الكبيرة التى لا يمكنها الطيران. موطنه الأصلى أفريقيا والشرق الأوسط، إلا أنه تعرض خلال العصور لعمليات صيد جائر أتت على الأعداد التى كانت توجد فى صحارى الشرق الأوسط. كما يوجد نوع آخر مشابه من النعام يتواجد فى جنوب غرب آسيا .

تزن ذكور النعام حوالى ١٠٠– ١٥٠ كغم. كما يبلغ ارتفاعه ما بين ٢,٤ أمتار، يتميز النعام بقوة ساقيه المذهلة، حيث يستطيع العَدْو بسرعة تصل إلى ٥٠ كلم/ساعة وأن يحافظ على سرعته تلك لمدة نصف ساعة. والنعام هو الطائر الوحيد الذى له إصبعان فى كل قدم. وطيور النعام بالرغم من طول رقابها وارتفاع قامتها إلا أنها قصيرة النظر، وهى تعيش فى مراعيها باحثة عن ثمار نبات الحنظل، وهو من النباتات التى تفترش الأرض مثل الشمام والقرع

العسلى، فتقترب برأسها من الأرض لدرجة تعجز معها عن رؤية ما يحيط بها من أخطار.

وقد حباها الله بالفطرة، فتعلمت أن ترهف سمعها للتصنت على وقع خطوات الحيوانات المفترسة، وتعلمت بفطرتها أن انتقال الصوت فى المواد الصلبة أسرع كثيرًا من انتقاله فى الهواء. لذلك فهى تدس رأسها فى الرمال بين الحين والآخر من أجل التصنت على الذبذبات التى ينتشر صداها فى الأرض من مسافات بعيدة لوقع خطوات الحيوانات الخطرة، وتميز أيضًا الاتجاه الذى تأتى من ناحيته تلك الأصوات، فتكون حافزا لها على الهرب فى الاتجاه الذى يضمن سلامتها وأمنها". كما قرأت أن النعام يحفر الأرض ليضع بيضه فى مكان آمن، ثم يدخل عنقه فى الحفرة بين الحين والحين للاطمئنان على بيضه.

أما فى مادة "ostrich" من "Encyclopaedia Britannica" فنقرأ التالى: "To escape detection, chicks as well as adults may lie on the ground with neck outstretched, a habit that may have given rise to the mistaken belief that the ostrich buries its head in the sand when danger threatens". ومعناه أن النعام، كبيرا كان أم فرخا صغيرا، من أجل تجنب الطلب ينام على الأرض مادا عنقه (تظاهرا بالموت فيما يبدو)، وهو ما يمكن أن يكون السبب فى الاعتقاد بأنه يدفن رأسه فى الرمال حين يشعر بالخطر. وقد ورد هذا التفسير نفسه فى مادة "autruche" بالنسخة الفرنسية من موسوعة "إنكارتا":

Lorsque le parent qui couve pressent un danger, " il allonge le cou contre le sol pour se camoufler". ومع هذا فإن كلمة "النعامة"، فى الإنجليزية، تطلق على الشخص الذى يرفض مواجهة الواقع أو الاعتراف بالحقائق الساطعة، إشارة إلى الاعتقاد الشعبى القائل بأن النعامة متى واجهت خطرا دفنت رأسها فى الرمال كما جاء فى معجم "WordNet 2.0" مثلا: " a person who refuses to face reality or recognize the truth (a reference to the popular notion that the ostrich hides from danger by burying its head in the sand)".

ومن مادة "autruche" فى النسخة الفرنسية من "ويكيبيديا" نقطف السطور التالية التى تقول كل ما سبق أن أوردناه هنا من المحاولات المختلفة لتفسير انتشار هذا الاعتقاد، علاوة على القول بأن المؤرخ الرومانى بلينى الأكبر، الذى عاش فى القرن الميلادى الأول، هو أقدم من قال هذا الكلام، رغم معرفتنا بأن ديودور الصقلى، وكان يعيش فى القرن الأول قبل الميلاد كما هو معروف، قد قاله من قبل، وربما كان قد أخذه فيما أخذ من الكتاب الذين قيل إنه استقى كلامه منهم، وهم أقدم منه كثيرا:

"«Faire l’autruche» ou «appliquer la politique de l’autruche» sont des expressions populaires, des idiotismes animaliers partant de l'idée reçue qu’une autruche ayant peur reste figée debout et la tête dans le sable au lieu de s'enfuir. La légende trouve différentes explications du fait que cet animal se tient souvent la tête près du sol:

pour échapper aux prédateurs, l'autruche se fige au sol, couchée, la tête au sol. Cette stratégie paraît dérisoire à l'homme qui est capable de la repérer facilement en suivant ses empreintes, contrairement aux animaux sensibles aux signaux auditifs et olfactifs.

l'autruche, comme d'autres oiseaux, se nourrit quotidiennement de graviers et petites roches pour aider sa digestion.

simplement pour se nourrir; elle passe une grande partie de la journée la tête au ras du sol, parfois entre les rochers pour chercher à manger.

l'autruche pond ses œufs dans des trous qui font parfois jusqu'à 30 cm de profondeur dans les sols sableux. Lorsqu'elle retourne ses œufs, elle enlève les lézards et autres vermines du nid, sa tête disparaît dans un trou.

lorsqu'elle se trouve dans une tempête de sable, l'autruche met la tête à ras du sol pour se protéger. Les Africains, voyant la scène de loin, disaient que lorsque l'autruche met la tête près du sable, c'est signe de tempête.

La métaphore repose ainsi sur des observations réelles, mais une interprétation erronée.

Cette croyance a traversé les siècles car déjà, au I^{er} siècle après Jésus Christ, Pline l'Ancien disait: «leur stupidité n'est pas moins singulière: elles s'imaginent, avec un corps si grand, que lorsqu'elles ont caché leur tête dans les broussailles on ne les voit plus»".

كذلك وجدت الوطواط (ق٧– ٨هـ) مثلا فى كتابه: "مباهج الفِكَر ومناهج العِبَر" يقول عن هذه النقطة: "وفسر بعض المعتنين بتفسير أمثال العرب

قولهم: "أحمق من النعامة" بأنها من حمقها إذا أدركها القانص أدخلت رأسها فى كثيب رمل تقدّر أنها قد اختفت منه". وهو ما قاله أيضا، بل وربما نقله عنه، معاصره النويرى فى "نهاية الأرب فى فنون الأدب"، ونصه: "والعرب تقول فى أمثالها: "أحمق من نعامة"، قالوا: لأنها إذا أدركها القانص أدخلت رأسها فى كثيب رمل، وتقدّر فى نفسها أنها قد استخفت منه".

وأما ما قاله ديودور الصقلى عن الأنهار التى كانت تجرى فى بعض أجزاء بلاد العرب فلعل ما سأنقله هنا من الفصل السادس من الجزء الأول من كتاب د. جواد على: "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" تحت عنوان "موطن الساميين" يساعد على تجليته بعض التجلية. قال الأستاذ الدكتور مشيرا إلى رأى المستشرق الإيطالى كايتانى فى هذا الموضوع: "ويرى كَيْتَانى أن هذا التغير الذى طرأ على جو جزيرة العرب إنما ظهر قبل ميلاد المسيح بنحو عشرة آلاف سنة، غير أن أثره لم يبرز ولم يؤثر تأثيرًا محسوسًا ملموسًا إلا قبل ميلاد المسيح بنحو خمسة آلاف سنة. وعندئذ صار سكان بلاد العرب، وهم الساميون، ينزحون عنها أمواجًا، للبحث عن مواطن أخرى يتوفر فيها الخصب والخير، وحياة أفضل من هذه الحياة التى أخذت تضيق منذ هذا الزمن.

وقد تصور كيتانى أودية جزيرة العرب، مثل وادى الحمض ووادى السرحان ووادى الرمة ووادى الدواسر، أنهارًا كانت ذات مياه غزيرة تنساب إليها من المرتفعات والجبال فى الدهور الغابرة أثرت فيها التغيرات الطبيعية

المذكورة فقللت من مياهها حتى جفت، فصارت أودية لا تجرى فيها المياه إلا أحيانًا، إذ تسيل فيها السيول بعد هطول الأمطار. وقد ذهب إلى هذا الرأى المستشرق الألمانى فرتز هومل أيضا، فرأى أن الأَنْهُر المذكورة فى التوراة على أنها أنهر جنة عدن هى أنهرٌ تقع فى بلاد العرب، وأن الأنهر المشار إليها هى وادى الدواسر ووادى الرمة ووادى السّرحان ووادى حَوْران. وأما كلاسر فذهب إلى أن نهرَى جيحون وفيشون، وهما من أنهر "جنة عدن" الأربعة فى رواية التوراة، هما فى جزيرة العرب. ويعتقد كيتانى أن الفيلة والحيوانات الضخمة التى يندر وجودها اليوم فى بلاد العرب كانت موجودة فيها بكثرة، ولا سيما فى أرض مَدْيَن، وكان الصيادون يخرجون لاصطيادها لأكل لحومها. وقد جاء بأمثلة لتأييد رأيه من كتب الكلاسيكيين.

ولو صح الكلام عن الأودية وانسياب المياه فيها من فوق المرتفعات عند هطول الأمطار لكان هذا تفسيرا لكلام ديودور الصقلى عن وجود الأنهار فى بعض أجزاء بلاد العرب. لكن هذا كله مجرد تصورات وتخمينات ليس هناك دليل مادى عليها بل الاجتهاد فى إعمال العقل ليس إلا. وصاحب الاجتهاد مشكور، لكن ليس شرطا أن يكون اجتهاده صائبا. وهذا الحكم ينطبق أيضا على ما أكتبه أنا كذلك الآن فى هذا الموضوع.

ولقد قرأت فى موقع "الحكواتى- قصة الحضارة العربية فى مكتبة رقمية واحدة" تحت عنوان "النمر العربى" ما يلى: "النمر العربى (The Arabian Leopard) من الحيوانات الثديية اللاحمة (آكلات اللحوم)

والتى تتبع عائلة السّنَوْرِيَّات (القططيات)، وهى إحدى سُلالات النمور. ويُعْتَبَر النمر العربى أكبر وأقوى أنواع القِطط العربية، ولكنه يبقى الأصغر حجمًا بين سُلالات النمور الخمسة عشر التى تنتشر فى قارتى آسيا وأفريقيا حيث تزن الأنثى البالغة ٢٠ كيلوجرامًا بينما يزن الذكر البالغ ما يقارب ال ٣٠ كيلوغرامًا. وبالمقارنة فإن النمور الأفريقية الجنوبية يمكن أن يتراوح وزنها ما بين ٥٠ إلى ٧٠ كيلوغرامًا. ويتشابه الذكر مع الأنثى، ولكن الذكور تكون أكبر من الإناث، كما يتم التمييز بينهما بوجود كيس الصفن الواضح لدى الذكور.

ويكون لون الفِرَاء السائد فى النمور العربية أصفر إلى بنى ذهبى على طول ظهورها، ولكنه يبهت إلى الأصفر الشاحب أو الأبيض عند منطقة البطن. ويكون جسمها مُرَقَّطا بالكامل برُقَطٍ سوداء وردية الشكل مع عدم وجود نقاط سوداء فى مركز الرُّقَط. كما يُلاحَظ وجود نقاط سوداء على أماكن مختلفة من الجسم. وتمتاز النمور العربية بذيولها الطويلة والتى تستعملها فى التوازن أثناء التسلق.

ولا يزال النمر العربى يتواجد بأعداد قليلة فى منطقة شِبْه الجزيرة العربية حيث لا تتجاوز أعدادهُ فى البرية الـ٢٠٠ حيوان: فى المناطق الجبلية والنائية فى السعودية وفلسطين وعمان والإمارات العربية المتحدة واليمن، بالإضافة إلى وجود ٤٨ نمرًا عربيًا فى الأَسْر فى دول الانتشار. لقد تزايدت فى السنوات الأخيرة أعداد النمر العربى المُهَدَّد بالانقراض، وخاصة بعد جهود إنقاذه فى المحميَّة الطبيعية بجبل سمحان فى محافظة ظفار العُمَانية، وكذلك فى

مركز حيوانات شِبْه الجزيرة العربية بالشارقة فى دولة الإمارات العربية المتحدة، وفى محمية عين جدى بالقرب من البحر الميت بفلسطين المحتلة.

والنمر العربى يتميز بنشاطهِ نهارًا وليلا، ولكنه حَذِرٌ من التواجد البشرى. ويتغذى هذا الحيوان المفترس الذى يمتاز بالسرعة والرشاقة وخفة الحركة على الوَبْر الصخرى والوعول والغزلان. والنمر العربى حيوان انعزالى، ولا يلتقى نمرًا آخر إلا فى فترة التزاوج، التى تدوم تقريبًا ٥ أيام يتم خلالها التزواج عدة مرات. وبعد فترة حمل ما بين ٩٨ إلى ١٠٠ يوم تلد الأنثى من شبل إلى أربعة أشبال فى أحد الكهوف أو الشقوق الصخرية. وتكون الأشبال عمياء عند الولادة، وتفتح أعينها بعد تسعة إلى عشرة أيام، وعندها يبدأون باستكشاف بيئتهم المحيطة. وهم عادة لا يغادرون العرين لوحدهم حتى يصلوا إلى عمر أربعة أسابيع على الأقل. وأثناء هذه الأسابيع الأولى تقوم الأم بنقل الأشبال من عرين إلى آخر عدّة مرات للتقليل من فرص عثور الحيوانات الأخرى عليهم. وتصل أعمار النمور فى البرية ما بين ١٠ إلى ١٥ سنة بينما تصل أعمارها فى حدائق الحيوان حتى ٢١ سنة".

وإلى جانب النمر العربى هناك المها العربية. وتقول نفس الموسوعة تحت عنوان "المها العربى": "حيوان المها من جنس البقر الوحشى (Wild Bovidae)، وتسمى المها فى اللغات الأجنبية عند الإغريق والرومان: "أوريكس"، وتعنى فى اللغة القديمة "المعول أو الفأس ذات الرأس المدببة". وهذه التسمية لها علاقة بشكل القرون الطويلة، وتسمى بـ"الوضيحى" لكونها

واضحة الرؤية، حيث لونها أبيض قريب من الفضة فى لمعانه. وتسمى ذكور المها بـ"الثيران"، وإناثها بـ"النعاج"، وصغارها بـ"الغضيض أو الفرقد أو الطَّلا".

وطول جسم المها من ١٤٠– ١٨٠ سم، وارتفاع الكتف ٩٠– ١٢٠سم، وطول الذَّنب ١٩– ٢٥سم، وله قرنان طويلان بهما حلقات قرنية من القاعدة حتى الثلث الثانى، وانحناء طفيف إلى الخلف، وطول القرنان من ٧٠– ٧٥سم. يغطى الجسم شعر أبيض، أما القوائم فهى مغطاة بشعر داكن قريب من السواد المحلَّى بالبياض. كما يغطى الشعر الداكن بعض مناطق الرأس وطرف الذيل. أما صغار المها فتكون ذات شعر بنى رملى عند الولادة يساعدها على التخفى من الأعداء. وتبدأ العلامات المميزة بالظهور كما يأخذ لونه بالتحول تدريجيًا نحو البياض عند التقدم فى العمر حتى يقارب عشرة شهور.

ويتراوح وزن المها العربى بين ٨٠– ١٠٠كلغ، أما الأنواع الأفريقية فيتراوح وزنها ما بين ١٠٠– ١٥٠كلغ. وعمرها الطبيعى يتراوح بين ٢٠– ٢٥ سنة. وعندما تبلغ المها سن الزواج عن عمر ٢,٥– ٣ سنوات تبدأ فى التزاوج. ووُجِد أن دورة الشبق عند أنثى المها تتراوح ما بين ٢٥– ٣٢ يومًا. وباستطاعة المها أن تحمل مرة أخرى بعد ٣– ٤ أيام من بعد الولادة. ومدة الحمل تسعة أشهر.

ويعيش المها العربى فى المناطق الصحراوية والوديان الجافة والكثبان الرملية ذات الغطاء النباتى الخفيف بالربع الخالى بين الحدود السعودية العمانية

فى منطقة تسمى: جدة الحراسيس. وتتغذى المها على الأعشاب والنباتات الصحراوية، وهى لا تعتمد فى غذائها على نوع واحد من النباتات، بل على عدة أنواع. وفى موسم الجفاف تتغذى على النباتات العصيرية التى بها نسبة كبيرة من الماء وذات قيمة غذائية عالية، وكذلك على جذور النباتات البرية. لذا نجدها تقوم بالحفر بحثًا عن هذه الجذور. كذلك تستطيع المها، شأنها شأن سائر حيوانات الصحراء، أن تبقى دون ماء عند الضرورة لفترة طويلة مكتفية بالسوائل الموجودة فى النباتات والأعشاب التى تأكلها. وللعلم تحتاج المها إلى كميات بسيطة من الماء: حوالى ٢– ٤% من وزن الجسم تقريبًا.

وقد أدى انقراض المها العربى إلى إنشاء أماكن لتربيتها وتكاثرها، ومن ثم إطلاقها فى المحميات الطبيعية فى بعض الدول العربية، مثل دولة قطر، المملكة العربية السعودية، سلطنة عمان، دولة الإمارات العربية المتحدة، دولة البحرين، المملكة الأردنية الهاشمية". إذن فهناك حيوانات لا تزال موجودة فى الجزيرة العربية منذ القدم حتى الآن لا يدور بخاطر أى منا أنها موجودة. وهذه الحيوانات لا وجود لها فى حديث ديودور الصقلى عن بلاد العرب، مثلما لا وجود للحيوانات الصغيرة التى يجرى الحديث عنها فى الاقتباس التالى من مادة "الحيوان" بـ"الموسوعة العربية العالمية".

تقول المادة المذكورة: "لدى معظم حيوانات الصحارى أجسام صغيرة الحجم. والحجم الصغير يُمَكِّن تلك الحيوانات من الهروب من حرارة الشمس القاسية التى تلهب الصحارى خلال النهار، حيث تختفى معظم تلك الحيوانات

فى أوجارها الأرضية خلال النهار هروبًا من شمس الصحراء المحرقة. وتستظل حيوانات الصحارى الأخرى تحت الشجيرات الصغيرة والصخور والأشجار الكبيرة. ولكن تبرد معظم الصحارى بعد الغروب، وعندها تسعى الحيوانات بحثًا عن الطعام. وتفضل بعض السحالى والحيات والسلاحف البرية البحث عن الطعام خلال حر النهار الشديد. ويمكن لمعظم حيوانات الصحارى العيش دون ماء لعدة أيام. والجمل العربى من أشهر تلك الحيوانات فى هذا الخصوص حيث يمكنه السفر فى الصحراء لأيام عديدة دون أن يشرب. وتشمل حيوانات الصحارى الفئران والأرانب البرية والأرانب وفأر الكنغر والعلجوم المجرافى القدم. وتشمل حيوانات الصحارى كبيرة الحجم القيوط وكلب الدنجو المتوحش والأيل الأذانى".

وقد تناول ديودور الصقلى الكلام عن النباتات والأشجار فى بلاد العرب وتأثير الحرارة اللاهبة عليها حسبما مر ذكره. وها هو ذا اقتباس عن النباتات الصحراوية فى الجزيرة العربية يقرب إلينا ما قاله الصقلى عن تلك النباتات والعلاجات التى تستخدم فيها والروائح العطرية التى تسطع منها والألوان الزاهية الفاتنة التى تتميز بها كما ظهر فى صورها البديعة المرفقة بالمقال. يقول غازى الجابرى تحت عنوان "نباتات صحراوية فى شبه الجزيرة العربية" فى مجلة "البيئة والتنمية" الإماراتية بتاريخ سبتمبر ٢٠٠٩م: "تتميز النباتات الصحراوية بقدرتها على تحمل البيئات الحارة والجافة والتأقلم معها

على رغم ارتفاع درجات الحرارة، وقلة مصادر المياه، وافتقار التربة للعناصر الطبيعية المغذية، وهبوب الرياح الذى يزيد من التصحر وزحف الرمال.

وتتصف هذه النباتات بفوائدها المتعددة، فتدخل فى وصفات الطب الشعبى، وتعتبر مصدرًا للأخشاب وبديلا من الوقود، وتؤكل بعض أنواعها، وتستخدم فى الزراعات التجميلية. لكن بعضًا منها بدأ فى الانقراض بسبب اندثار الغطاء النباتى الطبيعى الناجم عن الرعى الجائر والزحف العمرانى السريع ونمو المدن خلال السنوات القليلة الماضية. لذلك شرع المركز الدولى للزراعة الملحية، ومقره دُبَىّ، فى تجميع هذه الأنواع من بيئاتها الأصلية وحفظها فى بيئات مماثلة لتوفيرها بشكل مستدام وحمايتها من الانقراض. وهنا عرض لبعض هذه النباتات المهمة فى شبه الجزيرة العربية واستخداماتها المختلفة:

الرخامى (الرغيلى) Convolulus cephalopodus: شجيرة خشبية متفرعة تنمو فى المناطق الصحراوية الرملية، وتستخدم فى الزراعات التجميلية، ذات أزهار قمعية بيضاء جذابة تتفتح فى ساعات الصباح الباكر الباردة، وتنغلق عند اشتداد حرارة الشمس. وتستخدم هذه النبتة فى الطب الشعبى بعد طحن أوراقها وجذورها المجففة لمعالجة الجروح ووقف النزف.

شجيرة النار Calligonum crinitum ssp. Arabicum: تستوطن شبه الجزيرة العربية، ذات ثمار حمراء متوهجة كروية شائكة، تزرع فى المناطق الصحراوية لتثبيت الرمال. يأكل البدو أوراقها الغضة، وتُسْتَخْرَج

التوابل من ثمارها، وتُمْضَغ الأوراق الجافة لمعالجة أوجاع الأسنان، وتستخدم أخشابها للتدفئة.

الحنظل (العلقم) Citrullus colocynthis: نبات حولى زاحف مشهور بمرارته، ينمو فى المناطق الصحراوية الحارة والجافة، وينتشر بكثرة فى شبه الجزيرة العربية. ويُسْتَخْدَم لُبُّ الثمار غير الناضجة والمجففة فى تركيب أدوية الطب الشعبى لعلاج حالات الإمساك المزمن وتنشيط حركة الأمعاء، ويستخدم اللُّبّ والأوراق لعلاج الأورام السرطانية. والبذور غنية بالدهون والبروتينات، وتؤكل بعد نقعها بالماء، كما تُستخرج منها الزيوت.

السدر (هوهوبا أو الشوك المقدس) Zizyphus spina-christi: شجرة استوائية مثمرة موطنها الأصلى السودان، وتنتشر فى الأقاليم الصحراوية والساحلية لغرب القارة الأفريقية وفى منطقة البحر الأحمر والشرق الأوسط. يستخدمها البدو فى علاج الأمراض البكتيرية والفُطْرِيّة والجلدية والجروح. والثمار التى تسمى: "النبق" شهية الطعم، وتعتبر مصدرًا لحيوية الجسم وتليين الأمعاء وحمايتها من الديدان المعوية، وتستخدم فى مركبات العناية بالجسم.

السنامكى (السنا أو العشرق) Senna alexandrina: شجيرة بقولية موطنها الأصلى مصر والسودان، وتنتشر فى شبه الجزيرة العربية وغرب آسيا وشبه القارة الهندية. ويستخدم مسحوق أوراقها الغنية بمركبات الكينين منذ آلاف السنين فى الطب الشعبى لتنشيط حركة الأمعاء وعلاج مشاكل

الشعر. وتعتبر إحدى السلع التجارية الهامة المزروعة فى وادى النيل وشمال غرب المحيط الهندي.

السمر (المظلة الشوكية) Acacia tortilis: شجرة بقولية تنمو فى المناطق الجافة من القارة الأفريقية والشرق الأوسط. تأكل الحيوانات البرية والداجنة أوراقها وقرونها الغنية بالبروتين والمعادن، وتصنع بعض القبائل الأفريقية عصيدة من قرونها. ورحيق أزهارها مصدر للعسل، وتدخل الأوراق ولحاء الساق والبذور فى تركيب أدوية لعلاج الربو. تستخدم الجذوع فى بناء البيوت وصنع الأدوات الخشبية، ويتميز خشبها باحتراقه البطيء.

الغاف (السلان) Prosopis cineraria: شجرة بقولية متوسطة الحجم، تنمو فى المناطق الجافة والقاحلة من شبه الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية، غنية بالعناصر الغذائية ومستساغة لحيوانات الصحراء. وتتميز بقدرتها على تثبيت الكثبان الرملية والحد من التصحر. وتستخدم أزهارها فى الطب الشعبى لمنع الإجهاض، ويستخدم لحاؤها لعلاج الربو والتهاب القصبات الشُّعْبيّة والزُّحَار والبهاق والجُذَام والرعاش والبواسير وضعف الذاكرة. وتتميز أخشاب الجذع باحتراقها الجيد، وتستخدم فى بناء المنازل وصناعة القوارب والمعدات والحاويات الخشبية.

الشوع (البان أو اللبان) Moringa peregrine: شجيرة تنتشر فى منطقة البحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية والقرن الأفريقى، وتستخدم منذ قديم الزمان فى الطبخ واستخراج الزيت، وتدخل فى تركيب مستحضرات

التجميل والأدوية لعلاج آلام العضلات والبطن. ويأكل البدو بذورها الغضة والجافة مشوية أو مقلية بدلا من المكسرات المعروفة. خشبها يقاوم النمل الأبيض، لذا يستخدم فى البناء. وهى تزرع أيضاً كنبتةٍ زينةٍ فى الحدائق.

القرم (الشورى أو المنغروف) Avicennia marina: شجيرة تنمو فى المستنقعات الطينية الضحلة، وتنتشر على السواحل الشرقية للقارة الأفريقية وسواحل الخليج العربى وجنوب آسيا وأستراليا، وتساهم فى حماية الحياة البحرية. يستخدم لحاء الساق المغلى فى الطب الشعبى لعلاج مشاكل الخصوبة، ويدخل فى تركيب مستحضرات التجميل. تستخدم الأوراق والفروع الغضة علفاً للحيوانات، والأخشاب لصنع الفحم وبناء البيوت الشعبية. وينتج النحل من رحيق أزهارها عسلا ممتازاً.

الكرز الشتوى (المكرجاع أو العبب) Withania somnifera: شجيرة عشبية خشبية صغيرة تنتشر فى أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب أوروبا وشبه القارة الهندية. استخدمت فى الطب الشعبى لأكثر من ٣٠٠٠ عام فى علاج الخصوبة، ومشاكل الجهاز البولى، وتقوية الذاكرة، وعلاج حالات الوهن والإجهاد العصبى، وتقوية جهاز المناعة وعلاج الأورام السرطانية".

ولست أقول إن هذه هى النباتات التى قصدها الصقلى بل المراد أن نتعرف إلى بعض نباتات الصحراء فى بلاد العرب الحالية كى تعطينا فكرة عن أحوالها فى الماضى.

كذلك لا أثر لأى كلام فى كتاب ديودور الصقلى عن اعتقادات العرب وأساطيرهم وخرافاتهم ومعابدهم وأوثانهم وآلهتهم وشعائرهم وكهانهم وأعيادهم وأسواقهم ومدنهم، وبخاصة مكة، وبيتهم المعظم وكعبتهم وحجهم وعمرتهم. وكأن العرب فى عصره كانوا ناسا بلا دين ولا طقوس ولا بيوت عبادة ولا أعياد ولا أسواق، وهو ما لا يمكن أن يكون لأنه مخالف لأوضاع المجتمعات. وكذلك لا كلام عن إبراهيم وإسماعيل ولا عن هود وصالح وشعيب. وعلى نفس المنوال لا يوجد أى حديث عن لغة العرب وكتاباتهم وفنونهم وصناعاتهم وعلومهم وطبهم وقصصهم وأشعارهم وخطبهم وأمثالهم. ولو كان الصقلى قد اهتم بالحديث عن معتقدات العرب ولغتهم وآدابهم وصناعاتهم وما إلى هذا لكان فى كلامه مكسب عظيم، ولكنه للأسف لم يفعل.

يوحنا الدمشقى

نسمع كثيرا بيوحنا الدمشقى (٦٧٦– ٧٤٩م) بوصفه أول من كتب يهاجم الإسلام ويتهم الرسول عليه السلام بأنه نبى مزيف أَلَّف القرآن بالاستعانة بكتب اليهود والنصارى ثم ادعى أنه رسول يُوحَى إليه من السماء. واسم يوحنا الدمشقى منصور بن سرجون، وكان مولده عام ٦٧٦ بدمشق لعائلة نصرانية نافذة خلال العصر الأموى، إذ كان والده يعمل فى بلاط الخلافة الأموية على ديوان الجباية المالية فيها. كما شغل هو نفسه هذه الوظيفة فترة من الزمن حتى استغنى عنه عبد الملك بن مروان بعد أن حول ذلك الخليفةُ الديوانَ من الرومية إلى اللسان العربى وتخلص من تَدَلُّله الثقيل وسخف عقله، إذ ظن أن الدولة لا يمكن أن تستغنى عنه. ثم دخل إلى دير قرب القدس فى فلسطين. وهو آخر آباء الكنيسة الشرقية. ومن ناحية أرومته يرى البعض أن أصل الأسرة من الروم، بينما يرى آخرون أنها من العرب. والملاحظ أن كل مؤلفاته قد وضعت باليونانية.

وهو رائد الجدل النصرانى ضد الإسلام، وأصبح ما خطته يداه فى هذا الشأن ركيزة من ركائز ذلك النوع من الجدل، إذ أخذ المجادلون من المنصّرين والمستشرقين الذين جاؤوا بعده يستعينون به. ويتلخص ما كتبه فى هذا السبيل فى الزعم بأن الإسلام ليس دينا سماويا بل هرطقة نصرانية، وأن النبى محمدا صلى الله عليه وسلم كان على معرفة بأسفار العهدين: القديم والجديد، وأنه تعلم على يد الراهب بحيرا، وكان يتلقى القرآن وهو نائم. ويجد

القارئ هذا كله وأسوأ منه فى كتابه المشهور المسمى: " De Haeresbius: الهرطقة". وقد وَصَف كاتب مادة " St. John Damascene" فى " Catholic Encyclopedia: الموسوعة الكاثوليكية" ما سطرته يد يوحنا الدمشقى على النحو التالى:

"In treating of Islamism he vigorously assails the immoral practices of Mohammed and the corrupt teachings inserted in the Koran to legalize the delinquencies of the prophet".

وفى كتابه المسمى: "يوحنا الدمشقى" يقول د. جواد على إن الدمشقى، بحكم مقامه فى الخط الأول من خطوط القتال بين الإسلام والنصرانية، اضْطُرَّ إلى دراسة الأسلحة التى شهرها المسلمون على المسيحيين وإلى التنقيب فى القرآن الكريم وفى أحاديث الرسول وفى سيرة النبى وأصحابه من الأنصار والمهاجرين لعله يجد نقصًا أو ضعفًا يتخذه هدفًا يهاجمه أو ركنًا يبنى عليه خطة هجومه على المسلمين بدون شفقة أو رحمة وهوادة"، وإنه "بهذه الروح اعتكف يدرس القرآن الكريم والحديث النبوى، وهو فى عصر كان فيه أصحاب رسول الله أحياء يرزقون، حتى إذا ما حفظ القرآن وما شاء من أحاديث انطلق كالأسد يزأر فاتحًا فكيه يريد موضعًا سهلا يغرس فيه أنيابه من جسم المسلمين". ثم يمضى قائلا إنه "فى الفصل ١٠١ من رسائله وفصوله... وفى مناظراته الكثيرة معلومات غزيرة تدل على اطلاع واسع على تاريخ المسلمين".

ثم يفصّل د. جواد على الأمر بقوله: "وبالنظر إلى جهل أبناء دينه بأسباب الجدال الدينى وبالبراهين العلمية المنطقية فإنه وضع لهم كتابا فى المناظرة على طريقة السؤال والجواب على هذا النسق: "إذا سألك العربى كذا فأجبه بكذا وليس بكذا"، وشدد على إخوانه بوجوب حفظ هذه المحاورة واتباعها حرفيا وشدد فى تحريم مبادرة العربى بالسؤال خوفا من الزلل والوقوع فى مهاوى الضلالة، ومن الارتباك الذى قد يؤدى إلى تغلب العربى على المسيحى فى النهاية. وهذه الرسالة حوار بين عربى مسلم وبين مسيحى جمع فيها أكثر ما كان يدور فى خلده وفى خلد الجدليين من أسئلة ومن أجوبة ومن فروق بين الديانتين".

هذا ما قاله جواد على، ولسوف يتضح من خلال عرضنا لأفكار الرجل وردنا عليها أن جواد على قد بالغ كثيرا جدا فى الحديث عن علم ذلك الدمشقى ومواهبه الجدلية، إذ فى كلامه جهل شديد وتدليس كبير ومزاعم كاذبة ضخمة لا تصمد أمام التحليل العقلى والوقائع التى تخزق العين. وأول ما نتناوله من ذلك الموضوع قوله إن العرب كانوا طَوَال عمرهم وثنيين يعبدون نجمة الصباح وأفروديت، التى يسمونها فى لغتهم: "كَبَار"، أى الكبيرة. والحقيقة أنهم كانوا قبل ذلك موحدين على دين أبيهم إبراهيم، ثم طمس الزمن كثيرا من معالم هذا التوحيد، وإن بقى منهم ناس لم يفارقوا وحدانيتهم الأصلية كانوا ينفرون من الأوثان وعبادتها رغم قلة عددهم، فضلا عمن تحول إلى اليهودية أو النصرانية. ثم أين يا ترى يمكننا أن نجد الإلهة "كَبَار"؟ الواقع أن العرب لم يكن

عندهم إلهة تدعى: "كَبار"، كما لم يكونوا يعبدون أفروديت على عكس ما يزعم ذلك المُدَّعِى، وإن علق محقق الكتاب فى الهامش بما كتبه هيرودوت من أن العرب كانوا يعبدون "أفروديت السماوية" ويسمونها: اللات. وهيرودوت، كما نعرف، أتى قبل الدمشقى بقرون طوال.

ويزعم يوحنا أيضا أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يكتب ما ينزل عليه من وحى ثم يتلوه على قومه مكتوبا. وهذه أول مرة نقرأ فيها هذا الكلام العجيب، إذ من المعروف أن الرسول لم يكن يمسك فى يده بكتاب يتلو منه على قومه ما يريد تبليغه إليهم من وحى السماء، بل كان يفعل ذلك من حفظه مباشرة.

وفى الآية السادسة عشرة وما بعدها من سورة "القيامة" نقرأ قوله تعالى مخاطبا نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام: "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ"، وهو ما يشرحه ابن كثير فى تفسيره قائلا: "هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم فى كيفية تلقيه الوحى من المَلَك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق المَلَكَ فى قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحى أن يستمع له، وتكفَّل الله له أن يجمعه فى صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه، وأن يبينه له، ويفسره ويوضحه. ومن هذا يتبين أنه لم يكن هناك كتاب ولا كتابة، بل ذاكرة تحفظ، ولسان يؤدى ما حفظته الذاكرة. وهذا

واضح تمام الوضوح، وإلا لرد عليه المشركون فكذبوه، اعتمادا على تلك الآيات، بأنه إنما يقرأ عليهم من كتاب فى يده لا من نص محفوظ فى ذهنه.

ويمضى يوحنا الدمشقى فينسب للنبى عليه السلام القول بأن اليهود قد قبضوا على "ظِلّ" المسيح وصلبوه. وهذا كلام لم يقله القرآن ولا النبى عليه الصلاة والسلام كما هو معلوم للجميع. قال تعالى عن بنى إسرائيل: "فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)" (النساء). فأين الكلام عن ظل عيسى هنا؟ لقد قال القرآن إنه قد شُبّه لليهود، وهذا كل ما هنالك، فلا ظلال ولا يحزنون.

ومما قاله أيضا يوحنا الدمشقى أن الله سبحانه وتعالى، حين صعد عيسى إلى السماء بعد نجاته من الصلب، سأله: أأنت قلت للناس: أنا الله وابن الله؟ وأن عيسى قد أجاب قائلا: ارحمنى يا إلهى. أنت تعلم أننى لم أقل هذا وأننى لم أستنكف أن أكون عبدا لك. إلا أن الخطاة من الناس قد اقترفوا الخطيئة فكذبوا علىَّ وكتبوا أننى قلت هذا الكلام، فقال له الله: أنا أعلم بأنك لم تنطق بهذا الكلام.

هذا ما كتبه يوحنا الدمشقى، أما ما جاء فى القرآن عن ذلك الأمر فموجود فى سورة "المائدة"، وها هو ذا نصه بالحرف: "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شىء شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)".

ومن هذه الآيات المباركات يتضح أن الحوار المذكور لم يجر بين الله وعبده المسيح عقب صعوده إلى السماء، بل سيجرى يوم القيامة بدليل ما جاء فى آخر الآيات من الإشارة ألى أن ذلك اليوم هو اليوم الذى ينفع فيه الصادقين صدقُهم. وهذا هو يوم القيامة. كما أن السؤال الإلهى لم يكن عما إذا كان عيسى قد قال للناس إنه الله وابن الله، بل عما إذا كان قد قال لهم: "اتخذونى وأمى إلهين من دون الله". كذلك ليس فى رد المسيح عليه الصلاة والسلام على ربه سبحانه أية إشارة إلى أن الناس قد كتبوا ذلك أو لم يكتبوه، بل ليس فيه أنهم قالوا هذا أو ذاك عن المسيح، إذ كل ما نقرؤه فى الآيات أنه عليه السلام لم يقل لهم إلا ما أمره الله به من دعوتهم إلى عبادة الله رب المسيح

وربهم وأنه كان شهيدا عليهم طوال وجوده بينهم، وأنه بعدما توفاه الله كان سبحانه وتعالى هو الرقيب عليهم.

ولا يقف جهل الدمشقى عند هذا الحد بل يتعداه إلى الأوليات: فمثلا نراه يكتب أن محمدا (أو "هذا المحمد" بنص عبارته الوقحة) قد ألف كثيرا من الكتب المضحكة معطيا كل كتاب اسما خاصا. وطبعا لم يكتب محمد شيئا على الإطلاق، بل كان يتلقى الوحى فيبلغه للناس شفاها: مسلميهم وكافريهم ويهودهم ونصاراهم على السواء. كما أنه لم يكن هناك كتب كثيرة، بل كتاب واحد هو القرآن الكريم. أما السور فهى أجزاء من القرآن، وليست كتبا.

ومن جهله أنه يسمى سورة "النساء" باسم "المرأة"، بصيغة المفرد لا الجمع، واصفا إياها بأنها "كتاب"، ويقول إن كتابا قرآنيا آخر يحمل اسم "ناقة الله"، وهو ما لا وجود له فى القرآن، بل الموجود سورة "الشمس"، وأن الله عز وجل قال لعيسى بعدما استجاب لدعائه بإنزال مائدة من السماء: "لقد آتيتكم مائدة غير قابلة للفساد". وكل هذا لا وجود له فى القرآن ولا حتى فى الحديث.

ومن السور التى تناولها الدمشقى بالحديث سورة "البقرة"، وقد سماها كالعادة: "كتابا"، وذكر أنها تحتوى على كثير جدا من الأشياء المضحكة التى تمنعه كثرتها من تناولها بالكلام. لكنه استمر فأشار إلى أن محمدا قد شرع للمسلمين الختان: للرجال والنساء على السواء، وأنه نهاهم عن حفظ السبت

والعِمَاد. وطبعا لا وجود لشيء من هذا بتاتا فى "البقرة" ولا فى أية سورة أخرى من سور القرآن.

وفى محاضرة للمطران جاورجيوس (خضر) بدمشق بتاريخ ٣٠ حزيران ٢٠٠٨م (http://www.ortmtlb.org.lb/sermons/damascene.htm) نسمع ذلك المطران يؤكد أن يوحنا الدمشقى لم يكن مؤهلا بما فيه الكفاية لتناول القرآن. قال: "فى هذا المُنَاخ عمل آل منصور، الذين انحدر منهم ذاك الذى نوجز سيرته هنا. هل كانوا عربًا قبل الفتح؟ وكانت قبائل عربية كثيرة قد استوطنت بلاد الشام. لا نستطيع أن نؤكّد ذلك. الثابت أنهم كانوا يتكلّمون اليونانية مثل كل أهل المدن السورية، والسريانية كانت لغة الريف. ولكنى أميل الى الاعتقاد أنهم انكبّوا على العربية فور الفتح، إذ كان عليهم أن يخاطبوا الخلفاء. وقناعتى أن يوحنا الدمشقى أَلَمَّ بالعربية، إذ نعلم أنه كان نديمًا للخليفة يزيد. فاللغة المشتركة بينهما كانت بالضرورة عربيةً ما. ولكن ظنّى أنه لم يكن يملك النص إلى درجة فهمه السليم للقرآن، إذ أخطأ فى موضع أو فى غير موضع فى فهمه للمصادر الإسلامية فى كتابه الصغير: "جدل بين مسيحى ومسلم". غير أننا لم نعثر على أثر منه بالعربية، إذ كان يكتب باليونانية لأهل دينه مفسّرًا العقيدة. ولم يكن يتوقّع أن يقرأه العرب الفاتحون. يبقى أن الأخطل كان صديقًا للعائلة، ولا بد إذًا من أن الذى نؤرّخ له قرأ الشعر العربى.

إلى هذا ينبغى التأكيد أن معرفة يوحنا للعربيّة كانت أضعف من معرفته اليونانية، ولاسيّما أن هذه كانت لغة البيت والكنيسة. وما يثبّت نظريتنا هذه أن أساس الثقافة عند يوحنا جاء من أن أباه وجد أسيرا مسيحيا عند العرب فطلب تحريره إلى بيته، وكان هذا يعرف كل علوم العصر، وأوكل اليه كل تربية ابنه، فأخذ هذا عنه البلاغة والفيزياء والحساب والهندسة وعلم الفلك واللاهوت وما أهّله أن يقتبس من الفلسفة اليونانيّة الكثير" .

هذا عن جهل يوحنا الدمشقى، والآن جاء دور الكلام عن كذبه. فالرسول الكريم، حسبما يدلّس يوحنا الدمشقى، قد وقعت يده على العهدين: القديم والجديد، أى على الكتاب المقدس، ثم حدث أن قابل راهبا آريوسيا تحدث معه، فقام فى نفسه أن يؤلف دينا جديدا . وكأن تأليف دين هو أمر من السهولة بمكان إلى هذا الحد . أما بخصوص هذا الراهب الآريوسى فقد علق محقق كتاب يوحنا الدمشقى الذى ورد فيه هذا الكلام بأنه قد يكون هو الراهب بحيرا، الذى قابل محمدا فى صباه عند بُصْرَى بالشام وقال إنه يرى فيه علامة النبوة. إذن فمحمد قد قابل الراهب فى صباه. وهل من الممكن أن يفكر صبى فى الثانية عشرة أو نحوها فى اختراع دين جديد ؟ بل إن من الأوربيين أنفسهم من يشكون فى وقوع مثل ذلك اللقاء أصلا كإدمون باور (انظر Joseph Huby, Christus: Manuel d'Histoire des Religions, Beauchenese et ses Fils, Paris, 1946, P. 780) . وبالله إذا كان لمثل ذلك الراهب وجود حقيقى فلماذا لم يتكلم بما وقع موضحا أن ذلك النبى الجديد ليس فى الحقيقة سوى ذلك

الصبى الذى التقاه فى بصرى قبل سنين وتعلم منه ما ساعده على تأليف ديانته الجديدة؟ أو لماذا لم ينبر أحد القرشيين الذى كانوا يرافقونه فى تلك الرحلة التجارية ورَأَوْا وسمعوا ما دار بينه وبين الراهب المذكور فيفضح محمدا وينسف دينه بكل سهولة؟

وبالنسبة إلى زعم الدمشقى أن محمدا استفاد من الكتاب المقدس فى توليف دينه أين يا ترى صادف الرسول عليه السلام الكتاب المقدس؟ هل كانت فى مكة مكتبات يستعار منها مثل تلك الكتب؟ ومن الذى شاهده يا ترى وهو يطالع تلك الكتب ويحفظ ما فيها؟ إنه لم يشاهَد يوما وفى يده كتاب، فكيف يتجرأ مدلسنا ويقول هذا الكلام بلا أدنى دليل؟ ثم كيف نفسر تلك الاختلافات بين رواية القرآن ورواية الكتاب المقدس للموضوعات المشتركة بين الكتابين ويتصادف رغم ذلك أن يكون كلام القرآن هو الموافق للمنطق والتاريخ؟ وكيف تصادف أيضا أن يكون القرآن وحدانىّ الدعوة نقى الوحدانية إلى آخر المدى، والعهد القديم مجسّدًا للإله فى بعض مواضعه، والأغلبية الساحقة من أتباع العهد الجديد مثلثين؟

والعجيب الغريب أن الدمشقى، الذى اتهم النبى الكريم بأنه كان يستعين بكتب اليهود والنصارى وتعلم على يد راهب نصرانى، هو هو نفسه الذى زعم أن الرسول كان يأتيه القرآن وهو نائم. فبالله لماذا يأتيه القرآن وهو نائم إذا كان هو يؤلفه تأليفا، ويزيفه تزييفا؟ إن التزييف والتأليف عملية إرادية

واعية، أما ما يقع أثناء النوم فلا وعى ولا إرادة، إذ يكون الإنسان سلبيا تام السلبية.

ومن تدليسات يوحنا الدمشقى أيضا نسبته زورا وبهتانا إلى الرسول القولَ بأن مريم أم المسيح هى أخت موسى وهارون، إذ لم يقل الرسول ولا قال القرآن فى أى وقت إن مريم أم المسيح هى أخت موسى وهارون. بل الذى فيه هو أن اليهود، حين أتتهم عليها السلام بطفلها تحمله، قالوا لها: "يا أخت هارون، ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ، وما كانت أمك بغيًّا". فالقائل بهذا ليس هو القرآن، بل قوم مريم أيا كان مقصدهم من الإشارة لأُخُوّتها إلى هارون، وليس إلى هارون وموسى كما زعم هو. ولو كان القرآن قد افترى على بنى إسرائيل هذا القول لما سكت يهود المدينة ولشنعوا به على الإسلام وكتابه ورسوله وأتباعه.

ولقد سبق أن فسر الرسول الآية منذ وقت مبكر حين جاءه الصحابى الجليل المغيرة بن شعبة قافلا من اليمن فأخبره أن النصارى هناك قد سألوه كيف تكون مريم أخت هارون وموسى، وبين موسى وعيسى الزمن الطويل، فكان جوابه صلى الله عليه وسلم: هلا قلتَ لهم إنهم كانوا يسمون بأسماء صالحيهم؟ كما شرح المفسرون المسلمون الآية بعد ذلك بما يدل على أنهم يَرَوْنَها تعبيرا مجازيًّا، فقالوا إن معنى "يا أخت هارون"، أى يا شبيهة هارون فى العبادة، أو قيل لها: "يا أخت هارون" لأنها كانت من نسله، كما يقال للتميمى: "يا أخا تميم"، وللمُضَرى: "يا أخا مُضَر". وقيل: نُسِبَتْ إلى رجل

صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس به فى الزهادة والعبادة. وحُكِىَ أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم يقال له: هارون. ورواه ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير.

والحق أن تفسير رسول الله لهذه الآية يتسق مع طريقة الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى فى استعمال كلمة "أخت". تقول مادة "أخت" فى "دائرة المعارف الكتابية"، وهى كما يعلم الجميع من تأليف لفيف من رجال الدين النصارى: "تُسْتَخْدَم هذه الكلمة كثيرا فى العهد القديم، وهى فى العبرية "أبوت"، للإشارة إلى:

١- أخت شقيقة من نفس الأبوين.

٢- أخت من أحد الأبوين (تك ٢٠: ١٢، لا ١٨: ٩).

٣- امرأة من نفس العائلة أو العشيرة (تك ٢٤: ٦٠، أى ٤٢: ١١).

٤- امرأة من نفس البلد أو الناحية (عدد ٢٥: ٢٨).

٥- يقال مجازيا عن مملكتى إسرائيل ويهوذا إنهما أختان (حز ٢٣: ٤).

٦- تعتبر المدن المتحالفة أخوات (حز ١٦: ٤٥).

٧- تستخدم نفس الكلمة العبرية لوصف أشياء ذات شقين أو أشياء مزدوجة، مثل الستائر أو الشقق التى يقال عنها: "بعضها موصول ببعض" (وفى العبرية "موصول بأخته" - خر ٢٦: ٣ و٦)، كما تطلق أيضاً على أزواج الأجنحة (حز ١: ٩، ٣: ١٣).

٨- لوصف بعض الفضائل المرتبطة بالشخص مثل: "قل للحكمة: أنتِ أختى" (أم ٧: ٤، أى ١٧: ١٤).

٩- لوصف العلاقة بين محب وعروسه كتعبير عن الإعزاز (نش ٤: ٩، ٥: ١، ٨: ٨).

وفى العهد الجديد تستخدم الكلمة اليونانية: "أيلف" (أخت) فى المعانى الآتية:

(١) لوصف القرابة بالجسد أو بالدم (مت ١٢: ٥، ١٣: ٥٦، ١٩: ٢٩، لو ١٠: ٣٩، لو ١٤: ٢٦، يو ١١: ١، ١٩: ٢٥، أع ٢٣: ١٦).

(٢) أخت فى المسيح: "أختنا فيبى" (رو ١٦: ١، انظر أيضا ١ كو ٧: ١٥، ١ تى ٥: ١، يع ٢: ١٥).

(٣) قد تشير إلى كنيسة: "أختك المختارة" (٢ يو ١٣)".

ومن مشاغبات الدمشقى أيضا دعواه أنه كان كلما سأل المسلمين: "هل هناك من الأنبياء من شهد لمحمد بأنه صادق فى دعواه الرسالة، إذ لا بد لكل نبى أن يشهد له بالصدق مَنْ حوله حين يشاهدون نزول الوحى عليه، أو ينبئنا أحد الأنبياء السابقين بأن ثم نبيا قادما فى الطريق؟" وقعوا فى حيص بيص وضربوا أخماسا فى أسداس، ولم يستطيعوا ردا.

فأما مشاهدة الناس نزول الوحى على نبى من الأنبياء فقد مثَّل لها برؤية بنى إسرائيل لله فى صورة سحاب ونار وظلام وعواصف فوق جبل سيناء. لكن بالله أهذا دليل على أن ما شاهده اليهود وقتذاك هو الله

سبحانه؟ وهل الله سحاب وظلام وعواصف ونار؟ الواقع أن من السهل جدا المجادلة بأن هذا ليس هو الله، بل بعض عناصر الطبيعة. ثم هل هناك دليل على أن هذا قد حدث أصلا؟ سيقول: إن بنى إسرائيل قد شهدوا بهذا. ولكن من أدرانا أن بنى إسرائيل قد حضروا شيئا من هذا أو أنهم قالوا الصدق بشأنه؟

وعلى كل حال كان الصحابة يشهدون نزول الوحى على الرسول عليه السلام ويَرَوْن ما يعتريه لَدُنْ هذا النزول بكل وضوح مما فصلته كتب الحديث النبوى الشريف، وسرعان ما يخرج صلى الله عليه وسلم من هذه الحالة بالجواب الذى كانوا ينتظرونه أو التشريع الذى كانوا يتطلعون إليه. وكثيرا ما كانوا يسألونه عن أشياء تتعلق بالغيب الذى لا يعرفه أحد، فيأتيهم الرد فى الحال من خلال الوحى ويكون صادقا. كما أن كل ما قاله الرسول فى القرآن أو السنة يدل على حكمة عميقة هائلة تبيَّنَ صدقها وعبقريتها مع الأيام، إذ لم يحدث أن أشار عليهم بشىء دون أن يكون النجاح والتوفيق حليفه مهما كانت العقبات والمؤامرات والمآزق. وما مِنْ وَعْدٍ وَعَدَهُمُوه إلا وتحقق كاملا كما قال. وما من شىء شرعه لهم إلا كان مثال الطهارة والاستقامة والذوق واللياقة والرقى العقلى والاجتماعى والسياسى والثقافى والفائدة المحققة.

لقد أخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الوثنية إلى التوحيد، ومن إدمان الخمر إلى الصحو، ومن الجهل إلى العلم، ومن الرعونة إلى الصبر والحلم، ومن الفوضى إلى النظام، ومن القذارة إلى النظافة والطهارة، ومن التناحر القبلى

على أتفه الأمور إلى التآخى والمسالمة، ومن غطرسة النسب إلى رحابة الإنسانية والتواضع والتعاون والمرحمة، ومن قسوة الربا ومص دماء المحتاجين إلى العطف عليهم وإكرامهم والتجاوز عما فى ذمتهم ابتغاء مرضاة الله، ومن محدودية الأفق المحلى إلى فضاء العالمية الرحيب، ومن انعدام الدور الحضارى إلى قيادة العالم سياسة وثقافة. فماذا فى أى شىء من ذلك من المعابة؟

ولدينا مقياس آخر يتمثل فى أن بنى إسرائيل ظلوا يشغبون على موسى وأخيه ويرجعون إلى الوثنية والشرك عند كل منعطف حتى ضج منهم موسى عليه السلام، بخلاف أتباع محمد، الذين لم يشغبوا عليه قط، بل ظلوا يحبونه ويحترمونه ويطيعونه لا عن غفلة وسذاجة، بل عن وعى ويقظة عقل وحرارة إيمان وضمير.

ولقد كان محمد معروفا عند قومه بالصدق والأمانة، فضلا عن أنه لم يكن له أى مارب فيما دعا إليه من دين. بالعكس لقد طاله بسببه أذى كثير وآلام وأحزان وخسائر لا تنتهى. بل لقد تعرضت حياته مرارا للقتل لولا أن الله عصمه منه. فكيف يتهمه مُتَّهِمٌ بعد هذا كله بأنه كذاب؟ إذن فليس ثم صادق واحد فى الدنيا!

وعَوْدًا إلى كلام الدمشقى عن بشارة النبى السابق بزميله اللاحق نتساءل: هل حدث أن حسمت مثلُ تلك البشارة الخلافَ بين النبى اللاحق وقومه حسما نهائيا؟ لنأخذ المسيح عليه السلام مثالا: هل نَفَعَه لدى اليهود انتظارُهم له وتشوُّقهم إلى مجيئه؟ الواقع أنهم، حين أتى إليهم أخيرا وبعد طول

تطلع وانتظار، قد كفروا به كفرانا مبينا واتهموا أمه بالزنا وخططوا لقتله. بل إنهم ليعتقدون أنهم قتلوه وصلبوه فعلا. حتى الذين شفاهم من البرص والعمى وأحياهم من الموت كانوا أول المتخلين عنه ساعة الجِدّ. حتى حواريوه تركوه يواجه مصيره وحده طبقا لما كتبه مؤلفو الأناجيل. حتى كبيرهم أقسم بالله عند القبض عليه إنه لا يعرف هذا الرجل: يقصد المسيح عليه السلام، رغم أن المسيح كان قد حذره من أنه سوف ينكره وينكر الإيمان به قبل صياح الديك فى تلك الليلة ثلاث مرات، فأكد أنه لن يقع منه هذا بحال، ولكنه وقع.

وهذا لو أن الأنبياء السابقين لم يبشروا به صلى الله عليه وسلم. ذلك أن فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد بشارات متعددة به صلوات الله وسلامه عليه. وقد آمن كثير جدا من أهل الكتاب: يهودا ونصارى به صلى الله عليه وسلم بناء على تلك البشائر، كما كفر به صلى الله عليه وسلم كثير منهم رغم تلك البشائر وأنكروا أن تكون خاصة به. أى أن وجود البشائر لا يحل المشكلة بالضرورة.

ومع هذا فها نحن أولاء نسوق بعض تلك البشارات، وهى مأخوذة من كتابَىْ "بشارات العهد القديم بمحمد صلى الله عليه وسلم" و"بشارات العهد الجديد بمحمد صلى الله عليه وسلم" للدكتور محمد بن عبد الله السحيم بشىء من التصرف: فمنها البشارة الموجودة فى سفر "العدد"، إذ ورد فى قصة بلعام بن باعوراء قوله حسب الترجمة القديمة: "نظروا كوكبا قد ظهر من آل إسماعيل، وعضده سبط من العرب. ولظهوره تزلزلت الأرض ومن عليها".

وقد غُيِّرَ هذا النص فى الطبعات المحدثة فأصبح كالآتى: "يبرز كوكب من يعقوب، ويقوم قضيب من إسرائيل، فيحطم موآب، ويهلك من الوغى".

وهناك بشارة موجودة فى الفصل الحادى عشر من سفر "التثنية"، وذلك أن موسى قال لبنى إسرائيل: "إن الرب إلهكم يقيم نبيا مثلى من بينكم ومن إخوتكم، فاسمعوا له". وفى الإصحاح الثالث من إنجيل متى يقول يوحنا المعمدان، وهو النبى يحيى عليه السلام: "أنا أعمّدكم بالماء، وذلك للتوبة وغفران الخطايا، ولكنْ هناك شخص قادم بعدى، وهو أقوى منى لدرجة أننى لا أستحق حل سيور حذائه، وسيعمّدكم بالروح والنار". وفى الفصل الخامس عشر من إنجيل يوحنا يقول المسيح عليه السلام: "إن الفارقليط الذى يرسله أبى باسمى يعلمكم كل شىء". ويقول أيضا فى الفصل السادس عشر: "إن الفارقليط لن يجيئكم ما لم أذهب. فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة. ولا يقول من تلقاء نفسه شيئا، لكنه يسوسكم بالحق كله، ويخبركم بالحوادث والغيوب". ويقول كذلك: "إنى سائل أبى أن يرسل إليكم فارقليطًا آخر يكون معكم إلى الأبد".

وقد استخرج المهتدون من أهل الكتاب إلى الإسلام تطابق كلمة "البارقليط" مع اسم محمد صلى الله عليه وسلم وصفته. وبيانُ هذا التطابق أن اسم "بارقليط" اليونانى يعنى فى العربية أحمد أو محمدا أو محمودا. وقال بعضهم إننا لا نجد أبدا أى يونانى كان يحمل اسم "برقليطس" ولا أى عربى كان يحمل اسم أحمد، وإن التنزيل القرآنى القائل بأن عيسى بن مريم أعلن لبنى

إسرائيل أنه كان "مبشّرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد" واحد من أقوى البراهين على أن محمدا كان حقيقةً نبيا، وأن القرآن تنزيل إلهى فعلا، إذ لم يكن فى وسعه أبدا أن يعرف أن كلمة "البارقليط" كانت تعنى "أحمد" إلا من خلال الوحى والتنزيل الإلهى.

والآن إلى القارئ الكريم مجرد عينةٍ جِدّ محدودةٍ من الكتب وضعها المهتدون إلى الإسلام من أهل الكتاب، ومع كل كتابٍ اسم صاحبه: "الدين والدولة" لعلى بن ربّن الطبرى، و"تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب" لعبد الله الترجمان، و"النصيحة الإيمانية فى فضيحة الملة النصرانية" للمتطبب، و"إفحام اليهود" للسموأل بن يحيى المغربى، و"مسالك النظر فى نبوة سيد البشر" لسعيد بن الحسن الإسكندرانى، و"محمد صلى الله عليه وسلم فى الكتاب المقدس" لعبد الأحد داود، و"محمد نبى الحق" لجدى مرجان، و"محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل والقرآن" لإبراهيم خليل أحمد. وينبغى ألا ننسى أن من بين أسباب دخول تلك الجماهير الغفيرة من أهل الكتاب على مر العصور فى الإسلام اقتناعهم بهذه النبوءات الموجودة فى كتبهم، فآمنوا بمحمد موقنين أنه هو النبى الذى بشرت به التوراة والإنجيل.

كذلك تثير تلك البشائر مسألة أخرى لا أدرى كيف يمكن حلها. ذلك أن المبشر يحتاج بدوره إلى من يبشر به كى نصدقه، وهذا الذى بشر به يحتاج أيضا إلى من يبشر به ويقول لنا إنه نبى صادق، وهذا المبشر الثالث يحتاج إلى مبشر رابع يسبقه ويشهد له... وهكذا دواليك إلى أن نصل إلى نبى لم يشهد

له نبى سابق عليه لأنه هو أول الأنبياء، فلا يوجد من يسبقه. ثم هل يستطيع الدمشقى أن يقول لنا مثلا: أى نبى يا ترى شهد بأن هناك نبيا سوف يأتى اسمه نوح؟ ومن ذا الذى شهد لإبراهيم عليه السلام وبشَّر به نبيا ؟ أم من يا ترى بشَّر بيوسف؟ وهذه مجرد أمثلة ثلاثة لا غير. أما البشارات التى وردت فى العهد القديم ويقول المتنطع إنها شاهدة بألوهية السيد المسيح فالحق أنها لا علاقة لها بالسيد المسيح عليه السلام من قريب أو من بعيد، اللهم فى خيالات أمثاله. وأيا ما يكن الأمر فهل كانت بشارات أنبياء العهد القديم بلاحقيهم مانعة لهؤلاء الأنبياء اللاحقين من مقارفة الجرائم البشعة من الزنا والزنا بالمحارم والقتل والشرك والتزوج بالوثنيات ومساعدتهن على عبادة الأوثان كما جاء فى الكتاب المقدس نفسه؟ وهؤلاء هم أنبياء الكتاب المقدس الذين يضعهم يوحنا الدمشقى بإزاء سيدنا رسول الله زاعما أنهم أفضل منه.

فهذا عن المنهج الذى يريدنا يوحنا الدمشقى أن نجرى عليه. أما المنهج الذى نريده نحن من الناس فهو أن يبسطوا أمامهم الدعوة التى يأتيهم بها أى رسول أو مصلح ليَرَوْا فيها رأيهم محللين ممحصين مدققين مقارنين. بهذا لا بغيره يكون اختبار الدعوات والنبوات لا بشهادات الآخرين. وهذا المنهج هو منهج القرآن، إذ دائما أبدا نجده يخاطب العقول ويعرض البراهين ويحث على التأمل والتفكير، وهو ما لا يحسنه يوحنا الدمشقى.

فإذا أردنا أن نقارن بناء على هذا بين الدين المنسوب لعيسى وبين الدين الذى أُوحِىَ إلى محمد، فماذا نجد ؟ نجد أن الإسلام ليس مجرد عبادة أو

مجموعة من الأخلاق بل شريعة كاملة تغطى كل جوانب الحياة وأنشطة الحضارة البشرية كما هو معلوم، أما دين عيسى كما جاء فى العهد الجديد فلا يعدو بعض المواعظ المغرقة فى المثالية والتى يصعب بل يستحيل تطبيقها فى الواقع. ومن هنا نفهم تأكيد السيد المسيح بأن مملكته ليست من هذا العالم. ترى كيف يقوم مجتمع أو حضارة على نبذ العمل والمال تماما طبقا لما كان عيسى يأمر به أتباعه؟ أو كيف يقوم مجتمع أو حضارة على أساس التسليم للمجرمين لا بما يريدون فقط بل بأزيد مما كانوا يحلمون بحيث إذا هاجمك لص مثلا وأراد غَصْبك رداءك فعليك أن تتنازل له عن الإزار أيضا . . . إلى آخر ما نعرفه عن موعظة الجبل وما يشبهها فى الأناجيل؟

أما محمد عليه الصلاة والسلام فقد أتى بتشريعات لم تغادر شيئًا من شؤون الحياة إلا ونظمته وقنّنته على أحسن ما يكون التناغم مع فطرة البشر وأوضاع حياتهم وظروف مجتمعاتهم، جامعة بين المثالية العاقلة الكريمة والواقعية الطاهرة الحكيمة. ألم يبن دولة ناجحة فى المدينة استطاعت، فى غضون عدة عقود لا راحت ولا جاءت فى حساب التاريخ، أن تتحول إلى إمبراطورية اكتسحت معاقل الشرك وعبادة النار والبقر والبشر؟ بلى. ثم إن معجزات السيد المسيح على جلالها أقل فائدة للعباد من هذه الإنجازات المحمدية. ذلك أن الذى يعطى الجائع صنارة ويعلّمه كيف يصنع ما شاء من الصنانير، ثم يشرح له كيف يقوم بعملية الصيد ليسد جوعته ويدخر بعضا من السمك المصطاد ليبيعه لغيره مقابل شىء مما عند ذلك الغير لا يملك مثله هو،

فيَطْعَم ويغتنى، ويُطْعِم ويُغْنِى بدوره مَنْ حوله، لأفضل ألف مرة من تزويد ذلك الجائع بأكلة سمك أو أكلتين، ثم يتركه بعد ذلك للجوع، وبخاصة أنه ليس عنده وقت لتلبية حاجات كل جائع، وأنه عاجلا أو آجلا مُغَادِره إلى الأبد ومُبْقِيه وجهًا لوجهٍ مع أمعائه الخاوية وزوجته وأطفاله الصارخين لا يعرفون كيف يتصرفون ولا كيف يواجهون هذا المأزق العسير!

وبمستطاعنا أن ندير هذه المقارنة على ثلاثة محاور: الأول هو مدى توفير كل من الدينين للتشريعات التى تنظم أمور الحياة. والثانى هو القيم الحضارية التى يبشر بها كل من الدينين. والثالث هو عنصر الرجال الذين رباهم كل من الرسولين. ونبدأ بالتشريعات، ومعروف أن النصرانية تخلو تماما من أى شىء يتعلق بتنظيم المجتمع أو الدولة: سواء فى مجال السياسة والحكومة، أو الاقتصاد والعمل والإنتاج والصناعات والحرف والبيع والشراء والربا، أو العلاقات التى تربط أفراد الأسر والأقارب والجيران بعضهم ببعض، أو الحروب والمبادئ التى ينبغى الالتزام بها عند وقوعها. ذلك أن النصرانية ليست سوى طائفة من النصائح الأخلاقية المثالية التى تأبى على التطبيق لأنها تفترض فى الناس أنهم مجموعة من الملائكة الأطهار الأبرار. وبطبيعة الحال فإن الناس ليسوا كذلك ولا يمكن أن يكونوا كذلك. ولهذا كان لا بد من تشريعات تنظم أمورهم فى مجالات الحياة المختلفة، وهو ما قام به الإسلام على خير وجه، وراعى فيه إقامة توازن عبقرى بين واقعية القوانين ومناسبتها للطبيعة الإنسانية وبين العمل فى ذات الوقت على السموّ بتلك الطبيعة إلى أقصى ما

يمكنها بلوغه من درجات الرقى والسموق رغم ذلك. وينبغى هنا ألا ننسى ما قاله المسيح عليه الصلاة والسلام من أن مملكته ليست من هذا العالم.

وهنا ننتقل إلى المحور الثانى فى المقارنة بين محمد والمسيح عليهما جميعا السلام، وهو محور القيم الحضارية. ومن المعروف أن الحضارة تقوم على عدة أسس هى العقيدة، والأخلاق، والقانون، والعلم، والذوق، والعمل. وليكن آخر شىء هنا، وهو العمل، هو أول ما نتناوله فى المقارنة بين الإسلام والنصرانية. وكان المسيح عليه السلام، طبقا لما يقوله كتّاب الأناجيل، يأمر كل من يدخل فى دعوته أن يترك وراء ظهره مهنته التى يأكل منها، وكذلك أسرته، ويتبعه.

ويتصل بهذا تهوينه عليه السلام من شأن المال مع أن المال فى أصله عنصر رئيسى من عناصر الحياة، إذ هو ترجمة الجهد المبذول فى العمل والإنتاج أو فيما يحتاج إليه الإنتاج كى يمكن إنجازه. ولا يمكن أن يُدَان المال ومالكوه، اللهم إلا إذا أتى من حرام، أو أُنفِقَ فى حرام. أما إدانته والتنفير منه والدعوة إلى كراهيته كأنه شرٌّ فى ذاته فهو ما لا يمكن الموافقة عليه لأنه يهدم ركنا من أركان الحياة والعمران البشرى، وإلا فمن أين يأكل الناس ويشربون ويلبسون ويسكنون إذا أهملوا العمل وما يترتب على العمل من كسب ومال.

ولذلك كان من ثمرة هذا الموقف المبدئى من السيد المسيح أنه وتلاميذه كانوا يعتمدون فى مطعمهم وملبسهم ومركبهم على ما يجود به عليهم الآخرون، أو على ما يقابلهم فى طريقهم من حقول يأكلون منها دون إذن من أصحابها،

أو على معجزات السيد المسيح. وليس على تلك الأسس تقوم المجتمعات البشرية، بل على العمل والجِدّ والإنتاج وامتهان الحرف والصنائع المختلفة، وإلا انقرض المجتمع وضاع.

الواقع أنه ليس هناك سوى سبيل واحد هو العمل والإنتاج والاعتماد على النفس والتعاون وتوزيع الاختصاصات، كل شخص فيما يحسن ويتقن. وهذا ما يقوله الإسلام: لقد تكرر فى القرآن الشريف مراتٍ بعد مراتٍ، عقب الإيمان مباشرةً، الأمرُ بالأعمال الصالحات، وهى تشمل كل شىء تحتاجه الحياة الإنسانية كى تتحرك وتستمر، وأوجب القرآن العمل إيجابا: "وقُلِ: اعملوا، فسَيَرَى اللهُ عملَكم ورسولُه والمؤمنون". وفى أحاديث الرسول ما يدل على أنه لا بد من العمل واتخاذ كل إنسان مهنة يزاولها ويعيش منها مُعِينًا إخوانه فى المجتمع والإنسانية ومستعينًا بهم، وأن المال خيرٌ ما كان من حلال وما أُنْفِق فى حلال وأُدّيَ فيه حق الله والآخرين، وأن العمل واجب حتى آخر نَفَس فى حياة الإنسان، بل حتى آخر لحظة فى عمر الدنيا، وأن العبادة لا ينبغى أن تعطل الإنسان عن عمله ولا أن تجور عليه، وربما قُدِّم فى بعض الظروف عليها، وأن المهن كلها محترمة، وأنه لا يكفى أن يؤدى الإنسان العمل، بل لابد من إتقانه على الوجه المطلوب. باختصار ليس فى الدنيا ما يعاب على من يستمتع بطيباتها ما دام يراعى ربه فيها. فالإسلام لا يدابر الحياة ولا يتجهم لها، بل يأخذ بيدها ويتعاون معها على خير البشرية.

كما نظّم الإسلام الصدقات ولم يتركها لمزاج المسلم: إن شاء أداها، وإن شاء لم يؤدها، وإن شاء أخرج كثيرا، وإن شاء أخرج قليلا، وإن شاء استمر فى تأديتها، و إن شاء توقف، بل قنّنها وجعلها حقا للفقير لا بد من إخراجه، وجعل لها موظفين يقومون على جمعها وتوزيعها . أى أنه أَتْبَعَ المبدأَ بتطبيقه ولم يتركه كلاما فى الهواء .

وتمثّل النسبة التى يخرجها المسلم القادر من ماله فى مجال الصدقات مقدارا معقولا يكفى للقضاء على الفقر، ولا يسلب الأغنياءَ مع هذا كلَّ ثروتهم بل يترك لهم الكثير. والمقصود بالفقر هنا الفقر الناشىء من عجز صاحبه عن الكسب أو من اختلال الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لا الفقر الناتج عن الكسل والبلادة وقلة الكرامة والطمع فيما فى أيدى الآخرين دون وجه حق. ولأن الزكاة نظام مقنن فى الإسلام فقد استمر حتى عصرنا هذا الذى لم تعد الحكومات الإسلامية فيه تهتم بتطبيقه، إذ لا يزال كثير من المسلمين يخرجون حق المحتاجين فى أموالهم طيبةً به نفوسهم راجين قبول الله له وإثابتهم عليه.

ويحرص الإسلام على إبراز قيمة العلم ويهتم به ويشجع عليه. ويكفى أنه هو الشىء الوحيد الذى أمر الله رسوله عليه السلام أن يستزيد منه، وأنه هو الشىء الوحيد أيضا الذى لم يورّث الأنبياء شيئا آخر سواه، وأن فضل العالم على سائر الناس، بما فيهم العابد، هو فضلٌ جِدُّ كبير، وأن المجتهد مأجور حتى لو أخطأ، وهو ما لا مثيل له ولا قريب منه فى أى مذهب أو فلسفة أو

نظام أو دين آخر، بل أقصى ما يطمع فيه المخطئ فى هذه الحالة هو أن تخفف عنه العقوبة، أما أن يُعْفَى منها تماما فهذا حلم صعب المنال. لكنْ أن يُؤْجَر رغم خطئه فهذه هى عبقرية دين محمد عليه الصلاة والسلام. أما فى الكتاب المقدس فيخرج الإنسان بانطباعٍ مؤدّاه أن العلم شىء لا وجود له. ولكن كيف يا ترى يمكن أن تقوم حضارة دون علم؟ لكن ينبغى ألا ننسى ما هو منسوب للمسيح عليه السلام من قوله إن مملكته ليست من هذا العالم!

أما فى الجانب الخلقى فهناك ما جاء فى الأناجيل أنْ "أَحِبُّوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. . . إلخ"، لكننا سبق أن قلنا إن هذه المبادئ الخلقية لا تصلح إلا للملائكة. إننا قد نفهم أن يلجأ الإنسان إلى التسامح فى بعض الظروف، وبخاصة إذا كان أقوى ممن أساء إليه أو كان عاجزا عن أخذ حقه أو وجد أن نيله هذا الحق سوف يؤدى إلى ضرر أفدح من ضرر الصبر والتغاضى. أما أن يتحول التسامح والإغضاء إلى سياسة دائمة فلا يصلح. وفوق ذلك فإنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد فى يوم من الأيام مجتمع بشرى يقوم على التسامح المطلق، وإلا فلنلغ الشرطة والقوانين والمحاكم والحكومات. فهل هذا معقول؟

ثم إن مدة التسامح والصبر فى حياة عيسى عليه السلام لم تتجاوز ثلاثة أعوام، ثم ترك الدنيا ومضى إلى ربه. أما محمد فإنه قد جرى على خطة الصبر والغفران لا أعواما ثلاثة فحسب، بل ثلاثة عشر عاما قبل أن يؤذَن له بالقتال بعدما كانت كل فرص الصبر والعفو والتغاضى قد نَفِدَتْ كلها ولم تأت بنتيجة. ولا شك أن لكل شىء فى دنيانا هذه من نهاية! فحبال الصبر لا

يمكن أن تمتد إلى الأبد إلا إذا كنا نعيش فى غير دنيا البشر ! كما أن الحياة لا تستقيم بالتسامح المطلق الدائم، "ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدت الأرض" كما جاء فى القرآن المجيد، إذ لا يَفُلّ الحديدَ إلا الحديد !

والمسيح عليه السلام هو نفسه القائل إنه ما جاء لِيُلْقِيَ سلاما بل سيفا، وإنه سيكون سببا فى انقسام البيت الواحد على نفسه، بما يدل أقوى دلالة وأجلاها على أن خطة التسامح لا يمكن أن تكون مطلقة مفتحة الأبواب على الدوام، وأن الاصطدام قادم قادم مع استمرار العنت والاضطهاد والعدوان من جانب الخصوم، وإلا فالعفاء على كل شىء وكل أحد ! ومن ناحية أخرى فقد سمعنا الرسول الكريم يدعو لقومه فى عز اضطهادهم له ولأتباعه قائلا: رب، اغفر لقومى، فإنهم لا يعلمون !

إن القرآن لا يأمر أتباعه بإدارة الخد الأيسر، لكنه يوصيهم مع ذلك بالحِلْم والصبر والرد على الجاهلين بـ"سلام عليكم" وبالعفو عند المقدرة. وهناك نصوص كثيرة فى القرآن والحديث تحث المسلم على الصبر ومقابلة السيئة بالحسنة، وإن كان الإسلام لا يوجب عليه ذلك، بل يؤثر فقط العفو والصفح فى كثير من الظروف على رد العدوان بالعدوان. ويدعو الإسلام أتباعه إلى الرحمة بالمساكين وإعانتهم وإكرامهم من مال الله الذى فى أيديهم، وإلى الرفق فى كل شىء، وإلى احترام الوالدين والكبار، وإلى إقامة الوزن والكيل بالقسط، وإلى غض البصر وحفظ اللسان عن الغِيبة والنميمة والسخرية، وإلى الاستئذان قبل دخول بيوت الآخرين، وإلى التواضع، وإلى

الصدق فى القول والعمل، وإلى الحفاظ على الوعد، وإلى العمل والإتقان، وإلى الرفق بالحيوان، وإلى مراعاة اللياقة والذوق والنظافة والنظام، وينفّر من الزنا والكذب وشرب الخمر والشحاذة والكبر وخُلْف الوعد وغَمْط الآخرين حقوقهم والبلادة والبطالة والنفاق والمحسوبية وإساءة الظن دون موجِب. وهو ما لا وجود له فى الأناجيل.

ونصل إلى المقارنة بين العقيدتين: ويكفى أن نقول إن الإسلام، كما هو معروف، دين التوحيد، أما النصرانية فتقوم على الثالوث: الآب والابن والروح القدس رغم ما أورده العهد الجديد عن مناداة عيسى الله سبحانه وتعالى بـ"إلهى، إلهى، لم تركتنى؟"، وهو ما يتضح أيضا من رده على إبليس مثلا حين أخذه ليجربه وطلب منه، ضمن ما طلب، أن يخر ساجدا له، فما كان منه إلا أن أجابه قائلا: "مكتوب أنه للرب إلهك وحده تسجد"!

والآن إلى المقارنة بين موقف كل من أصحاب السيد المسيح وأصحاب محمد: فأما أصحاب السيد المسيح فلسوف نورد تصرفاتهم منذ ظهر الخطر على حياته صلى الله عليه وسلم حتى النهاية. وها هو ذا ما صنعوه حسبما جاء فى إنجيل متى (فى الإصحاحين: ٢٦– ٢٧)، وهو يكفى عن مؤلفى الأناجيل الآخرين: "[٢٠]وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ اتَّكَأَ مَعَ الاثْنَى عَشَرَ. [٢١]وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ قَالَ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي». [٢٢]فَحَزِنُوا جِدًّا، وَابْتَدَأَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ لَهُ: «هَلْ أَنَا هُوَ يَارَبُّ؟» [٢٣]فَأَجَابَ وَقَالَ: «الَّذِى يَغْمِسُ يَدَهُ مَعِى فِى الصَّحْفَةِ هُوَ يُسَلِّمُنِى! [٢٤]إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ

مَكْتُوبٌ عَنْهُ، وَلَكِنْ وَيْلٌ لِذلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ٱبْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْرًا
لِذلِكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ!». ٢٥فَأَجَابَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ وَقَالَ: «هَلْ أَنَا هُوَ يَا
سَيِّدِي؟» قَالَ لَهُ: «أَنْتَ قُلْتَ». ٢٦وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ الْخُبْزَ، وَبَارَكَ
وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلاَمِيذَ وَقَالَ: «خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي». ٢٧وَأَخَذَ
الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلا: «اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، ٢٨لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي
لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا. ٢٩وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي
مِنَ الآنَ لاَ أَشْرَبُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ هذَا إِلَى ذلِكَ الْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ مَعَكُمْ
جَدِيدًا فِي مَلَكُوتِ أَبِي». ٣٠ثُمَّ سَبَّحُوا وَخَرَجُوا إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ. ٣١حِينَئِذٍ
قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ
الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ خِرَافُ الرَّعِيَّةِ. ٣٢وَلكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ».
٣٣فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: «وَإِنْ شَكَّ فِيكَ الْجَمِيعُ فَأَنَا لاَ أَشُكُّ أَبَدًا». ٣٤قَالَ
لَهُ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ دِيكٌ تُنْكِرُنِي
ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». ٣٥قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «وَلَوِ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لاَ أُنْكِرُكَ!»
هكَذَا قَالَ أَيْضًا جَمِيعُ التَّلاَمِيذِ. ٣٦حِينَئِذٍ جَاءَ مَعَهُمْ يَسُوعُ إِلَى ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا
جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلاَمِيذِ: «اجْلِسُوا هُهُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ». ٣٧ثُمَّ
أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَٱبْنَيْ زَبْدِي، وَٱبْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ. ٣٨فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي
حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ. اُمْكُثُوا هُهُنَا وَاسْهَرُوا مَعِي». ٣٩ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلا وَخَرَّ
عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ،
وَلكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ». ٤٠ثُمَّ جَاءَ إِلَى التَّلاَمِيذِ فَوَجَدَهُمْ

نِيَامًا، فَقَالَ لِبُطْرُسَ: «أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا مَعِي سَاعَةً وَاحِدَةً؟ ٤١اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ». ٤٢فَمَضَى أَيضًا ثَانِيَةً وَصَلَّى قَائِلا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ إِلاَّ أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ». ٤٣ثُمَّ جَاءَ فَوَجَدَهُمْ أَيضًا نِيَامًا، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً. ٤٤فَتَرَكَهُمْ وَمَضَى أَيضًا وَصَلَّى ثَالِثَةً قَائِلا ذلِكَ الْكَلاَمَ بِعَيْنِهِ. ٤٥ثُمَّ جَاءَ إِلَى تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: «نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا! هُوَذَا السَّاعَةُ قَدِ اقْتَرَبَتْ، وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيدِي الْخُطَاةِ. ٤٦قُومُوا نَنْطَلِقْ! هُوَذَا الَّذِي يُسَلِّمُنِي قَدِ اقْتَرَبَ!».

٤٧وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ، إِذَا يَهُوذَا أَحَدُ الاثْنَي عَشَرَ قَدْ جَاءَ وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِي مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخِ الشَّعْبِ. ٤٨وَالَّذِي أَسْلَمَهُ أَعْطَاهُمْ عَلاَمَةً قَائِلا: «الَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ». ٤٩فَلِلْوَقْتِ تَقَدَّمَ إِلَى يَسُوعَ وَقَالَ: «السَّلاَمُ يَا سَيِّدِي!» وَقَبَّلَهُ. ٥٠فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟» حِينَئِذٍ تَقَدَّمُوا وَأَلْقَوْا الأَيَادِيَ عَلَى يَسُوعَ وَأَمْسَكُوهُ. ٥١وَإِذَا وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَ يَسُوعَ مَدَّ يَدَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذُنَهُ. ٥٢فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ! ٥٣أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي أَكْثَرَ مِنِ اثْنَي عَشَرَ جَيْشًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟ ٥٤فَكَيْفَ تُكَمَّلُ الْكُتُبُ: أَنَّهُ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ؟». ٥٥فِي تِلْكَ السَّاعَةِ قَالَ يَسُوعُ لِلْجُمُوعِ: «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِي لِتَأْخُذُونِي! كُلَّ يَوْمٍ كُنْتُ أَجْلِسُ مَعَكُمْ أُعَلِّمُ فِي

الْهَيْكَلِ وَلَمْ تُمْسِكُونِى. [٥٦]وَأَمَّا هذا كُلُّهُ فَقَدْ كَانَ لِكَى تُكَمَّلَ كُتُبُ الأَنْبِيَاءِ». حِينَئِذٍ تَرَكَهُ التَّلاَمِيذُ كُلُّهُمْ وَهَرَبُوا. [٥٧]وَالَّذِينَ أَمْسَكُوا يَسُوعَ مَضَوْا بِهِ إِلَى قَيَافَا رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، حَيْثُ اجْتَمَعَ الْكَتَبَةُ وَالشُّيُوخُ. [٥٨]وَأَمَّا بُطْرُسُ فَتَبِعَهُ مِنْ بَعِيدٍ إِلَى دَارِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَدَخَلَ إِلَى دَاخِلٍ وَجَلَسَ بَيْنَ الْخُدَّامِ لِيَنْظُرَ النِّهَايَةَ. [٥٩]وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْمَجْمَعُ كُلُّهُ يَطْلُبُونَ شَهَادَةَ زُورٍ عَلَى يَسُوعَ لِكَى يَقْتُلُوهُ، [٦٠]فَلَمْ يَجِدُوا. وَمَعَ أَنَّهُ جَاءَ شُهُودُ زُورٍ كَثِيرُونَ، لَمْ يَجِدُوا. وَلكِنْ أَخِيرًا تَقَدَّمَ شَاهِدَا زُورٍ [٦١]وَقَالاَ: «هذَا قَالَ: إِنِّى أَقْدِرُ أَنْ أَنْقُضَ هَيْكَلَ اللهِ، وَفِى ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَبْنِيهِ». [٦٢]فَقَامَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَقَالَ لَهُ: «أَمَا تُجِيبُ بِشَىْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هذَانِ عَلَيْكَ؟» [٦٣]وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ سَاكِتًا. فَأَجَابَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ وَقَالَ لَهُ: «أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ الْحَى أَنْ تَقُولَ لَنَا: هَلْ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ؟» [٦٤]قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنْتَ قُلْتَ! وَأَيْضًا أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ». [٦٥]فَمَزَّقَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ حِينَئِذٍ ثِيَابَهُ قَائِلاً: «قَدْ جَدَّفَ! مَا حَاجَتُنَا بَعْدُ إِلَى شُهُودٍ؟ هَا قَدْ سَمِعْتُمْ تَجْدِيفَهُ! [٦٦]مَاذَا تَرَوْنَ؟» فَأَجَابُوا وَقَالُوا: «إِنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْتِ». [٦٧]حِينَئِذٍ بَصَقُوا فِى وَجْهِهِ وَلَكَمُوهُ، وَآخَرُونَ لَطَمُوهُ [٦٨]قَائِلِينَ: «تَنَبَّأْ لَنَا أَيُّهَا الْمَسِيحُ، مَنْ ضَرَبَكَ؟». [٦٩]أَمَّا بُطْرُسُ فَكَانَ جَالِسًا خَارِجًا فِى الدَّارِ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ جَارِيَةٌ قَائِلَةً: «وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ الْجَلِيلِى!». [٧٠]فَأَنْكَرَ قُدَّامَ الْجَمِيعِ قَائِلاً: «لَسْتُ أَدْرِى مَا تَقُولِينَ!» [٧١]ثُمَّ إِذْ خَرَجَ إِلَى الدِّهْلِيزِ رَأَتْهُ أُخْرَى، فَقَالَتْ لِلَّذِينَ هُنَاكَ: «وَهذَا كَانَ مَعَ يَسُوعَ النَّاصِرِى!» [٧٢]فَأَنْكَرَ أَيْضًا

بِقَسَمٍ: «إِنِّى لَسْتُ أَعْرِفُ الرَّجُلَ!» ٧٣وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَاءَ الْقِيَامُ وَقَالُوا لِبُطْرُسَ: «حَقًّا أَنْتَ أَيضًا مِنْهُمْ، فَإِنَّ لُغَتَكَ تُظْهِرُكَ!» ٧٤فَابْتَدَأَ حِينَئِذٍ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّى لاَ أَعْرِفُ الرَّجُلَ!» وَلِلْوَقْتِ صَاحَ الدِّيكُ. ٧٥فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ كَلاَمَ يَسُوعَ الَّذِى قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ تُنْكِرُنِى ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». فَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ وَبَكَى بُكَاءً مُرًّا.

١وَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ تَشَاوَرَ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخُ الشَّعْبِ عَلَى يَسُوعَ حَتَّى يَقْتُلُوهُ، ٢فَأَوْثَقُوهُ وَمَضَوْا بِهِ وَدَفَعُوهُ إِلَى بِيلاَطُسَ الْبُنْطِى الْوَالِى. ٣حِينَئِذٍ لَمَّا رَأَى يَهُوذَا الَّذِى أَسْلَمَهُ أَنَّهُ قَدْ دِينَ، نَدِمَ وَرَدَّ الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخِ ٤قَائِلا: «قَدْ أَخْطَأْتُ إِذْ سَلَّمْتُ دَمًا بَرِيئًا». فَقَالُوا: «مَاذَا عَلَيْنَا؟ أَنْتَ أَبْصِرْ!» ٥فَطَرَحَ الْفِضَّةَ فِى الْهَيْكَلِ وَانْصَرَفَ، ثُمَّ مَضَى وَخَنَقَ نَفْسَهُ. ٦فَأَخَذَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْفِضَّةَ وَقَالُوا: «لاَ يَحِلُّ أَنْ نُلْقِيَهَا فِى الْخِزَانَةِ لأَنَّهَا ثَمَنُ دَمٍ». ٧فَتَشَاوَرُوا وَاشْتَرَوْا بِهَا حَقْلَ الْفَخَّارِى مَقْبَرَةً لِلْغُرَبَاءِ. ٨لِهذَا سُمِّىَ ذلِكَ الْحَقْلُ «حَقْلَ الدَّمِ» إِلَى هذَا الْيَوْمِ. ٩حِينَئِذٍ تَمَّ مَا قِيلَ بِإِرْمِيَا النَّبِى الْقَائِلِ: «وَأَخَذُوا الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ، ثَمَنَ الْمُثَمَّنِ الَّذِى ثَمَّنُوهُ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ، ١٠وَأَعْطَوْهَا عَنْ حَقْلِ الْفَخَّارِى، كَمَا أَمَرَنِى الرَّبُّ». ١١فَوَقَفَ يَسُوعُ أَمَامَ الْوَالِى. فَسَأَلَهُ الْوَالِى قَائِلا: «أَأَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ؟» فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنْتَ تَقُولُ». ١٢وَبَيْنَمَا كَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ لَمْ يُجِبْ بِشىءٍ. ١٣فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «أَمَا تَسْمَعُ كَمْ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ؟» ١٤فَلَمْ يُجِبْهُ وَلاَ عَنْ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، حَتَّى تَعَجَّبَ الْوَالِى جِدًّا. ١٥وَكَانَ الْوَالِى مُعْتَادًا فِى الْعِيدِ أَنْ

يُطْلِقَ لِلْجَمْعِ أَسِيرًا وَاحِدًا، مَنْ أَرَادُوهُ. ١٦وَكَانَ لَهُمْ حِينَئِذٍ أَسِيرٌ مَشْهُورٌ يُسَمَّى بَارَابَاسَ. ١٧فَفِيمَا هُمْ مُجْتَمِعُونَ قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «مَنْ تُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ؟ بَارَابَاسَ أَمْ يَسُوعَ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ؟» ١٨لأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُمْ أَسْلَمُوهُ حَسَدًا. ١٩وَإِذْ كَانَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلاَيَةِ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ امْرَأَتُهُ قَائِلَةً: «إِيَّاكَ وَذَلِكَ الْبَارَّ، لأَنِّي تَأَلَّمْتُ الْيَوْمَ كَثِيرًا فِي حُلْمٍ مِنْ أَجْلِهِ». ٢٠وَلكِنَّ رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخَ حَرَّضُوا الْجُمُوعَ عَلَى أَنْ يَطْلُبُوا بَارَابَاسَ وَيُهْلِكُوا يَسُوعَ. ٢١فَأَجَابَ الْوَالِي وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ مِنَ الاثْنَيْنِ تُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ؟» فَقَالُوا: «بَارَابَاسَ!». ٢٢قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «فَمَاذَا أَفْعَلُ بِيَسُوعَ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ؟» قَالَ لَهُ الْجَمِيعُ: «لِيُصْلَبْ!» ٢٣فَقَالَ الْوَالِي: «وَأَيَّ شَرٍّ عَمِلَ؟» فَكَانُوا يَزْدَادُونَ صُرَاخًا قَائِلِينَ: «لِيُصْلَبْ!» ٢٤فَلَمَّا رَأَى بِيلاَطُسُ أَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ شَيْئًا، بَلْ بِالْحَرِيِّ يَحْدُثُ شَغَبٌ، أَخَذَ مَاءً وَغَسَلَ يَدَيْهِ قُدَّامَ الْجَمْعِ قَائِلاً: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هذَا الْبَارِّ! أَبْصِرُوا أَنْتُمْ!». ٢٥فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ وَقَالُوا: «دَمُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى أَوْلاَدِنَا». ٢٦حِينَئِذٍ أَطْلَقَ لَهُمْ بَارَابَاسَ، وَأَمَّا يَسُوعُ فَجَلَدَهُ وَأَسْلَمَهُ لِيُصْلَبَ. ٢٧فَأَخَذَ عَسْكَرُ الْوَالِي يَسُوعَ إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ وَجَمَعُوا عَلَيْهِ كُلَّ الْكَتِيبَةِ، ٢٨فَعَرَّوْهُ وَأَلْبَسُوهُ رِدَاءً قِرْمِزِيًّا، ٢٩وَضَفَرُوا إِكْلِيلاً مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَقَصَبَةً فِي يَمِينِهِ. وَكَانُوا يَجْثُونَ قُدَّامَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ قَائِلِينَ: «السَّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ!» ٣٠وَبَصَقُوا عَلَيْهِ، وَأَخَذُوا الْقَصَبَةَ وَضَرَبُوهُ عَلَى رَأْسِهِ. ٣١وَبَعْدَ مَا اسْتَهْزَأُوا بِهِ، نَزَعُوا عَنْهُ الرِّدَاءَ وَأَلْبَسُوهُ ثِيَابَهُ، وَمَضَوْا بِهِ لِلصَّلْبِ.

[٣٢]وَفِيمَا هُمْ خَارِجُونَ وَجَدُوا إِنْسَانًا قَيْرَوَانِيًّا اسْمُهُ سِمْعَانُ، فَسَخَّرُوهُ
لِيَحْمِلَ صَلِيبَهُ. [٣٣]وَلَمَّا أَتَوْا إِلَى مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ جُلْجُثَةُ، وَهُوَ الْمُسَمَّى «مَوْضِعَ
الْجُمْجُمَةِ» [٣٤]أَعْطَوْهُ خَلًّا مَمْزُوجًا بِمَرَارَةٍ لِيَشْرَبَ. وَلَمَّا ذَاقَ لَمْ يُرِدْ أَنْ
يَشْرَبَ. [٣٥]وَلَمَّا صَلَبُوهُ اقْتَسَمُوا ثِيَابَهُ مُقْتَرِعِينَ عَلَيْهَا، لِكَى يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِى:
«اقْتَسَمُوا ثِيَابِى بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِى أَلْقَوْا قُرْعَةً». [٣٦]ثُمَّ جَلَسُوا يَحْرُسُونَهُ
هُنَاكَ. [٣٧]وَجَعَلُوا فَوْقَ رَأْسِهِ عِلَّتَهُ مَكْتُوبَةً: «هذَا هُوَ يَسُوعُ مَلِكُ الْيَهُودِ».
[٣٨]حِينَئِذٍ صُلِبَ مَعَهُ لِصَّانِ، وَاحِدٌ عَنِ الْيَمِينِ وَوَاحِدٌ عَنِ الْيَسَارِ. [٣٩]وَكَانَ
الْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ [٤٠]قَائِلِينَ: «يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ
وَبَانِيَهُ فِى ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ، خَلِّصْ نَفْسَكَ! إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ!».
[٤١]وَكَذلِكَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَيْضًا وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ مَعَ الْكَتَبَةِ وَالشُّيُوخِ قَالُوا: «خَلَّصَ
آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا! إِنْ كَانَ هُوَ مَلِكَ إِسْرَائِيلَ فَلْيَنْزِلِ الآنَ
عَنِ الصَّلِيبِ فَنُؤْمِنَ بِهِ! [٤٣]قَدِ اتَّكَلَ عَلَى اللهِ، فَلْيُنْقِذْهُ الآنَ إِنْ أَرَادَهُ! لأَنَّهُ قَالَ:
أَنَا ابْنُ اللهِ!». [٤٤]وَبِذلِكَ أَيْضًا كَانَ اللِّصَّانِ اللَّذَانِ صُلِبَا مَعَهُ يُعَيِّرَانِهِ. [٤٥]وَمِنَ
السَّاعَةِ السَّادِسَةِ كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ. [٤٦]وَنَحْوَ
السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلا: «إِيلِى، إِيلِى، لِمَا شَبَقْتَنِى؟»
أَى: إِلهِى، إِلهِى، لِمَاذَا تَرَكْتَنِى؟ [٤٧]فَقَوْمٌ مِنَ الْوَاقِفِينَ هُنَاكَ لَمَّا سَمِعُوا قَالُوا:
«إِنَّهُ يُنَادِى إِيلِيَّا». [٤٨]وَلِلْوَقْتِ رَكَضَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَأَخَذَ إِسْفِنْجَةً وَمَلأَهَا خَلًّا
وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ. [٤٩]وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَقَالُوا: «اتْرُكْ. لِنَرَى هَلْ يَأْتِى إِيلِيَّا
يُخَلِّصُهُ!». [٥٠]فَصَرَخَ يَسُوعُ أَيْضًا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ".

وأما أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فنورد لهم تصرفاتهم فى موقفين من أخطر المواقف التى مرت به صلى الله عليه وسلم. ولسوف نراهم وهم يضحون بحياتهم وراحتهم من أجله ويفدونه بكل غال لديهم، وكلهم حُبٌّ له وحِرْصٌ على ألا يخلص إليه سوء أو يناله أذى. يستوى فى ذلك الرجال والنساء: فأما الأول فمن قلب المعمعة أثناء معركة أحد بعد أن تحولت كِفّة الميزان لصالح المشركين وتطورت الأحداث بسرعة وأحدق الكفار بالنبى يريدون قتله.

وإلى القارئ ما جاء فى سيرة ابن هشام بشىء من التصرف: "وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو، وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة حتى خلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدُثَّ بالحجارة حتى وقع لشِقّه فأُصِيبت رَبَاعِيَتُه وشُجَّ فى وجهه وكُلِمَتْ شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر وجنته. ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورفعه طلحة بن عُبَيْد الله حتى استوى قائما، ومَصَّ مالك بن سنان الدم عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ازدرده. وعن عائشة عن أبى بكر الصديق أن أبا عبيدة بن الجراح نزع إحدى الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثَنِيّته، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى، فكان ساقط الثنيتين. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

حين غَشِيَه القوم: مَنْ رجلٌ يَشْرِى لنا نفسَه؟ فقام زياد بن السكن فى نفر خمسة من الأنصار فقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا ثم رجلا، يُقْتَلون دونه حتى كان آخرَهم زيادٌ أو عمارة، فقاتل حتى أثبتته الجراحة. ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه.

وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد. قالت: خرجتُ أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعى سِقَاءٌ فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه، والدولة والريح للمسلمين. فلما انهزم المسلمون انحزْتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقمت أباشر القتال وأذبّ عنه بالسيف وأرمى عن القوس حتى خَلَصَت الجراح إلى. وكان على عاتقها جرح أجوف له غَوْرٌ، قالت: إن ابن قمئة، لما ولّى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أقبل يقول: دُلّونى على محمد، فلا نجوتُ إن نجا. فاعترضتُ له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربنى هذه الضربة، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان. وتَرَّس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو دجانة بنفسه يقع النَّبْل فى ظهره، وهو منحنٍ عليه حتى كثر فيه النبل. ورمى سعد بن أبى وقاص دون رسول الله. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رمى عن قوسه حتى اندقت سِيَتُها. وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته فردها (أى الرسول) بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما. وانتهى أنس بن النضر إلى عمر بن الخطاب وطلحة

بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتِل رسول الله صلى الله عليه وسلم! قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم استقبَلَ القومَ فقاتل حتى قُتِل. وقد وجدوا به يومئذ سبعين ضربة، فما عرفه إلا أخته. عرفتْه ببنانه. أما عبد الرحمن بن عوف فأصيب فُوه يومئذ فهَتَمَ وجُرِح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها فى رجله فعَرِجَ".

وأما الموقف الثانى فكان فى غزوة الحديبية حين لَجّ الخلاف بين قريش والمسلمين وأضحى الأمر على شفير الانفجار فى أية لحظة، وبدأت المفاوضات الشاقة. جاء فى صحيح البخارى: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبى صلى الله عليه وسلم: إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين. فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرَة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش. وسار النبى صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنيّة التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل. فألحَّتْ، فقالوا: خلأتِ القصواء! خَلأَتِ القصواء! فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ما خلأتِ القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكنْ حَبَسها حابسُ الفيل. ثم قال: والذى نفسى بيده لا يسألوننى خُطّةً يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها. ثم زجرها، فوثبتْ. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحُدَيْبِيَة على ثَمَدٍ قليل الماء يتبرّضه الناس تبرُّضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه. وشُكِى إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش، فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه. فوالله مازال يجيش لهم بالرّى حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عَيْبَةَ نُصْحِ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العُوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين. وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم. فإن شاؤوا مادَدْتُهم مدة ويُخَلّوا بينى وبين الناس. فإن أَظْهَرْ، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جمّوا. وإن هم أَبَوْا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنّهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى. ولَيُنْفِذَنَّ الله أمره. فقال بُدَيْل: سأبلغهم ما تقول. قال: فانطلق حتى أتى قريشا، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا. فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشىء. وقال ذوو الرأى منهم: هات ما سمعتَه يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا. فحدثهم بما قال النبى صلى الله عليه وسلم، فقام عروة بن مسعود فقال: أَى قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أو لستُ بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموننى؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلّحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض لكم خُطّة رُشْد. اقبلوها ودعونى آتيه. قالوا: ائته.

فأتاه، فجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم نحوا من قوله لبُدَيْل. فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرأيتَ إن استأصلتَ أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإنى والله لأرى وجوها، وإنى لأرى أشوابا من الناس خليقًا أن يفرّوا ويَدَعُوك. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات! أنحن نفرّ عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى صلى الله عليه وسلم، ومعه السيف وعليه المِغْفَر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أَخِّرْ يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم. فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: أَى غُدَر، ألستُ أسعى فى غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أما الإسلام فأَقْبَل، وأما المال فلستُ منه فى شىء.

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بعينه، قال: فوالله ما تنخّم رسول الله صلى الله عليه وسلم نُخَامَةً إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره. وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضُوئه. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيما له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أَى قَوْم، والله

لقد وفدتُ على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى، والله إنْ رأيتُ مَلِكًا قَطُّ يعظّمه أصحابه ما يعظِّم أصحابُ محمد صلى الله عليه وسلم محمدا . والله إنْ تنخَّم نخامة إلا وقعتْ فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره. وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه. وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيما له. وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من بنى كنانة: دعونى آتيه. فقالوا: ائته.

فلما أشرف على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا فلان، وهو من قوم يعظّمون البُدْن (أى الأضاحى)، فابعثوها له. فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يُلَبّون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يُصَدّوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ، فما أرى أن يُصَدّوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعونى آتيه. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبى صلى الله عليه وسلم: هذا مكرز، وهو رجل فاجر. فجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم.

فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. قال معمر: فأخبرنى أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبى صلى الله عليه وسلم: لقد سهل لكم من أمركم. قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا . فدعا النبى صلى الله عليه وسلم

الكاتب، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم. قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب: "باسمك اللهم" كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا "بسم الله الرحمن الرحيم". فقال النبى صلى الله عليه وسلم: اكتب: "باسمك اللهم". ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: والله إنى لرسول الله، وإنْ كذبتمونى. اكتب: محمد بن عبد الله. قال الزهرى: وذلك لقوله: لا يسألوننى خُطّةً يعظّمون بها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها. فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به. فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخِذْنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب، فقال سهيل: وعَلَى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددتَه إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدّ إلى المشركين، وقد جاء مُسْلِما؟

فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أَظْهُر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردّه إلى. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إنا لم نقض الكتاب بعد. قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شىء أبدا. قال النبى صلى الله عليه وسلم: فأَجِزْه لى. قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: بلى، فافعل. قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو

جندل: أَى معشر المسلمين، أُرَدّ إلى المشركين، وقد جئتُ مُسْلِما ؟ ألا تَرَوْن ما قد لَقِيت؟ وكان قد عُذِّب عذابا شديدا فى الله. قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبى الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ألست نبى الله حقا ؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق، وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فِلمَ نعطى الدنية فى ديننا إذن؟ قال: إنى رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصرى. قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا. قال:فإنك آتيه ومُطَوّفٌ به.

قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبى الله حقا ؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فِلمَ نعطى الدنية فى ديننا إذن؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس يعصى ربه، وهو ناصره. فاستمسِكْ بغَرْزِه، فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأَخْبَرَك أنك تأتيه العام؟ قلت:لا. قال: فإنك آتِيه ومطوّفٌ به. قال الزهرى: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا.

قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت أم سلمة: يانبى الله، أتحب ذلك؟ اخرج لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدا منهم

حتى فعل ذلك: نحر بُدْنَه ودعا حالقه فحلقه. فلما رَأَوْا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل غما . ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا، إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ فامتحنوهنّ. الله أعلم بإيمانهن. فإن علمتموهن مؤمناتٍ فلا تَرْجِعوهن إلى الكفار، لا هُنّ حِلٌّ لهم ولا هُمْ يَحِلّون لهن، وآتوهم ما أنفقوا. ولا جناح عليكم أن تَنْكِحوهن إذا آتيتموهن أجورهن، ولا تُمْسِكوا بِعِصَم الكَوَافِر" . فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشِّرْك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.

ثم رجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فجاءه أبو بصير، رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا فى طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذى جعلت لنا . فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا . فاستلّه الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه. فأمكنه منه، فضربه حتى بَرَد (أى مات)، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه: لقد رأى هذا ذعرا . فلما انتهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال: قُتِل والله صاحبى، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبى الله، قد والله أوفى الله ذمتك. قد رددتنى إليهم ثم نجانى الله منهم. قال النبى صلى الله عليه وسلم: ويل أمه مِسْعَر حرب لو كان له أحد .

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيفَ البحر. قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بِعِيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبى صلى الله عليه وسلم تناشده بالله والرحم لَمّا أرسل: فمن أتاه فهو آمن. فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم إليهم، فأنزل الله تعالى: "وهو الذى كَفَّ أيدَيَهم عنكم وأيدِيَكم عنهم ببطن مكةَ من بعد أن أظفركم عليهم، وكان الله بما تعملون بصيرا * هم الذين كفروا وصَدّوكم عن المسجد الحرام، والهَدْىَ معكوفا أن يبلغ مَحِلّه. ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ لم تَعْلَموهم أن تطؤوهم فتُصِيبَكم منهم مَعَرّةٌ بغير علم لو تَزَيَّلوا لعذّبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما * إذ جَعَل الذين كفروا فى قلوبهم الحَمِيّةَ حَمِيّةَ الجاهلية". وكانت حميّتهم أنهم لم يُقِرّوا أنه نبى الله، ولم يُقِرّوا بـ"بسم الله الرحمن الرحيم"، وحالوا بينهم وبين البيت".

ونعود، بعد هذ الرحلة الطويلة، إلى يوحنا الدمشقى فنقول إن كذبه وتدليسه لا يقف هنا، بل يتعداه إلى القول بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد ذكر فى كتاب "ناقة الله" (يقصد سورة "الشمس") أن الناقة المذكورة هى من عند الله وأنها شربت النهر كله فلم تستطع أن تنفذ من بين جبلين، وأن ناسا فى ذلك المكان كانوا يشربون الماء يوما، والناقة يوما، وأنها بشربها الماء كانت تمدهم باللبن، وأن أولئك الأشرار قاموا بقتل الناقة، التى كان لها رغم هذا

فَصِيلٌ أخذ يبتهل إلى الله أن يأخذ أمه الميتة إليه. . . وغير ذلك من التفاصيل المضحكة الكثيرة كما يقول. وطبعا كل هذا كذب فى كذب، وتضليل فى تضليل، إذ ليس فى سورة "الشمس" أكثر من أن قوم صالح قد عقروا الناقة، فدَمْدَمَ عليهم ربُّهم بذنبهم فسوّاها. وهذه هى الآيات التى تعرضت لقصة الناقة من تلك السورة: "كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا".

وهناك أيضا ما ينسبه إلى أنبياء بنى إسرائيل من أنهم جميعا بَدْءًا من موسى فنازلا قد تنبأوا بمجىء "الرب يسوع ابن الإله المتجسد وموته على الصليب ثم قيامه بعد هذا من القبر، وأنه سيكون القاضى على جميع البشر: الأحياء منهم والأموات على السواء". وكنا نحب لو أنه أورد تلك النبوءات لنرى ماذا قال أولئك الأنبياء بالضبط طبقا لكلامه غير القائم على أى أساس، لكنه لم يكلف خاطره شيئا من ذلك. وعلى كل حال فقد سبق أن وقفت فى بعض مؤلفاتى لدن مثل تلك النبوءات فألفيتها كلها لا علاقة بها بعيسى عليه السلام.

ثم يستمر فيقول إن المسلمين يرموننا بالشرك لأننا نشرك مع الله عيسى المسيح إلها وابنا للإله، فكان جوابنا عليهم أن ذلك هو ما قاله لنا الأنبياء فى كتبهم، وأنتم تؤمنون بهؤلاء الأنبياء وما أَتَوْا به من الكتب. فإذا كان لكم أى اعتراض فلتوجهوه إليهم لا إلينا، إذ هم الذين قالوا ذلك وعلّمونا إياه. لكن

بعضهم يرد بأن الأنبياء لم يقولوا هذا، بل نحن الذين أخطأنا تفسير أقوالهم، على حين يقول بعض آخر إن اليهود هم الذين صنعوا هذا لتضليلنا. هذا ما قاله ذلك الدمشقى. أما نحن فنشير على سبيل المثال إلى تقسيم سفر "التكوين" للبشر إلى ذكورٍ هم أبناء الله، وإناثٍ هن بنات الناس. وخذ ما قاله سفر "التكوين" أيضا عن بنتى لوط، اللتين اتفقتا على سُقْيَا أبيهما الخمر حتى يفقد وعيه، ثم تنام كل منهما معه ليلة كى تحبل منه لأنه لم يكن هناك رجال، فخافتا أن ينقرض النسل البشرى من الأرض. ولنأخذ أيضا ما قاله كاتب سفر "أخبار الأيام الثانى" (فى الإصحاحين ٢١– ٢٢) من أن الملك يهورام كان عُمْره لدى موته أربعين عاما، وعُمْر ابنه أخزيا، الذى خَلَفه فى الحكم، اثنين وأربعين، بما يعنى أن الابن كان أكبر من أبيه بعامين. فهل الأنبياء هم الذين قالوا هذا؟ وهل الأنبياء هم الذين قالوا إن داود قتل قائده أوريا الحثى ليخلو له وجه امرأته، التى كان قد شاهدها من فوق سطح قصره وهى تستحم متجردة تماما كما ولدتها أمها، ثم عاشرها، ثم أرسل داود قائده أوريا زوجها إلى خط النار آمرا الجنود أن ينكشفوا عنه فى أول فرصة ويتركوه وحيدا عند بدء المعركة حتى يقتله الأعداء، وبذلك يكون قد تخلص منه بأيسر طريق.

كذلك يدخل فى الكذب زَعْمُ يوحنا الدمشقى أنه كان يقول للمسلمين الذين يأخذون على النصارى عبادتهم مع الله للمسيح عيسى بن مريم: إنكم تؤمنون بأنه كلمة من الله وروح منه، ومعروف أن الكلمة والروح لا يمكن أن تنفصلا عمن توجدان فيه، فعليكم إذن أن تؤمنوا بربوبيته. وهذه حجة

داحضة، إذ القرآن، الذى قال عن عيسى: "كلمة من الله وروح منه"، ووضّح ذلك بقوله عن مريم عليها السلام: "فنفخنا فيها من روحنا" (الأنبياء/ ٩١)، هو نفسه الذى قال عن آدم: "ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه" (السجدة/ ٩)، وكذلك هو نفسه الذى يقول عن أبى البشر: "إن مَثَل عيسى عند الله كمَثَل آدم: خَلَقَه من ترابٍ ثم قال له: "كن" فيكون" (آل عمران/ ٥٩)، وهو ما قاله فى نفس السورة لمريم ردا على استغرابها أن يكون لها ولد من دون أن يمسَّها رجل: "قال: كذلكِ الله يخلق ما يشاء. إذا قضى أمرا فإنما يقول له: "كن" فيكون" (آل عمران/ ٤٧). أى أن آدم هو أيضا مثل المسيح كلمةٌ من الله هى "كن"، التى بها تكون الأشياء بعد أن لم تكن.

وردا على قوله إن المسلمين يتهموننا بممارسة الوثنية لتمجيدنا الصليب، فنرد عليهم بأنه مثل تقبيلكم ولمسكم للحجر الأسود. ثم يضيف أن بعض المسلمين كانوا يعللون لنا ما يصنعونه بذلك الحجر بأن إبراهيم قد ضاجع هاجر فوقه. وهذه كذبة ضخمة يستحيل بلعها. ذلك أنه ما من أحد من المسلمين يمكن أن يقول هذا الكلام. أما إعزاز المسلمين للحجر الأسود فهو يختلف اختلافا جذريا عن تمجيد النصارى للصليب، فالحجر الأسود لا يرتبط بأى معنى من معانى الشرك، بعكس الصليب، الذى تتمحور حوله العقيدة القائلة بأن المسيح هو الله أو ابن الله وأنه نزل من السماء إلى الأرض ومات على الصليب تكفيرا عن خطيئة البشرية الأولى التى ارتكبتها حواء وأغرت بارتكابها آدم. أما الحجر الأسود فيلخص موقفَ المسلمين منه قَوْلُ عمر بن

الخطاب لذلك الحجر، وعمر أحد أقرب الصحابة إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام: "إنى لأعلم أنك حجر لا يضر ولا ينفع. ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبَّلك ما قَبَّلْتُك". ثم إن تقبيل الحجر الأسود أو لمسه ليس من شروط العمرة ولا الحج، بل مَنْ شاء واستطاع أن يقبّله أو يلمسه فليفعل، ومن لم يشأ أو لم يستطع فلا حرج عليه.

ولا يتوقف هذا الكذاب عند هذه النقطة، بل يضيف إليها أن الحجر الأسود هو فى الواقع رأس أفروديت، التى كانوا يعبدونها قبلا، واسمها: "كَبَار". والمعروف أن أول شىء أتاه الرسول لدن فتح مكة هو تحطيم الأوثان جميعها، فكيف يمكن أن يبقى صلى الله عليه وسلم على رأس وثن من هذه الأوثان، ثم لا يكتفى بهذا، بل يقبّله ويلمسه أيضا، وهو الذى لم يكن يزعجه شىء قدر ما ترعجه الوثنية والشِّرْك بالله تعالى؟

ولقد كان كاتب مادة "Pierre noire" فى النسخة الفرنسية من "Wikipédia": ويكبيديا" حريصا على أن ينفى عن الحجر الأسود أن يكون موضوعا لعبادة أو تفاؤل أو مرتبطا بأى اعتقاد خرافى مهما كان: " Elle n'est ni un objet d'adoration, ni un fétiche quelconque, ni un porte bonheur, mais reste simplement une pierre". ثم لقد رأينا أنه لم يكن يوجد وثن اسمه "كَبَار"، اللهم إلا فى خيال هذا الخَرِف. وبالمناسبة فإن أقصى ما قاله المستشرقون فى أصل الحجر الأسود، على كثرة ما يلوون حقائق الأمور إلى الجهة التى يَرَوْنَها جديرة بالإساءة إلى الإسلام، أنه نيزك هبط قديما من

السماء. ويجد القارئ شيئًا من هذا الرأى فى مادة "Black Stone" فى النسخة الإنجليزية من موسوعة الـ"Wikipedia: ويكيبديا".

أما آخر كذبات يوحنا الدمشقى فهى ادعاؤه بأنه كان يقول هذا الكلام كله للمسلمين فى وجههم أيام الدولة الأموية، التى كان يشتغل فيها جابيا. ترى هل يمكن أن يَجْبَه هذا الرجلُ المسلمين بقلة أدبه فى حق الرسول الكريم وبتطاوله عليه دون أن يخشى شيئًا؟ لقد كان يعيش فى ظل خلفاء بنى أمية، فهل كان حكام بنى أمية ليتركوه ساعتئذ لحظة من نهار؟ ترى كيف يريدنا على أن نصدق مزاعمه العريضة هذه، وليس له أى ذكر فى كتب المسلمين فى ذلك الحين؟

لقد كان يعيش فى عصر عمالقة بنى أمية، وآخر من عمل لهم هذا الدمشقى هو عبد الملك بن مروان. أو يُتَصَوَّر أن يسكت على وقاحته وتجديفه ابن مروان فلا يقتطف بسيفه رقبته؟ وقد مر آنفا قول بعض النصارى الشوام عن كتابه: "جدل بين مسيحى ومسلم"، إنه كان يكتب لأهل دينه باليونانية مفسّرًا العقيدة، ولم يكن يتوقّع أن يقرأ العرب الفاتحون أى شىء مما يكتبه. وهذا ما يتمشى مع العقل والمنطق، أما التشدق والتنطع فما أيسرهما على كل كذاب.

وأخيرا هذا نص الترجمة الإنجليزية لما كتبه الدمشقى ضد الإسلام:

"And there is also the up until now strong and people-deceiving superstition of the Ishmaelites, being the forerunner of Antichrist. And it is born from Ishmael, who was born from

Hagar to Abraham, from which they are called Hagarenes and Ishmaelites. And they call them Saracens, as from Σαρρας κενοι (those empty of Sarah), because of what was said by Hagar to the angel: "Sarah has sent me away empty." So then, these were idolaters and reverenced the morning star and Aphrodite, who they indeed named Khabar in their own language, which means great. Therefore, until the time of Heraclius, they were plainly idolaters. From that time and until now came up among them a false prophet called Mamed, who, having encountered the Old and New Testament, as it seems, having conversed with an Arian monk, he put together his own heresy. And under the pretext of seeming pious, attracting (?) people, he reported that a book was sent down to him from heaven by God. Therefore some of the compositions written by him in a book, worthy of laughter, which he handed down to them as an object of reverence.

He says there is one God, the Maker of all things, neither having been begotten nor having begotten. He says Christ is the Word of God and His Spirit, only a creation and servant, and that he was born without seed from Mary the sister of Moses and Aaron. For he says the Word of God and the Spirit went into Mary and she bore Jesus who was a prophet and servant of God. And that the Jews, acting against the law, wanted to crucify him and having seized (him), they crucified his shadow. For Christ himself, they say, was not crucified nor did he die, for God took him to himself into heaven because he loved him.

And he says this, that when Christ went up into the heavens, God questioned him, saying, “O Jesus, did you say that ‘I am the Son of God and God’?” And Jesus, they say, answered, “Have mercy on me, O Lord; you know that I did not say (that), nor am I too proud to be your servant, but men who have turned aside wrote that I said this word and lied about me, and are wandering.” And God, they say, answered him, “I know that you did not say this word.” And many other astonishing sayings in this same writing, worthy of laughter, he boasts God sent down to him.

But we say, “And who is the witness that God gave the writing to him, or which of the prophets foretold that such a prophet would arise?” And they are at a loss, as Moses received on Mount Sinai, in the sight of all the people, the Law of God who appeared in cloud and fire and darkness and storm. And that all the prophets, from Moses and onward, foretold the coming of Christ, and that Christ is God, and the Son of God, being flesh, will come, and will be crucified, and will die, and will rise again, and he will be the judge of the living and the dead. And we say, “Why did your prophet not come in this way, with others witnessing about him, nor coming among you as God gave the Law to Moses on a smoking mountain with all the people watching, and, as you claim, provide this book, so you also might have certainty?” They answer that God does as he wills. We know this too, we say. But, we ask, how did the writing come down to your prophet? And they answer that while he was asleep the writing came upon

him. And we jokingly say to them that since he received the writing while sleeping, and did not sense the activity, in him is fulfilled the popular proverb ("You are spinning me dreams").

Again we ask, "Why, when he commanded us in your writing not to do or to receive anything without witnesses, did you not ask him that 'First you show through witnesses whether you are a prophet, and that you came from God, and which Scripture witnesses about you?'" They are silent, ashamed. To whom we say, "For good reason! Since it is not allowed for you to marry a woman without witnesses, nor to buy, nor acquire property (?), nor do you allow yourselves to have a donkey or an animal unwitnessed. For you indeed also have wives, and properties, and donkeys, and all the rest through witnesses, and you have only a faith and a writing unwitnessed. For he who handed this down to you has in no way an assurance, nor is any previous witness of him known, but he received this also while sleeping."

And they call us *Associators*, because, they say, we introduce an associate to God by saying Christ is the Son of God and God. To whom we say that this is what the Prophets and Scripture have handed down. And you, as you insist, accept the Prophets. If, therefore, we are wrong saying Christ is the Son of God, they also are who taught and handed it down to us. And some of them indeed say that we have allegorized the Prophets, imputing (sayings) to them. Others say that the Hebrews, hating (us), have deceived us, having written as from the Prophets, so that we might be destroyed.

And again we say to them, “You say that Christ is the Word of God and the Spirit. How then do you rebuke us as ‘Associators’? For the Word and the Spirit are each of them unseparated from Him in Whom they have been born. If, therefore, in God is His Word, it is obvious he is also God. But if he is outside of God, as according to you, God is irrational (αλογος) and lifeless (απνους). Therefore, in avoiding to associate with God, you have mutilated him. But it would be better for you to say that he has an associate than to mutilate him, and represent him like a stone, or wood, or any of those insensible things. Thus, indeed, falsely accusing us, you call us ‘Associators.’ But we call you ‘*Mutilators of God*.'”

They also accuse us as idolaters for reverencing the Cross, which they despise. And we say to them, “Why, therefore, do you rub yourselves against the stone by your Khabathan, and love kissing the stone?” And some of them say Abraham had relations with Hagar upon it, and others that he tied up the camel around it when about to sacrifice Isaac. And we respond to them, “The Scripture says that there was a mountain like a grove, and wood from which also Abraham cut for the whole burnt offering on which he laid Isaac, and that he left the donkeys with the servants. Therefore, from what source is your foolish saying? For there is no wood of a forest lying in that place, nor travelling by donkeys.” They are indeed ashamed. Nevertheless, they say the stone is of Abraham. Then we say, “If it is of Abraham, as you foolishly say, therefore are you not

ashamed, kissing this thing only because Abraham had relations with a woman upon it, or that he tied up a camel? But you censure us because we show reverence to the Cross of Christ through which the strength of the demons and the deceit of the Accuser is destroyed?" And this thing which they say is a stone is the head of Aphrodite which they reverenced, who they also called Khabar, upon which also even up to now the shadow of an inscription appears to careful observers.

As we have said, this Mamed composed many foolish sayings, and he laid upon each of them a title, like the writing "The Women," in which also he plainly legislates (for a man) to take four wives and one thousand concubines if he is able, however many he might put under his hand, aside from the four wives. And he legislated to divorce whichever one he wishes, or if he wishes, also to take care of another, for this very reason: Mamed had a companion named Zeïd. This one had a beautiful wife, whom Mamed loved. Therefore, when they were sitting together, Mamed said, "Oh, by the way, God has ordered me to take your wife." And he answered, "You are the Apostle; do as God has said to you. Take my wife." Or rather, so we might tell it from the beginning, he said to him, "God has ordered me, that you divorce your wife" And he divorced. And after several days, he says, "But God has ordered that I will also take her." Then he took (her) and committed adultery with her (and) made this law: "He who wills may divorce his wife, but if after divorcing, he would return to her, another

must marry her; for it is not allowed to take (her back) if she has not been married by another. And even if a brother divorces, let his brother marry her, if he is willing." And in the same writing, he transmits this message: "Plough the land which God has given to you, and beautify it" and do this, and in this way—so I might not say all the obscene things as he did.

Again, there is the writing of the Camel of God, about which he says that there was a camel from God, and she drank a whole river, and she could not pass between two mountains through which she could not fit. Therefore, he says, a people was in that place, and indeed on one day they would drink the water and the camel on the next. And while drinking the water, she maintained (?) them by providing milk instead of water. Therefore those men, being wicked, rose up, he says, and killed the camel. But there was a small camel of her offspring which, he says, when the mother had been done away with, cried out to God, and He took her to Himself. To them we say, "From where was that camel?" And they say that it was from God. And we say, "Did any other couple with this camel?" And they say, "No." We say, "Therefore how did she give birth? For we see you camel is without father, without mother, without genealogy. And having given birth, she suffered evil. But neither does the coupler appear, and the little camel was taken up. Therefore, why did not your prophet, to whom, as you say, God has spoken, learn about the camel: where she pastures, and if any drank milk (?) by milking this one? Or was she not at

some time, like her mother having met evil men, destroyed? Or did she enter into Paradise, your forerunner, from whom is your river which you foolishly say is of milk? For you say three rivers are to flow for you in Paradise: of water, wine, and milk. If your forerunner camel is outside of Paradise, it is obvious that she has dried up from hunger and thirst, or that others are enjoying her milk. And your prophet is boasting foolishly as having spoken with God, for the mystery of the camel was not revealed to him. And if she is in Paradise, she again drinks the water, and waterless, you will dry up in the midst of the delights of Paradise. But if you desire wine from the river flowing by, since there is no flowing water, for the camel drank it all, you will be inflamed (?) drinking unmixed wine, and collapse (?) in drunkenness, and fall asleep. And also, being heavy-headed after sleep, and having a headache from the wine, you will forget the pleasures of Paradise. Therefore, why did your prophet not think of these things that might happen to you in the Paradise of delights? Nor did he consider about the camel, where she now lives. But neither did you ask him, as the dream-teller was telling you about the three rivers. But we tell you definitely, your wonderful camel has run ahead of you into the souls of donkeys, where you are soon to live like animals. And in that place is the outer darkness, and endless punishment, the roaring fire, the unsleeping worm, and demons of Tartarus.

Mamed speaks again (in) the writing of The Table. And he says that Christ asked God for a table, and he gave it to him. For God, he says,

said to him that “I have given to you and to yours an incorruptible table.”

Again, the writing of The Cow, and some other foolish sayings worthy of laughter, I think I should skip because of their number. He legislated that they be circumcised, including the women, and also commanded not to keep the Sabbath, nor to be baptized, and to eat some of the things forbidden in the Law, and to avoid (some of) those it permitted. And he entirely forbade the drinking of wine".

مستغربون قدماء

فى هذا الفصل نبين أن الاستغراب موجود منذ وقت جد مبكر من تاريخ الإسلام، وإن لم يعرف ممارسوه أنهم يمارسون لونا مميزا من الكتابة أو يستخدوا مصطلحات خاصة به. وسوف نتناول هنا بالحديث عددا من الأشخاص يمكن بكل قوة وصفهم بأنهم مستغربون، إذ تحدثوا عن بعض الجوانب المتعلقة بحياة طوائف من الغربيين الذين احتكوا بهم وأبدوا رأيهم فى تلك الجوانب وفى أصحابها . ولعلنا لا نخطئ حين نتذكر فى هذا السياق ما حكاه أبو سفيان بن حرب عن مجلس عقده هرقل إمبراطور الروم للتشاور مع كبار رجال دولته من الساسة ورجال الدين فيما ينبغى اتخاذه من إجراءات ردا على رسالة النبى محمد إليه التى دعاه فيها إلى الدخول فى الإسلام. لقد عقد هرقل مجلسا للتشاور ولم يشأ أن يتخذ قرارا وحده فى مسألة كهذه. وفى هذا بيان للطريقة التى يدير بها هرقل شؤون دولته. ولا نريد أن نقول إن حكام الغرب فى ذلك الوقت كانوا يحكمون شعوبهم بالشورى كما هو حالهم الآن فى أوربا وأمريكا وأستراليا بوجه عام: فنحن إنما نتكلم عن دولة الروم فقط لا كل الدول الأوربية. كما أننا لا ندرى أكان هرقل يتبع هذا النظام الشورى فى كل أمور السياسة أم فى هذا الأمر وأمثاله فقط. كما تعطينا الحكاية فكرة عن دهاء هرقل، إذ من الواضح أنه كان يؤثر أن يُسْلِم هو ورجاله، لكنه حين رآهم ينخرون ويحاولون الخروج من المجلس أخذ الطريق عليهم وأوهمهم أنه إنما كان يريد أن يعجم عودهم ويعرف ما انطوت عليه

نياتهم، وأنه الآن، وقد اطمأن إلى شدة إخلاصهم لدينهم وحرارة إخلاصهم له، يستطيع أن يعيش خالى البال من هذه الناحية.

كذلك تعطينا الحكاية فكرة عن انشغال الدول المحيطة ببلاد العرب بالدين الجديد ورغبةِ أكبرِ قوةٍ ضاربةٍ فى العالم أوانذاك فى التوصل إلى قرار سليم فى هذا الموضوع. وبالمثل تعرّفنا الحكاية بالأسلوب الذى اتبعه هرقل فى استطلاع آراء رجال الدولة، ورد فعل القوم آنئذ، والكيفية التى استطاع بها السيطرة على الموقف فلم يفلت الزمام منه. وقبل ذلك هناك الأسلوب الذى اتبعه هرقل الداهية للتحقق من صدق كلام أبى سفيان، والذى باغته به فلم يعطه هو ورفاقه القرشيين فرصة للاستعداد له والالتفاف حوله.

تقول الرواية على لسان أبى سفيان: "انْطَلَقْتُ فى المُدَّةِ الَّتى كَانَتْ بَيْنِى وبَيْنَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا بالشَّامِ إذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنَ النبى صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى هِرَقْلَ، قَالَ: وكانَ دحْيَةُ الكَلْبى جَاءَ به فَدَفَعَهُ إلى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إلى هِرَقْلَ، قَالَ: فَقَالَ هِرَقْلُ: هلْ هَا هُنَا أحَدٌ مِن قَوْمِ هذا الرَّجُلِ الذى يَزْعُمُ أَنَّه نَبى؟ فَقالوا: نَعَمْ. قَالَ: فَدُعِيتُ فى نَفَرٍ مِن قُرَيْشٍ، فَدَخَلْنَا على هِرَقْلَ فَأُجْلِسْنَا بيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِن هذا الرَّجُلِ الذى يَزْعُمُ أَنَّه نَبى؟ فَقَالَ أبو سُفْيَانَ: فَقُلتُ: أَنَا. فأَجْلَسُونِى بيْنَ يَدَيْهِ، وأَجْلَسُوا أصْحَابِى خَلْفِى، ثُمَّ دَعَا بتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ: قُلْ لهمْ إنِّى سَائِلٌ هذا عن هذا الرَّجُلِ الذى يَزْعُمُ أَنَّه نَبى، فإنْ كَذَبَنِى

فَكَذِّبُوهُ. قَالَ أبو سُفْيَانَ: وأيمُ اللَّهِ لَوْلا أنْ يُؤْثِرُوا عَلَى الكَذِبَ لَكَذَبْتُ. ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُ: كيفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلتُ: هو فِينَا ذُو حَسَبٍ. قَالَ: فَهلْ كانَ مِن آبَائِهِ مَلِكٌ؟ قَالَ: قُلتُ: لا. قَالَ: فَهل كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ ما قَالَ؟ قُلتُ: لا. قَالَ: أيَتَّبِعُهُ أشْرَافُ النَّاسِ أمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ: قُلتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: يَزِيدُونَ أوْ يَنْقُصُونَ؟ قَالَ: قُلتُ: لا بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: هل يَرْتَدُّ أحَدٌ منهمْ عن دِينِهِ بَعْدَ أنْ يَدْخُلَ فيه سَخْطَةً له؟ قَالَ: قُلتُ: لا. قَالَ: فَهلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالَ: قُلتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكيفَ كانَ قِتَالُكُمْ إيَّاهُ؟ قَالَ: قُلتُ: تَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَنَا وبَيْنَهُ سِجَالا يُصِيبُ مِنَّا ونُصِيبُ منه. قَالَ: فَهلْ يَغْدِرُ؟ قَالَ: قُلتُ: لا، ونَحْنُ منه فى هذِهِ المُدَّةِ لا نَدْرِى ما هو صَانِعٌ فِيهَا. قَالَ: واللَّهِ ما أمْكَنَنِى مِن كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شيئًا غيرَ هذِهِ. قَالَ: فَهلْ قَالَ هذا القَوْلَ أحَدٌ قَبْلَهُ؟ قُلتُ: لا.

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ له: إنّى سَأَلْتُكَ عن حَسَبِهِ فِيكُمْ، فَزَعَمْتَ أنَّه فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ. وكَذلكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فى أحْسَابِ قَوْمِهَا. وسَأَلْتُكَ: هلْ كانَ فى آبَائِهِ مَلِكٌ؟ فَزَعَمْتَ أنْ: لا، فَقُلتُ: لو كانَ مِن آبَائِهِ مَلِكٌ قُلتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ. وسَأَلْتُكَ عن أتْبَاعِهِ: أضُعَفَاؤُهُمْ أمْ أشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. وهُمْ أتْبَاعُ الرُّسُلِ. وسَأَلْتُكَ: هلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ ما قَالَ؟ فَزَعَمْتَ أنْ: لا. فَعَرَفْتُ أنَّه لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ علَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ علَى اللَّهِ. وسَأَلْتُكَ: هلْ يَرْتَدُّ أحَدٌ منهمْ عن دِينِهِ بَعْدَ أنْ يَدْخُلَ فيه سَخْطَةً له؟ فَزَعَمْتَ أنْ: لا. وكَذلكَ الإيمَانُ إذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ

القُلُوب. وسَأَلْتُكَ هل يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ. وكَذلكَ الإِيمَانُ حتَّى يَتِمَّ. وسَأَلْتُكَ: هل قَاتَلْتُمُوهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ، فَتَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُ سِجَالا يَنَالُ مِنكُم، وتَنَالُونَ منه. وكَذلكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لهمُ العَاقِبَةُ. وسَأَلْتُكَ: هلْ يَغْدِرُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّه لا يَغْدِرُ. وكَذلكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ. وسَأَلْتُكَ: هلْ قَالَ أَحَدٌ هذا القَوْلَ قَبْلَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ: لا. فَقُلْتُ: لو كانَ قَالَ هذا القَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ قُلتُ: رَجُلٌ ائْتَمَّ بقَوْلٍ قيلَ قَبْلَهُ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ: قُلتُ: يَأْمُرُنَا بالصَّلاةِ والزَّكَاةِ والصِّلَةِ والعَفَافِ. قَالَ: إِنْ يَكُ ما تَقُولُ فيه حَقًّا فإِنَّه نَبِى. وقدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّه خَارِجٌ، ولَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنكُمْ. ولو أَنِّى أَعْلَمُ أَنِّى أَخْلُصُ إِلَيْهِ لاحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، ولو كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عن قَدَمَيْهِ، ولَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ ما تَحْتَ قَدَمَى.

قَالَ: ثُمَّ دَعَا بكِتَابِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقَرَأَهُ: فَإِذَا فيه "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِن مُحَمَّدٍ رَسولِ اللَّهِ إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ. سَلامٌ علَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى. أَمَّا بَعْدُ فإِنِّى أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ. أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ. فإِنْ تَوَلَّيْتَ فإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ. و"يا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ، أَنْ لا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ. . . إلى قَوْلِهِ: اشْهَدُوا بأَنَّا مُسْلِمُونَ". فَلَمَّا فَرَغَ مِن قِرَاءَةِ الكِتَابِ ارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ عِنْدَهُ وكَثُرَ اللَّغَطُ، وأُمِرَ بنَا فَأُخْرِجْنَا. قَالَ: فَقُلْتُ لأَصْحَابِى حِينَ خَرَجْنَا: "لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِى كَبْشَةَ. إِنَّه لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِى الأَصْفَرِ". فَما زِلْتُ مُوقِنًا بأَمْرِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَنَّه سَيَظْهَرُ حتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَى الإِسْلامَ.

قَالَ الزُّهْرِى: فَدَعَا هِرَقْلُ عُظَمَاءَ الرُّومِ فَجَمعهُمْ فى دَارٍ له، فَقَالَ: يا مَعْشَرَ الرُّومِ، هلْ لَكُمْ فى الفلاحِ والرَّشَدِ آخِرَ الأبدِ وأَنْ يَثْبُتَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ؟ قَالَ: فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأبوَابِ، فَوَجَدُوهَا قدْ غُلِّقَتْ. فَقَالَ: "عَلَى بهِمْ". فَدَعَا بهِمْ فَقَالَ: إنّى إنَّما اخْتَبَرْتُ شِدَّتَكُمْ علَى دِينِكُمْ، فقَدْ رَأَيتُ مِنْكُمُ الذى أَحْبَبْتُ. فَسَجَدُوا له ورَضُوا عنْه".

* * *

ومما يدخل فى باب الاستغراب أيضا تلك القصة التى تتحدث عن سفارة الشاعر الأندلسى يحيى الغزال لبلاد المجوس فى القرن الثالث الهجرى فى عهد الخليفة الأموى عبد الرحمن الأوسط. وهذه هى القصة كما وردت فى ترجمة الغزال فى كتاب "المطرب من أشعار أهل المغرب" لابن دحية الكلبى: "وَفَدَ على السّلطان عبد الرحمن رُسُلُ مَلكِ المجوس تطلبُ الصلح بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعِهم بجهاتها ثم هزيمَتِهم بها وقَتْل قائد الأسطول فيها، ورأى أن يراجعهم بقبول ذلك، فأمر الغَزَالَ أن يمشى فى رسالته مع رُسُل مَلِكهم لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر وبديهة الرأى وحسن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب، وصُحْبَته يحيى بن حبيب، فنهض إلى مدينة شلب، وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة، ورُوجِعَ ملك المجوس على رسالته وكُوفِئَ على هديته، ومشى رسول ملكهم فى مركبهم الذى جاؤوا فيه مع مركب الغزال، فلما حاذَوُا الطرف الأعظم الداخل فى البحر الذى هو حد الأندلس فى آخر الغرب، وهو الجبل المعروف بـ"ألوية"

هاج عليهم البحر، وعصفت بهم ريح شديدة، وحصلوا فى الحد الذى وصفه الغزال فى قوله:

قـــال لى يحيـــى، وصِـــرْ نـــا بَـــين مـــوج كالجبـــالِ
وتولَّتنـــــا ريـــــاحٌ مـــن دُبُـــور وشَـــمالِ
شَـــقَّت القِلْعَـــين وانـــْ ـــبَتَّتْ عُـــرَا تِلـــك الحِبـــالِ
وتَمطَّـــى مَلَـــكُ المـــو ت إلينـــا عـــن حِيَـــالِ
فرأينـــا المـــوت رأىَ العيـــ ـــن حـــالا بعـــد حـــالِ
لم يكـــن للقـــومِ فينـــا يـــا رفِيقِـــى رأسُ مـــالِ

وهذا القصيد يحول عليه رونق الانطباع، وهو القريب غير المستطاع. ورأيت له فى الغزل من هذا القصيد معنى انفرد باختراعه، وأبدع ما شاء فى إبداعه، وهو قوله:

وسُـــلَيْمَى ذاتُ زُهْـــدٍ فـــى زَهِيـــدٍ مـــن وِصَـــالِ
كلَّمـــا قُلْـــتُ: صِـــلِينِي حَاسَـــبْتِنِى بالخَيَـــالِ

وهذا اختراع عجيب، ومعنى غريب. وزاد فيه بعد ذلك فقال:

والكَـــرَى قـــد مُنِعَتْـــهُ مُقْلَتَـــى أُخْـــرى اللَّيَـــالي
وهـــى أدرى، فَلِمَـــاذا دَافعَتْنِـــى بِمُحَـــالِ؟
أتُرَانـــى أقتـــضيها بعـــدُ شـــيئًا مـــن نَـــوالِ؟

ثم إن الغزال سَلِمَ من هول تلك البحار، وركوب الأخطار ووصل أول بلاد المجوس إلى جزيرة من جزائرها، فأقاموا فيها أيامًا وأصلحوا مراكبهم،

وأَجَمُّوا أنفسهم. وتقدم مركب المجوس إلى ملكهم، فأعلمه بلحاق الرسل معهم، فسُرَّ بذلك ووجه فيهم، فمشَوْا إليه إلى مستقر ملكه، وهى جزيرة عظيمة فى البحر المحيط فيها مياه مطردة وجنات، وبينها وبين البر ثلاث مجار، وهى ثلاثمائة ميل، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم. وتقرُب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار، أهلها كلهم مجوس، وما يليهم من البر أيضا لهم مسيرة أيام، وهم مجوس. وهم اليوم على دين النصرانية، وقد تركوا عبادة النار، ودينهم الذى كانوا عليه، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم فى البحر هم على دينهم الأول من عبادة النار ونكاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشنار. وهؤلاء يقاتلونهم ويَسْبُونهم.

فأمر لهم الملك بمنزل حسن من منازلهم، وأخرج إليهم من يلقاهم، واحتفل المجوس لرؤيتهم، فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم. ثم إنهم أُنزِلوا فى كرامة، وأقاموا يومهم ذلك، واستدعاهم بعد يومين إلى رؤيته، فاشترط الغزال عليه ألا يسجد له ولا يخرجهما عن شىء من سُنَّتِهما، فأجابهما إلى ذلك. فلما مشيا إليه قعد لهما فى أحسن هيئة، وأمر بالمدخل الذى يُفْضِى إليه، فضُيِّق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعًا. فلما وصل إليه جلس إلى الأرض وقدم رجليه وزحف على أَلْيَتِه زحفةً، فلما جاز الباب استوى واقفًا، والملك قد أعد له وأحفل فى السلاح والزينة الكاملة. فما هاله ذلك ولا ذعره، بل قام ماثلا بين يديه فقال: السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك، والتحية الكريمة لك، ولا زلت تمتع بالعز والبقاء والكرامة

الماضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة المتصلة بالدوام فى جوار الحى القيوم، الذى كل شىء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه المرجع. ففسر له الترجمان ما قاله، فأعظم الكلام، وقال: هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دُهَاتهم. وعجب من جلوسه إلى الأرض وتقديمه رجليه فى الدخول، وقال: أردنا أن نُذِلَّه، فقابل وجوهَنا بنعليه! ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه.

ثم دفع إليه كتاب السلطان عبد الرحمن، وقرئ عليه الكتاب وفُسّر له. فاستحسنه وأخذه فى يده فرفعه ثم وضعه فى حجره، وأمر بالهدية ففُتِحَت عِيَابُها، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأوانى، فأعجب بها، وأمر بهم فانصرفوا إلى منزلهم ووسَّع الجراية عليهم. وللغزال معهم مجالس مذكورة، ومقاوم مشهورة: فى بعضها جادل علماءهم فبكَّتهم، وفى بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم.

ولما سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وَجَّهَتْ فيه لتراه، فلما دخل عليها سَلَّم، ثم شَخَص فيها طويلا ينظرها نظر المتعجب. فقالت لترجمانها: سَلْهُ عن إدمان نظره: لماذا هو؟ أَلِفَرْط استحسان أم لضد ذلك؟ فقال: ما هو إلا أنى لم أتوهم أن فى العالم منظرًا مثل هذا. وقد رأيت عند ملكنا نساء انتُخِبْن له من جميع الأمم، فلم أر فيهن حسنًا يشبه هذا. فقالت لترجمانها: سَلْهُ: أمُجِدٌّ هو أم هازل؟ فقال: لا، بل مجد. فقالت له: فليس فى بلدهم إذن جمال! فقال الغزال: فاعرضوا على من نسائكم حتى أقيسها بها. فوجهت الملكة فى نساء معلومات بالجمال فحضرن، فصَعَّد فيهن وصَوَّب ثم

قال: فيهن جمال، وليس كجمال الملكة لأن الحسن الذى لها والصفات المناسبة ليس يميزه كل أحد، وإنما يعنى به الشعراء. وإن أحبت الملكة أن أصف حسنها وحَسَبها وعقلها فى شعر يُرْوَى فى جميع بلادنا فعلتُ ذلك. فسُرَّت بذلك سرورًا عظيمًا وزُهِيَتْ، وأمرت له بصلة، فامتنع من أخذها الغزال وقال: لا أفعل. فقالت للترجمان: سله: لم لا يقبل صلتى؟ ألأنه حَقَرَها أم لأنه حقرنى؟ فسأله، فقال الغزال: إن صلتها لجزيلة، وإن الأخذ منها لشرف لأنها ملكة بنت ملك. ولكن كفانى من الصلة نظرى إليها وإقبالها على، فحسبى ذلك صلة. وإنما أريد أن تصلنى بالوصول إليها أبدًا. فلما فسر لها الترجمان كلامه زادت منه سرورا وعجبا، وقالت: تُحْمَل صلته إليه، ومتى أحب أن يأتينى زائرا فلا يحجب، وله عندى من الكرامة والرحب والسعة. فشكرها الغزال، ودعا لها وانصرف.

قال تمام بن علقمة: سمعت الغزال يحدث بهذا الحديث، فقلت له: وكان لها من الجمال فى نفسها بعض هذه المنزلة التى صَوَّرْتَ؟ فقال: وأبيك لقد كانت فيها حلاوة، ولكنى اجتلبتُ بهذا القول محبتها، ونلتُ منها فوق ما أردت.

قال تمام بن علقمة: وأخبرنى أحد أصحابه قال: أُولِعَتْ زوجة ملك المجوس بالغزال فكانت لا تصبر عنه يوما حتى تُوَجّه فيه، ويقيم عندها يحدثها بسِيَر المسلمين وأخبارهم وبلادهم، وبمن يجاورهم من الأمم. فقلما انصرف يوما قط من عندها إلا أتبعته هديةً تُلْطِفه بها من ثياب أو طعام أو طِيب،

حتى شاع خبرها معه، وأنكره أصحابه، وحُذِّرَ منه الغزال، فحَذِرَ وأَغَبَّ زيارتَها . فباحثته عن ذلك، فقال لها ما حذر منه. فضحكت، وقالت له: ليس فى ديننا نحن هذا ولا عندنا غيرة، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن: تقيم المرأة معه ما أحبت، وتفارقه إذا كرهت. وأما عادة المجوس قبل أن يصل إليهم دين رومة فألا يمتنع أحد من النساء على أحد من الرجال، إلا أن يصحب الشريفة الوضيع، فتُعَيَّر بذلك، ويحجر عليها أهلها . فلما سمع ذلك الغزال من قولها أنس إليه وعاد إلى استرساله.

قال تمام: كان الغزال فى اكتهاله وسيما، وكان فى صباه جميلا، ولذلك سمى بـ"الغزال" . ومشى إلى بلاد المجوس، وهو قد شارف الخمسين، وقد وَخَطَه الشيب، ولكنه كان مجتمعَ الأَشُدّ، ضَرْبَ الجسم، حسن الصورة. فسألته يوما زوجة الملك، واسمها نود، عن سنه، فقال مداعبا لها: عشرون سنة. فقالت للترجمان: ومن هو من عشرين سنة يكون بها هذا الشيب؟ فقال للترجمان: وما تنكر من هذا؟ ألم تر قط مهرًا ينتج وهو أشهب؟ فضحكت نود، وأعجبت بقوله. فقال فى ذلك الغزال بَدِيهًا:

كُلِّفْتَ يا قلبى هوًى مُتْعِبا ... غالبتَ منه الضَّيغَم الأَغْلَبا
إنّى تعلّقتُ مجُوسيَّةً ... تَأْبَى لِشمس الحُسْن أن تَغْرُبا
أقصى بلاد الله لى حيثُ لا ... يَلْقَى إليها ذاهبٌ مذهبا
يا نُود يا رُودَ الشَّباب التى ... تُطْلِعُ من أزْرارها الكوكبا
يا بِأَبِى الشخصُ الذى لا أرى ... أحْلى على قلبى ولا أعْذَبا

إن قلـــتُ يومـــا : إنّ عينـــى رأت مُـــشْبِهَه لم أعْـــدُ أن أكـــذبا
قالـــت: أرَى فَوْدَيْـــة قـــد نَـــوّرا دُعابـــةً تُوجـــب أن أدْعيـــا
قلـــت لهـــا : يـــا بِـــأَبِى إنَّـــه قـــد يُنْـــتَجُ المُهْـــرُ كَـــذَا أشْـــهَبا
فاستـــضحكَتْ عُجْبًـــا بقـــولى لهـــا وإنَّمـــا قُلْـــتُ لكـــى تَعْجَبـــا

. . . ولما أنشد نودَ الشعرَ وفسره الترجمان لها ضحكت منه وأمرته بالخضاب، ففعل ذلك الغزال. وغدا عليها يومًا ثانيا، وقد اختضب، فمدحت خضابه وحسَّنته عنده، ففى ذلك يقول الغزال:

بكَرَتْ تُحَسِّنُ لى سَوادَ خِضَابي فكأنّ ذاك أعادنى لشَبابِي
ما الشَّيبُ عندِى والخضابُ لواصفٍ إلاّ كَشَمْسٍ جُلِّلت بضَبابِ
تَخْفَى قليلا ثم يَقْشَعها الصَّبا فيصيرُ ما سُتِرَتْ به لذَهابِ
لا تُنْكِرى وضَح المشيب، فإنّما هو زَهْرَةُ الأفهام والألْبابِ
فلدى ما تَهْوَيْن من شأن الصّبا وطلاوة الأخلاق والآدابِ

ثم انفصل الغزال عنهم، وصحبه الرسل إلى شنت يعقوب بكتاب ملك المجوس إلى صاحبها . فأقام عنده مكرما شهرين حتى انقضى حجهم، فصدر إلى قشتالة مع الصادرين، ومنها خرج إلى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبد الرحمن بعد انقضاء عشرين شهرا" .

وفى هذه الحكاية نرى الغزال يشير إلى طائفة من العادات الغريبة التى لا تختلف كثيرا عما هو معروف عن الغربيين الآن رغم أن ذلك البلد آنذاك كان قريب عهد بالوثنية والتخلف. ومع هذا نلاحظ عليهم قلة غيرتهم على

نسائهم، واختلاط نسائهن بالرجال بحرية تامة، وسهولة دخول الرجال عليهن، وتقبلهن قصائد الغزل فيهن دون أدنى تحرج بل بابتهاج وسرور. كذلك تصور الرواية حرصَ الملك الدانماركى على أن يدخل الشاعر المسلم عليه منحينا حتى يبتهج بعلوّ كعبه على أحد المسلمين، وذكاءَ الشاعر المتوقد الذى سول له أن يدخل على الملك على نحو معاكس تماما لما كان يريد، إذ بدلا من الدخول عليه راكعا كما دبَّر دخل وهو ممدد رجليه بالحذاء فى وجهه. ولولا أن الدنمارك كانت تريد التودد إلى الخليفة الأندلسى حتى تمحو آثار جريمتها من نفوس المسلمين لنَكَّل الملك بالغزال كما ألمح هو نفسه إلى ذلك، وإن أرجع الموقف إلى أن الرسل لا تؤذَى، ولا أظن هذا هو السبب الحقيقى. وأمر ثالث هو أن الدانمارك كانت فى ذلك الحين قريبة عهد بالنصرانية، وكانت الوثنية لا تزال موجودة بها. لكن هل كانت وثنيتها مجوسية فارسية انتقتل إليها بطريقة ما؟ أم ترى وثنيتها شابهت على سبيل المصادفة وثنية المجوس الفرس ليس إلا؟

ولسهر العامرى مقال عن هذا الموضوع عنوانه "رحلة الغزال الى الدنمارك" منشور بموقع "الحوار المتمدن" بتاريخ ٧ نوفمبر ٢٠٠٧م نقتطف منه الفقرات التالية، وفيها يحقق الكاتب اسم ذلك البلد الذى زاره الغزال ويحاول البحث عن حقيقة ديانته، ويفند أقاويل بعض المستشرقين الذين شككوا فى وقوع الرحلة. قال: "لم يكن هناك بلد بهذا الاسم (يقصد اسم "الدانمارك") وقت أن رحل الشاعر يحيى بن الحكم فى سفارته الى ملكٍ عُرِف، فيما بعد،

أنه ملك الدنمارك، تلك الدولة التى أخذت اسمها من اسم قبيلة جرمانية تدعى: دانر (Daner)، هذا الاسم الذى ظهر للمرة الأولى فى القرن الخامس الميلادى، أى قبل ظهور ما عرف بـ"عصر القراصنة" (Vikingarna) بجوالَى قرنين من الزمان، أولئك القراصنة الذين حط الشاعر يحيى بن حكم الغزال رحاله عند ملكهم هوريك (Hårek) فى مدينة تدعى: هيدابى (Hedeby)، وتقع فى جنوب أكبر جزر الدنمارك الحالية، التى كانت تسمى وقتها بـ"Jutland"، ثم تحول الاسم إلى "Jylland" فيما بعد. وهى الجزيرة التى ترتبط فى حدودها الجنوبية بالأراضى الألمانية. وهذا الارتباط هو الذى يجمع الدنمارك بالقارة الأوربية. والمدينة تلك دَثَرَتْ بُعَيْد سنة ١٠٥٠م نتيجة لحريقٍ ثان قامت به القبائل السلافية الغربية المعروفة باسم "venderna"، وهذا هو الحريق الثانى الذى حدث بعد سنة من الحريق الأول الذى نشب نتيجة للمعارك التى دارت بين الدنماركين والنرويجيين. . .

إلى هذه المدينة التى لم يتبق منها اليوم سوى سور من حجرٍ مَرَّ على بنائه أكثر من ألف سنة خَلَتْ رَحَلَ شاعرُنا يحيى بن حكم البكرى الجيانى الأندلسى المعروف بـ"الغزال"، والذى شغل. . . الكثير من مؤرخى الأدب على مدى سنوات طويلة، سواء أكان هؤلاء المؤرخون من العرب أم من الأوربيين. ويعود السبب فى ذلك الى اختلافهم المتصل على نقاط مهمة فى حياة الشاعر العملية الطويلة، وليس فى نشاطه الأدبى كشاعر. . . هذا فى

الوقت الذى تكاد تُجْمِع أغلب الروايات على أن الشاعر الغزال قد رحل فى سفارة من قِبَل الأمير عبد الرحمن الثانى إلى ملك الدنمارك المدعو: هوريك (Hårek) سنة ٢٣٠هـ مثلما تجمع على أن وفاته كانت فى سنة ٢٥٠هـ. وعلى هذا ستكون سنة ولادة الشاعر بعد أن نطرح التسع والسبعين سنة من تاريخ سنة وفاته هى ١٧١هـ بدلا من سنة ١٥٦هـ... وكان عمر الشاعر، حين رحل فى سفارته إلى الدنمارك، تسعا وخمسين سنة. وذلك لأنه رحل إلى تلك الدولة سنة ٢٣٠هـ بإجماع الكثير من المصادر مثلما أسلفت...

ولكن ستيك ويكاندر يعود ثانية ليؤكد على أن معلومات كثيرة فى حكاية العلقمى عن الشاعر الغزال، والتى نقلها ابن دحية فى كتابه: "المطرب من أشعار أهل المغرب"، هى معلومات حقيقية مثل تلك المعلومة التى ترى أن العديد من سكان دول الشمال الإسكندنافية كانوا مسيحيين لكن لا زالت الوثنية تعيش فى الجزر المحيطة بهم. وهذا يتطابق جدا مع ما هو معروف عن الوضع فى الدنمارك والنرويج فى حوالى سنة ٨٤٥م/ ٢٣٠هـ، وهى السنة التى رحل فيها الشاعر يحيى بن حكم الغزال إلى الدنمارك فى سفارة إلى ملك القراصنة من قِبَل الأمير عبد الرحمن الثانى، وبناء على طلب الملك ذاك، وغِبَّ الهجوم الفاشل الذى شنه أسطول تابع للقراصنة على بعض المدن الأندلسية، وخاصة مدينة أشبيلية. وكان هذا الهجوم قد وقع قبل سنة من تاريخ رحلة السفارة تلك...

لقد ذكر ابن دحية أن السفارة الأندلسية، ومنذ اللحظة التى تركت بها الأندلس وحتى عودتها إلى قرطبة، استغرقت عشرين شهرا، وفى طريق العودة تأخرت شهرين فى Santiago de Compostela. وعليه تكون قد أمضت حوالى سنة واحدة مع القراصنة، واستطاعت الوصول إلى قرطبة فى حوالى صفر ٢٣٢هـ/ سبتمبر ٨٤٦م. . . فإن الرحالة العرب، ومنهم الشاعر الغزال، قد أطلقوا تسمية "المجوس" على قراصنة الغرب. ولقد استخدم الشاعر هذا اللفظ فى قصيدته التى تغزل بها بملكة الدنمارك بعد أن تعلق بها مثلما مر علينا ذلك من قبل، فقال:

كُلِّفْتَ يا قلبى هوًى مُتْعِبا ... غالبتَ منه الضَّيغَمَ الأغْلَبَا

إنّى تعلّقتُ مجُوسيَّةً ... تأبَى لِشمس الحُسْن أن تَغْرُبا

أقصى بلاد الله لى حيثُ لا ... يَلْقَى إليها ذاهبٌ مذهبا

يا نُود يا رُودَ الشَّباب التى ... تُطْلِعُ من أزْرارها الكوكبا

يا بأبى الشخصُ الذى لا أرى ... أحْلى على قلبى ولا أعْذَبا

إن قلتُ يوما: إنّ عينى رأت ... مُشْبِهَه لم أعْدُ أن أكذبا

قالت: أرَى فَوْدَيْة قد نَوّرا ... دُعابةً تُوجِب أن أدْعيا

قلت لها: يا بأبى إنَّه ... قد يُنْتَجُ المهر كَذَا أشْهَبا

فاستضحكَتْ عُجْبًا بقولى لها ... وإنَّما قُلْتُ لكى تَعْجَبا

. . . ويبدو أن زمن هذه السفارة، والمكان الذى انطلقت منه هذه الرحلة، والهجوم الذى شنه القراصنة سنة ٢٢٩هـ= ٨٤٤م على العديد من المدن الأندلسية هو بعض من أسباب مقنعة دفعت ببعض الباحثين الى القول من أن السفارة هذه كانت فى طريقها الى الدنمارك، وبالتحديد إلى جزيرة جيلاند (Jylland)، التى تعتبر من أكبر الجزر التى تقوم عليها الدولة الدنماركية الحالية، وإلى ملكها هوريك الأكبر (Hårek den gamle)، الذى كان هو الحاكم الفعلى لتلك لبلاد وقتها .

وعلى هذا تكون الملكة التى شغف بها الشاعر السفير يحيى بن حكم الغزال والتى قال فيها قصيدته الغزلية التى مرت علينا من قبل هى زوجة الملك هذا أو إحدى زوجاته والتى حملت هى اسم "نود" فى تلك القصيدة بينما ذكرت مصادر أخرى أن اسمها هو تود، وذلك لتصحيف وقع فى الاسم من قبل نساخ تلك القصيدة فيما بعد . . .

ويأتى بعد ذلك أخبار تلك السفارة التى نقلت عن صديق له هو تمام بن علقمة وما جاء فيها من وصف لجزيرة جيلاند (Jylland) الدنماركية ولحياة سكانها فى العيش والعبادة والعلاقة بين المرأة والرجل، هذا الوصف الذى نقله لنا صاحب "المطرب" حين كتب: "هى جزيرة عظيمة فى البحر المحيط فيها مياه مطردة وجنات، وبينها وبين البر ثلاثة مجار، وهى ثلاثمئة ميل، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم. وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار، وأهلها كلهم مجوس" . وعليه فإن الوصف الذى نقله لنا ابن

دحية فى "مُطْرِبه" لا يختلف كثيرا عن الطبيعة التى عليها الدنمارك اليوم. فهى دولة تقوم على شبه جزيرة هى (Jylland) وعلى ٤٤٣ جزيرة أخرى متناثرة. وعدد الجزر المسكونة منها هو ٧٧ جزيرة. كما أنه لا يختلف كثيرا عن ذاك الذى كتبه رحالة عرب آخرون عن القراصنة وأحوالهم من أمثال ابن فضلان، الذى سبق الغزال إليهم، ثم الرحالة العربى إبراهيم بن يعقوب الطرطوشى، الذى جاء بعده إلى مدينة هيدابى (Hedeby) . وبذا يكون إنكار ستيك ويكاندر (Stig Wikander) وغيره من الدارسين الغربيين لا يقوم على دليل واحد ملموس، وإنما هو راح يبحث فى اللاشىء ليخلق منه شيئا يوهم به القارئ الغربى، ولأسباب غير مفهومة المرامي. . .

ويجب أن يشار، فضلا عن ذلك، إلى مصدر خطإ من نوع خاص يتلازم مع استخدام لغوى معروف وفريد فى التاريخ الإسلامى، هناك حيث يطلق المرء على القراصنة (Vikingarna) كلمة "المجوس" (Magier) فى المغرب، بينما يطلق على الفرنجة (Väringarna) كلمة:"فرنجة" (Warang) أو "الروس" فى المشرق. فنحن نلاحظ، من خلال حكاية الغزال، أن المجوس هم أتباع دين وُجِد قبل الديانة المسيحية فى بلدان الشمال. وقد قال هو إن هذا الدين قام على عبادة النار، وكذلك الحق فى التزوج من الأمهات والأخوات، وبشاعات أخرى مثلها .

ويجب أن نؤكد على أننا لا نملك أن نتعامل هنا مع بعض معلومات ونتائج حقيقية من دراسات أدبية كهذه. ففى المغرب كان الاتصال بين سكان

الشمال والقراصنة يقوم تقريبا على تصادمات حربية قاسية فى تزامن مع هجمات لصوص البحار النورمانديين، ولكن فى المشرق تطور الحال نحو علاقات سلمية. ولذلك امتلك المرء فرصة كى يدرس النورمانديين بهدوء واطمئنان، واستطاع هناك أن يستخدم كذلك اسما يعود الى أصل نورماندى: فرنجة أو روس، بينما فى المغرب استمر تواجد لصوص البحار المجهولين والمخيفين. وبذا لم تتوفر فرصة ليرى الإنسان أقرب الأشياء إليه. وبتوافق مع هذا لم تستخدم هنا بعض المسميات النورماندية بدلا من مصطلح "مجوس" (Magier)، الذى يوجد حاليا فى القرآن حيث قصد بهؤلاء أتباع دين غريب ولكن محذور، ويعنى زرادشتية إيران حيث يكون "المجوسى" لقب قديم لكهنته. أما كيف فهم هذا المصطلح بعد ذلك فى المغرب العربى وأصبح يطلق على لصوص البحار من النورمانديين فهذا غير واضح تماما.

وحين قدَّم رحالة عربى وصفا أقرب للشعب المجهول فى الشمال تذكر فجأة معلومات الكتب المدرسية عن الزرادشتية هؤلاء الأتباع. ومثلما هو معروف، وقبل كل شىء، كانوا عبدة النار المقدسة المشتعلة أبدا، ولكنهم على عادة شاذة، ربما كانت محلية محدودة كثيرا، تخص الزواج من الأقرب وحتى ما بين الأخوين. وهذا ما التهمته نقاشات المسلمين مثل لقمة سائغة خاصة، فهم لم يتوانَوْا أبدا من اتهام المجوس بزواج المحرمات، هذه الجريمة الكبرى عند أتباع محمد. فالغزال والكثيرون معه نقلوا تصورا فارغا تماما عن زرادشتيين من الشعب النورماندى.

كان وقت الرحلة هو سنة ٨٤٥م، لكن أين اتجهت؟ وأى ملك التقاه سفيرنا الشاعر؟ هذا لم يقله هو مع الأسف. وحتى وصف الجزيرة الشمالية كان غير مجد، ويجعل هو من الصعب على المرء تحديد هويتها. وهنا يجب أن يشار الى أن جزيرة "Djezira" تلك الكلمة العربية... لها معنى واسع هو أنها أرض تحيط بها مياه كثيرة... ويجوز للمرء أن يبحث بين الحكام النورمانديين أو الدنماركيين. فالملك الأكبر هوريك (Hårek) ملك الدنمارك أرسل، كما هو معروف، وفدا كبيرا من القراصنة إلى غرب أوربا، وهو الملك الذى كان وراء هجوم القراصنة على أشبيليا سنة ٨٤٤ م كذلك".

وواضح أن الحكم الإسلامى فى الأندلس كان ذا شنَّة ورنَّة. صحيح أن هؤلاء المجوس المتوحشين قد هجموا على بعض أطراف البلاد، لكن هذا ديدن المتوحشين دائما، ولا يدل على قوة عسكرية أو مكانة سياسية راسخة. وعلى كل حال فقد انهزموا وعادوا من حيث أتوا بعدما تكبدوا خسائر جد فادحة، ثم لم يكتفوا بهذا بل سارعوا إلى استرضاء المسلمين واستسمحوا الخليفة أن يرسل إليهم وفدا يسوى الأمور بين الطرفين. وكان أن أرسل الخليفة إليهم، مع رسلهم الذين أتوا يستسمحونه، وفد يحيى الغزال، ذلك السياسى والشاعر الداهية الظريف الذى كان يتصرف بتلقائية وثقة كبيرة ساعده عليها وأملى له فيها ما كان عليه القوم من عادات وتقاليد لا ترى فى تقرب الآخرين من نسائهم، بما فيهن نساء الملك، أية معابة أو غضاضة.

كذلك لا يصح أن يفوتنا ما صنعه الغزال حين أراد الملك أن يدخل عليه منحنيا، فما كان من الشاعر الذكى إلا أن قلب المائدة عليه ودخل زاحفا يواجه الملك بجذائه. ولو لم يكن الغزال وافدا من لدن دولة قوية ذات بأس شديد ويُعْمَل لها ألف حساب فأغلب الظن أن المجوس لم يكونوا ليتورعوا عن إيذائه على هذا النحو أو ذاك، ولم يكونوا ليعدموا الحيلة، بل ما كان الغزالى ليجرؤ على أن يفكر فى ذلك أصلا ولا كان يدور فى ذهنه أن يتعامل مع الملكة بهذه الثقة التى رأيناها منه مهما حاولت هى من جانبها تجرئته على التقرب إليها والتغزل فيها.

* * *

والآن إلى رحلة أحمد بن فضلان الفقيه العباسى المسلم إلى بلاد الترك والروس والصقالبة. لقد رحل ابن فضلان فى القرن الرابع الهجرى إلى بلاد الترك والروس والصقالبة والخزر والبلاد الإسكندنافية ووصف تلك البلاد وشعوبها وأساليب حياتهم فى أمانة ودقة. وذكر المستشرق الألمانى فراهن فى تقديمه لكتاب ابن فضلان فى اللغة الألمانية أنه إذا كان الغرب قد أغفل روسيا فقد تحدث العرب عنها وسلطوا أضواء كثيرة عليها وعلى غيرها من البلاد المجاورة. وكان ملك البلغار ألمش بن يلطوار قد التمس من الخليفة إرسال بعثة دينية لتعليم أهل مملكته الإسلام وبناء بعض الجوامع للصلاة والعبادة، وكذلك إنشاء عدد من الحصون التى تحميهم من أعدائهم. وقد استجاب الخليفة المقتدر بالله، وسافر الوفد ومعهم رسول ملك

البلغـار وبعـض مـن يعـرف لغـة الأتـراك الغـز. واسـتغرق سـير الرحلـة بين بغداد والبلغار ١١شهرًا، وذلك فى عام ٣٠٩هـ.

ومما كتبه ابن فضلان فى وصف الأتراك الغزية البدوية التى مر بها فى رحلته: "لهم بيوت شعر، يحلون ويرتحلون، وترى منهم الأبيات فى كل مكان، ومثلها فى مكان آخر على عمل البادية وتنقلهم، وإذ هم فى شقاء. وهم مع ذلك كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين، ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئًا، بل يسمون كبراءهم: أربابًا... وأمرهم شورى بينهم، غير أنهم متى اتفقوا على شىء وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسهم فنقض ما قد أجمعوا عليه... وسمعتهم يقولون: "لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله" تقربًا بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين". وذكر أنهم لا يهتمون بستر عورة المرأة، إلا أنهم لا يعرفون الزنا، ومَنْ زنا منهم شقوه نصفين. وإذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوَّج الأكبرُ من أولاده بامرأته إذا لم تكن أمه. إلا أنهم لا يتسامحون فى أمر اللواط بل يقتلون من يمارسه. وإذا مرض الرجل منهم ضربوا له خيمة يبقى فيها منفردًا إلى أن يموت، وألبسوه ثيابه، وتركوا له ماله وأشياءه وإناء نبيذ. ومن عاداتهم أن الرجل لا ينزع عنه الثوب الذى يلى جسده حتى ينتثر قطعًا. ومن الأتراك قوم يقال لهم: "الباشغرد" وصفهم ابن فضلان بأنهم "شر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقدامًا على القتل"، وأنهم يأكلون القمل، ويعبدون أربابًا مختلفة. ومنهم من يزعم أن له اثنى عشر ربا: للشتاء رب، وللصيف رب،

وللمطر رب. . وهكذا، والرب الذى فى السماء أكبرهم، وأن منهم من يعبد الحيات أو السمك أو الكركى.

وبالنسبة إلى الصقالبة فملكهم هو ألمش بن يلطوار، وله مساعدون يدعوهم: "الملوك الأربعة" كانوا فى استقبال الوفد العباسى جميعا مع إخوة الملك وأولاده أيضا، يحملون الخبز واللحم والجاورس (نوع من الحبوب). وقد دعاهم الملك بعد مراسيم الاستقبال بساعة إلى الدخول عليه فى قبته، والملوك على يمينه، وأمرهم أن يجلسوا على يساره، بينما أولاده بين يديه. ثم أُعدَّت المائدة وعليها اللحم المشوى وحده، وبدأ الملك بالطعام، ولم يمد أحد غيره يده إلا بعد أن ناوله الملك لقمة جريا على عادتهم. وَلَمَّا أكلوا دعا الملك بشراب العسل وهم يسمونه: السجو، فشرب قدحًا نخبًا لخليفة بغداد، وهو يقوم قائلا: "هذا سرورى بمولاى أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه". وفعل ذلك ثلاث مرات.

ولاحظ ابن فضلان، فيما لاحظ، أن الملك إذا ركب ركب وحده، فإذا اجتاز السوق لم يبق أحد إلا قام وخلع قلنسوته ووضعها تحت إبطه، فإذا جاوزهم الملك ردوا قلانسهم إلى رؤوسهم. وبالمثل على كل من يدخل إلى الملك أن يضعها تحت إبطه، وكل من يجلس بين يديه يجلس باركًا. وكلهم يسكن القباب، وتَسَعُ قبةُ الملك أكثر من ألف شخص، وفى وسطها سرير مغشًّى بالديباج الرومى. وكان ملك الصقالبة يدفع ضريبة إلى ملك الخزر مقدارها جلد سمور عن كل بيت فى مملكته، ويرهن ابنه عنده. وكان ملك

الخزر قد تزوج ابنته غصبًا رغم أنه يهودى، وهى مسلمة. ومن جهة أخرى فإن ملك الصقالبة يأخذ العُشْر من كل سفينة تجارية تأتى من الخزر، وإذا قَدِم الروس أو غيرهم من سائر الأجناس برقيق فالملك يختار رأسًا من كل عشرة رؤوس.

والصقالبة يتبركون بعواء الكلاب جدا، ويتوقعون بناء عليه أن تكون السنة سنة خصب وبركة وسلامة. وإذا ولد لهم ولد أخذ الجدُّ المولودَ دون أبيه، ويظل فى حضانته حتى يصير رجلا. وإذا مات منهم رجل ورثه أخوه دون ولده. وإذا أصابت الصاعقة بيتا لم يقربوه تطيرًا منه، وتركوه بما فيه من أنفس ومال حتى يتلفه الزمان. وهم يعاقبون القاتل العمد بالقتل، أما القاتل بالخطإ فيضعونه داخل صندوق ويعلقونه حتى يبليه الزمان. واستهجن ابن فضلان نزول الرجال والنساء معا إلى النهر ليغتسلوا جميعًا عراة لا يستتر بعضهم من بعض، وحاول ثنيهم عن ذلك فلم ينجح. ومع هذا فهم بوجه عام لا يزنون، ومن زنا منهم ضربوا له أربع سكك وشدوا يديه ورجليه إليها، وقطعوه بالفأس من رقبته إلى فخذيه، ثم تُعلّق كل قطعة على شجرة، أيا كانت صفته أو طبقته أو جنسه.

ويحفر البلغار فى الأرض آبارًا يضعون فيها طعامهم، فلا تمضى أيام حتى يتغير طعمه ورائحته، وليس لهم زيت أو دهن سوى دهن السمك يعتمدونه فى أكلهم. وفى غياضهم عسل كثير، وعندهم تفاح أخضر شديد الخضرة وأشدّ حموضة من خلّ الخمر. وليس فى بلدهم أكثر من شجر البندق. كما يوجد

عندهم شجر مفرط الطول وله ساق جرداء يجيئون إلى موضع يعرفونه فى ساقه فيثقبونه، فيخرج منه ماء أطيب من العسل إذا أكثر منه المرء أسكره. واضطرب ابن فضلان لما رآه من تفاوت الليل والنهار عندهم واختلافهما عما اعتاده فى بلاده، والتبست لديه مواقيت الصلاة، إذ تظل الدنيا نهارا مدة من السنة ثم ينعكس الأمر. ورأى القمر لا يتوسط السماء، بل يطلع فى أرجائها ساعة، ثم يبزغ الفجر، فيغيب القمر.

وتحدث عن حيوان غريب هناك دون الجمل فى الحجم وفوق الثور، وله مثل أظلاف الثور، وفى وسط رأسه قرن واحد غليظ مستدير، وإذا رأى الفارسَ ظل يلاحقه حتى يقتله، ومن ثم فإنهم يصعدون إلى أعالى الشجر ليرموه بالسهام المسمومة لقتله. ولعل المقصود وحيد القرن. كما يتحدث على لسان أحد الرجال عن شعب من شعوب المنطقة يسمى: يأجوج ومأجوج. وهم عراة، ويعيشون كالبهائم يتناكحون دون قيود. وقد التبست عليه بعض الأمور المتعلقة بالشفق القطبى، إذ تخيّل أنه يرى أمثال الناس والدواب فى الجو، تأثرًا فيما يبدو ببعض المعتقدات المحلية.

وبالمثل تحدث ابن فضلان عن شعب ويسو، الذى يرى فراهن المستشرق الألمانى أنه شعب روسيا البيضاء قرب موسكو الحالية. ويذهب كثير من المستشرقين إلى أن ابن فضلان أطلق اسم "روسيا" على السكان الذين التقاهم فى بلاد الروس الحالية، إلا ان المخرج السينمائى الأمريكى كريكتون يذهب إلى أنه اسم قبيلة إسكندنافية، ومن ثم سماهم فى تحقيقه

لرسالة ابن فضلان بـ"النورديين". وقد وصفهم ابن فضلان قائلا: "لم أر أتم أبدانًا منهم كأنهم النخل، شُقْرٌ حُمْرٌ، مع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه، وسيوفهم صفائح مُشَطَّبَة إفرنجية. يلبس الرجل منهم كساء يستر به أحد طرفى جسمه، ويخرج إحدى يديه منه. والواحد منهم ينقش جسمه من ظُفْر رجله إلى رقبته بصور الشجر وغير ذلك، وتضع المرأة على ثدييها وعاء مشدودا من حديد أو فضة أو نحاس أو ذهب على قدر مال زوجها، وعلى عنقها أطواق من ذهب وفضة يرتبط عددها بحجم ثروة زوجها. وأَجَلُّ الحلى عندهم الخرز الأخضر من الخزف. كما عَرَّج على سلوكهم الجنسى فقال إنه قد يجتمع فى البيت الواحد عشرة أو عشرون شخصًا لكل واحد منهم سريره، ومعهم رفيقاتهم، فيعاشر كل منهم جاريته، ورفيقه ينظر إليه.

كما يصفهم بالقذارة التامة: "وهم أقذر خلق الله، لا يستنجون من غائط أو بول ولا يغتسلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة: يجيئون من بلدهم فيُرْسُون سفنهم بإتل، وهو نهر كبير، ويبنون على شطه بيوتًا كبارًا من الخشب... ولا بد لهم فى كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه. وذلك أن الجارية توافى كل يوم بالغداة، ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتدفعها إلى مولاها، فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط فى القصعة ثم يتمخط ويبصق فيها ولا يدع شيئًا من القذر إلا فعله فى ذلك الماء، فإذا فرغ مما يحتاج إليه

حملت الجارية القصعة إلى الذى إلى جانبه، ففعل مثل فعل صاحبه. ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من فى البيت، وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها".

أما فيما يتعلق بأمر الدين فإنهم، عندما يرسون بسفنهم على شاطئ نهر إتل، يخرجون ومع كل واحد منهم خبز ولحم وبصل ونبيذ، فيتجهون إلى خشبة منصوبة لها وجه إنسان، وحولها صور أصغر، وخلف تلك الخشبة خشبة طويلة أخرى مغروسة فى الأرض مقدسة عندهم، فيأتى تاجرهم إلى الصورة الكبيرة ويسجد مبتهلا إليها أن تسهّل له أمر بيعه، فيقول لها: "يا ربِّ، قد جئتُ من بلد بعيد، ومعى من الجوارى كذا وكذا رأسًا، ومن السمور كذا وكذا جلدًا... وجئتك بهذه الهدية"، ثم يترك هديته لها وينصرف. فإن تعذرت تجارته أعاد الطقس نفسه وقدَّم هدايا أخرى، فيعمد إلى ذبح بعض الغنم والبقر ويطرحها على الخشبة الكبيرة والخشبات الصغيرة حولها، فإذا أتت الكلاب عليها فى الليل قال: "قد رضى ربى عنى وأكل هديتى".

وهم يعاقبون السارق بنصبه على شجرة غليظة وشده من عنقه بحبل يعلقونه فيها حتى يتقطع بفعل الرياح والأمطار. وإذا مرض الواحد منهم نصبوا له خيمة، وتركوا معه خبزًا وماءً لا يقربونه ولا يكلمونه: فإذا برئ رجع إليهم، وإن مات أحرقوه، وإذا كان مملوكًا تركوه للكلاب وجوارح الطير. ويحتفظ ملك الروس بجواره دائمًا بأربعمائة من الرجال الصناديد الموثوق بهم، ومع كل واحد جارية تخدمه، وجارية أخرى يطؤها، يجلسون تحت سرير سيدهم المرصع

بنفيس الجواهر، ويجلس مع الملك على تخته أربعون جارية لفراشه. . . وهو لا ينزل عن سريره حتى إنه يقضى حاجته فى طشت يقدَّم إليه، وله خليفة يقود الجيش ويحارب الأعداء ويخلفه فى رعيته.

ومن عادتهم أن يضعوا الرجل الفقير حين يموت فى سفينة صغيرة ويحرقوها، وأما الغنى فيقسمون ثروته: فثلثها لأهله، وثلثها يخيطون له بها ثيابًا، وثلثها الأخير للنبيذ الذى يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتموت مع مولاها. وهم يحرقون موتاهم ويرون أن العرب حمقى لأنهم، كما يقولون، يعمدون إلى أحب الناس إليهم وأكرمهم عليهم فيطرحونه فى التراب، وتأكله الهوامّ والدود. أما هم فيحرقونه بالنار فى لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته.

فإذا انتقلنا إلى بلاد الخزر ألفينا ملكهم يسمى: الخاقان، ولا يظهر للرعية إلا كل أربعة أشهر، وله نائب اسمه خاقان به، يقود الجيوش ويدبر أمر المملكة، ويقدّم كل رسوم الطاعة للخاقان الأكبر فلا يدخل عليه إلا حافيًا وبيده حطب يوقده بين يديه، بعدها يجلس على يمين سريره، ويخلفه رجل يقال له: كندر خاقان، ويخلف الأخير رجل يقال له: جاوشيغر. وإذا مات الخاقان الأكبر بنيت له دار كبيرة فوق نهر، وجعلوا له قبرا فوق ذلك النهر أيضا حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام حسبما يقولون. وإذا دُفِن ضربوا أعناق الرجال الذين دفنوه حتى لا يعرف أحد مكان القبر. ولملك الخزر خمس

وعشرون امرأة من أبناء الملوك المجاورين، وإذا ركب ركب معه سائر الجيوش، ويكون بينه وبين المواكب ميل، ويخرُّ له ساجدًا كل من يصادفه فى طريقه.

ومدة ملكه أربعون سنة، فإذا تجاوز هذه المدة قتلوه على أساس أنه لن يظل محتفظا بسلامة عقله بعد ذلك. وإذا بعث الملك سرية لم تفرّ من الزحف بأية حال، فإذا انهزمت قُتِل كل من ولى فرارا. فأما إذا انهزم القواد فإن الملك يأتى بنسائهم وأولادهم ويهبهم إلى غيرهم، ومعهم دوابهم ومتاعهم وسلاحهم وبيوتهم، وربما علقهم من أعناقهم فى الشجر.

وتقع مدينة ملك الخزر على جانبى نهر إتل. وعلى أحد الجانبين يقطن المسلمون، وفى الجانب الآخر الملك وأصحابه، وعلى المسلمين رجل مسلم من رجال الملك يقضى فى أمورهم. وهناك أيضًا طوائف من النصارى والوثنيين. فالخزر مجتمع متعدد الأديان، وإن كان يهيمن عليه حكامٌ يهود.

ومما مر يتبين لنا أولا نظرة ابن فضلان لتلك الأقوام وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وسياساتهم وسلوكياتهم فى ضوء ما يدين به من الإسلام، فيعيب معظم ما رأى بل يأخذه الفزع والتقزز والاشمئزاز فى كثير من الأحيان، وله كل الحق، حتى ليصمهم بأنه لا فرق بينهم وبين البهائم. ولهذا مغزاه، فإن ابن فضلان كان ينتمى إلى حضارة جد راقية ويدين بالإسلام، ومن ثم لم يكن يعجبه معظم ما كانوا يفعلون، وإن لم يمنعه هذا من الثناء على حسناتهم القليلة.

ولو قارنا بين موقف ابن فضلان من هذه الشعوب بموقف مثقفينا المُحْدَثين من بلاد الغرب التى يزورونها كان الفرق شاسعا وساطعا . فمُحْدَثونا مبهورون بالغرب وما فيه من نظافة ونظام وتقدم علمى واختراعات واشتغال بالجد من الأمور وبجمال نسائه وبقوة اقتصاده وارتفاع مستوى معيشته وبجيوشه وصحفه ودور علمه ومكتباته واهتمامه رجالا ونساء بالقراءة. وهذا الموقف يعكس بطبيعة الحال مستوانا الحضارى فى كل من الزمنين: فأيامَ تقدمنا كنا ننتقد ونعيب ونقيس أمور الآخرين المتدنية إلى أحوالنا الراقية. أما فى العصر الحديث بعدما انقلبت الأمور وتدهدت أحوالنا وارتقت أحوال الغربيين فقد انعكس الأمر، وصرنا مبهورين بما نرى فى حياة أولئك الناس رغم معرفتنا بأن فيهم عيوبا شديدة، إذ إن ما يرفلون فيه من ألوان التحضر والرفاهية والنظام والجمال يغشّى على تلك العيوب إلى حد كبير ويدفع بها إلى الخلف لتتصدر المشهدَ جوانبُ التقدم والرخاء .

كذلك لا ينبغى أن ننسى الموقف السياسى لكل من الطرفين هنا: فملك البلغار يتودد إلى الخليفة العباسى وينبئه أنه قد دخل وشعبه فى الإسلام ويطلب منه أن يرفده بمن يعلمهم الدين الجديد، والخليفة العباسى يستجيب لهذا التودد من منطلق القوة والسيادة. وهو عكس ما يجرى الآن فى عصرنا الحديث حيث يكون التودد من جانبنا، ويكون الشعور بالسيادة والقوة فى جانب الغربيين.

ولقد شعرت بالغبطة حين ألفيت د. سامى الدهان محقق رسالة ابن فضلان، بعد أن وصف فى مقدمته للكتاب بعض مظاهر العظمة والحضارة المتقدمة فى عصر المقتدر بالله الخليفة العباسى، يعقب بقوله: "وسنرى أثر هذا كله عند ابن فضلان، فهو بعد أن عرف ما فى عاصمته ومملكته من ترف وحضارة أصبح يستصغر أحوال الممالك التى رآها، وخاصة أوربا الشمالية، فرسمها رسما غريبا يشعرنا بأنه كان ينظر إليها فى عجب كما يفعل بعض سفراء الغرب اليوم إلى من يسمونهم بـ"سكان الدول المتخلفة" . . . " .

وقبل أن نترك رسالة ابن فضلان ننقل هنا ما كتبه د. زكى محمد حسن فى الفصل الخاص بابن فضلان من كتابه: "الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى" عن أهم ما لاحظه ذلك الفقيه على هؤلاء الناس وعاداتهم وتقاليدهم وسياسة حكامهم فيهم واعتقاداتهم وطرائقهم فى السلوكيات الاجتماعية مما يشكل إضافة أو تأكيدا أو تفصيلا لما أوردته آنفا. قال: "والحق أن ابن فضلان ترك لنا فى وصف رحلته صورة واضحة للبلغار وحضارتهم وعادتهم وتجارتهم. ويشهد ما كتبه فى هذا الصدد بأنهم كانوا لا يزالون دون ما وصل إليه المسلمون فى مدنيتهم، وإن بدت بعض عاداتهم طريفة كأن يأكل كل واحد من مائدته لا يشاركه فيها أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئًا، وكلبسهم القلانس يرفعونها عن الرأس ويجعلونها تحت الإبط للتحية وإظهار الاحترام.

ويلوح أن علاقة ملك البلغار بشعبه كانت علاقة أبوية وديمقراطية، فقد دون ابن فضلان أن "كل من زرع شيئًا أخذه لنفسه ليس للملك فيه حق، غير أنهم يؤدون إليه من كل بيتٍ جلدَ ثور. وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان كان له معهم حصة... وكلهم يلبسون القلانس. فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ولا أحد معه. فإذا اجتاز فى السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه وجعلها تحت إبطه، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم فوق رؤوسهم. وكذلك كل من يدخل على الملك من صغير وكبير، حتى أولاده وإخوته، ساعة يقع نظرهم عليه، يأخذون قلانسهم فيجعلونها تحت آباطهم ثم يومئون إليه برؤوسهم ويجلسون، ثم يقومون حتى يأمرهم بالجلوس. وكل من جلس بين يديه يجلس باركًا ولا يلبس قلنسوته ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك.

والظاهر أن السِّمَن كان محبوبًا عند البلغار. وقد كان ملكهم بدينًا. ورأى ابن فضلان عندهم تفاحًا "أخضر شديدة الحموضة جدًّا تأكله الجوارى فيَسْمَنَّ". ومما أتعب ابن فضلان فى مهمته الدينية أن الرجال والنساء كانوا ينزلون النهر فيغتسلون جميعًا عراة لا يستتر بعضهم من بعض. وقد اجتهد فى منع ذلك فلم يوفق. وكان مركز المرأة بينهم عاليًا، وكانت الملكة تجلس إلى جانب الملك فى المناسبات الرسمية.

وطبيعى أن هذا الرحالة عرض فى رسالته لطول الليل شتاءً وطول النهار صيفًا وتعذُّر تحديد ساعات الصلاة، فكتب فى هذا الصدد:

"ودخلت أنا وخياطٌ كان للملك من أهل بغداد قبتى لنتحدث، فتحدثنا بمقدار نصف ساعة ونحن ننتظر أذان العشاء، فإذا بالأذان، فخرجنا من القبة، وقد طلع الفجر. فقلت للمؤذن: أى شىء أَذَّنتَ؟ قال: الفجر. قلت: فعشاء الأخيرة. قال: نصليها مع المغرب. قلت: فالليل؟ قال: كما ترى. وقد كان أقصر من هذا وقد أخذ الآن فى الطول ... إلخ". ونقل ابن فضلان عن ملك البلغار "أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قومًا يقال لهم: "ويسو" الليل عندهم أقل من ساعة".

والغريب أن ابن فضلان لم يكتب فى رسالته شيئًا عن نتائج هذه الرحالة من الوجهتين السياسية والحربية، فلسنا ندرى هل ساعد المسلمون البلغار فى تشييد الحصون المطلوبة أم لا. وأكبر الظن أن ملك البلغار كان يريد بناء تلك الحصون ليحتمى فيها من ملك الخزر بوجه خاص. وكان ملوك الخزر من أصل يشبه البلغار، وكانت مملكتهم عند مصب نهر الفولجا، ولكنهم كانوا من أتباع الديانة اليهودية، وكانوا يعدون ملوك البلغار تبعًا لهم. وعلى كل حال فإن رحلة ابن فضلان من أقدم ما وصل إلينا عن بلاد الروسيا. بل إننا لا نعرف عن رسالة من سبقوه فى هذه الجولة ما خلا أوتير (Ohther) النرويجى الذى زار الإقليم الواقع شمالى الروسيا حول البحر الأبيض الروسى، وذلك قبل رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار بنحو ستين سنة.

وقد وصف ابن فضلان بعض قدماء الروس الذين شاهدهم فى مكان على نهر الفولجا حين قدموا للتجارة مع البلغار. وكتب المستشرق الروسى

فلاديمير مينورسكى (V. Minorsky) فى هذا الصدد أن ابن فضلان كان دقيق الملاحظة، فوصف حفلة دفن زعيم روسى وصفًا مفصلا دقيقًا حتى لقد استطاع أحد رسامى الروس منذ خمسين عامًا أن يرسم، اعتمادًا على هذا الوصف، صورة لهذا المشهد الرهيب تزين الآن أحد جدران المتحف التاريخى فى موسكو".

* * *

كذلك لدينا ممن يمكن تسميتهم بـ"المستغربين"، أى دارسى الغرب بذات الطريقة التى يدرس بها المستشرقون مجتمعاتنا نحن الشرقيين، الفارسُ الصنديد أسامة بن منقذ صاحب كتاب "الاعتبار"، الذى تناول فيه، ضمن ما تناول، المجتمعات الصليبية الغربية الموجودة فى الشام أيام الاحتلال الصليبى لها. وقد توفى أسامة بن منقذ سنة ٥٨٤هـ، وكان أميرا من أمراء بنى منقذ أصحاب قلعة شَيْزَر قرب حماة، وفارسا مغوارا، وشاعرا مشهورا، وعالما من العلماء له تصانيف فى الأدب والتاريخ منها "الاعتبار، ولباب الآداب، والبديع، والمنازل والديار، والنوم والأحلام، والقلاع والحصون، وأخبار النساء، والعصا". وهو من مواليد شيزر، وسكن دمشق زمنا، وانتقل إلى مصر سنة ٥٤٠هـ، وقاد عدة حملات ضد الصليبيين فى فلسطين، ثم رجع كرة أخرى إلى دمشق، ثم تركها إلى حصن كيفا وظل فيه إلى أن أتى صلاح الدين الأيوبى دمشق ودعاه إليه، فلباه وقد تعدت سنه الثمانين. وأخيرا مات فى دمشق رحمه الله حيث كان صلاح الدين قد أقطعه ضيعة تفرغ فيها للعلم والتدريس.

وقد شهد الرجل قيام الإمارات الصليبية وسقوط القدس، كما شهد قيام الدولة الزنكية وانهيارها وانهيار الدولة الفاطمية، وظهور دولة الأيوبيين، وكذلك استرداد بيت المقدس قبل وفاته بسنة. وكان لأسامة صلات بمختلف رجال عصره من مسلمين وصليبيين، وربطته علاقة ببعض أمراء الإفرنج، وزار مناطق نفوذهم، وسجل مارآه وسمعه هناك بدقة شديدة وحلله تحليلا عميقا بالإضافة إلى أهم وقائع حياته فى الحرب والسياسة والصيد فى "كتاب الاعتبار"، الذى تُرْجِم لعدد غير قليل من اللغات الأوربية لما له من قيمة تاريخية وثقافية لا تقدر بثمن.

وسوف يكون تركيزنا على ما قاله أسامة فى حق الصليبيين مما يدخل فى باب الاستغراب كما وضحنا. وأول شىء يلفت النظر فى كلامه عن القوم ما سجله عن مكانة الفرسان فيهم والطريقة التى يمارسون بها النظر فى الحقوق المختَلف حولها. قال رحمه الله: "والإفرنج، خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان. فهم أصحاب الرأى، وهم أصحاب القضاء والحكمة. وقد حاكمتُهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فُلْك بن فُلْك: هذا تعدَّى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد أن أتلفها. فقال الملك لستة سبعة من الفرسان: قوموا اعملوا له حكما. فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا

حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد، وعادوا إلى مجلس الملك فقالوا: قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامةُ ما أتلف من غنمهم. فأمره الملك بالغرامة، فتوسل إلى وثقل على وسألنى حتى أخذت منه أربعمائة دينار. وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدَّمى الإفرنج يغيّره ولا ينقصه. فالفارس أمره عظيم عندهم. ولقد قال لى الملك: يا فلان، وحق دينى لقد فرحت البارحة فرحًا عظيما. وما كنت أعتقد أنك فارس. قلت: "يا مولاى، أنا فارس من جنسى وقومى". وإذا كان الفارس دقيقًا عظيمًا كان أعجب لهم".

لكن الحكايتين التاليتين تختلفان عن ذلك وترينا الصليبيين أغبياء متخلفين يلجأون فى تعرف الحق فى القضية التى ينظرونها إلى مقياس وحشى شنيع مثلهم. قال أسامة: "شهدت يومًا فى نابلس وقد أحضروا اثنين للمبارزة. وكان سبب ذلك أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس، فاتهموا بها رجلا من الفلاحين وقالوا: هو دَلَّ الحرامية على الضيعة. فهرب، فنفَّذ الملكُ، فقبض أولاده، فعاد إليه وقال: أنصفنى. أنا أبارز الذى قال عنى إنى دللت الحرامية على القرية. فقال الملك لصاحب القرية المُقْطَع: أحضر من يبارزه. فمضى إلى قريته، وفيها رجل حداد، فأخذه وقال له: "تبارز" إشفاقا من المُقْطَع على فلاحيه لا يُقْتَل منهم واحد، فتخرب فلاحته. فشاهدت هذا الحداد، وهو شاب قوى إلا أنه قد انقطع، يمشى ويجلس ويطلب ما يشربه، وذلك الآخر الذى يطلب البِرَازَ شيخٌ، إلا أنه قوى النفس

يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة، فجاء البسكند، وهو شحنة البلد، ليعطى كل واحد منها العصا والترس، وجعل الناسَ حولهم حلقة. والتقيا، فكان الشيخ يَلُزّ ذلك الحداد وهو يتأخر حتى يلجئه إلى الحلقة، ثم يعود إلى الوسط. وقد تضاربا حتى بقيا كعامود الدم. فطال الأمر بينهما، والبسكند يستعجلهما وهو يقول: "بالعجلة"، ونفع الحدادَ إدمانُه بضرب المطرقة. وأعيا ذلك الشيخ، فضربه الحداد فوقع، ووقعت عصاه تحت ظهره، فبرك عليه الحداد يداخل إصبعه فى عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله. وطرحوا فى رقبته حبلا وجروه شنقوه. وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف. وهذا من جملة فقههم وحكمهم، لعنهم الله.

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين، رحمه الله، إلى القدس، فنزلنا نابلس، فخرج إلى عنده رجل أعمى، وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم، وحمل له فاكهة وسأله فى أن يأذن له فى الوصول إلى خدمته إلى دمشق ففعل. وسألت عنه فخُبِّرْتُ أن أمه كانت مزوَّجة لرجل إفرنجى فقتلته، وكان ابنه يحتال على حجّاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الإفرنج: جلبوا بتية عظيمة وملأوها ماء وعرضوا عليها دف خشب وكتفوا ذلك التهم وربطوا فى أكتافه حبلا ورموه فى البتية: فإن كان بريئًا غاص فى الماء، فرفعوه بذلك الحبل لا يموت فى الماء، وإن كان له الذنب ما يغوص فى الماء. فحرص ذلك لما رموه فى الماء أن يغوص فما قدر. فوجب عليه

حكمهم، لعنهم الله، فكحلوه" . ومن الجلى أنهم لا يشغلون عقولهم بل يستندون إلى أساليب غبية غاية فى الشناعة لا تحق حقا ولا تبطل باطلا ولا تحتكم إلى قانون سماوى أو عقلانى، بل يعتمدون على الخرافات والأوهام.

ومما أورده أسامة كذلك فى كتابه حكاية المرأة الإفرنجية التى آثرت أن تتزوج بإسكاف من قومها على أن تظل مع ابنها المسلم رغم ما له من نفوذ فى بلاده وامتلاكه قلعة كبيرة. قال أسامة: "كانت غنيمة ساقها الله عز وجل إلى الناس، فصار إلى دار والدى رحمه الله عدةٌ من جوارى سَبْيهم لعنهم الله، جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم، فرأى منهم جارية مليحة شابة، فقال لقهرمانة داره: أدخلى هذه الحمام وأصلحى كسوتها واعملى شغلها للسفر. ففعلت، وسَلَّمها إلى بعض خُدَّامه وسَيَّرها إلى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر، وكان صديقه، وكتب إليه يقول: غنمنا من الإفرنجى غنيمة قد نَفَّذْتُ لك سهمًا منها . فوافقته وأعجبته فاتخذها لنفسه، فولدت له ولدًا سماه: بدران، فجعله أبوه ولىَّ عهده، وكبر ومات والده، وتولى بدران البلد والرعية، وأمه الآمرة الناهية. فواعدت قومًا وتدلت من القلعة بحبل، ومضى بها أولئك إلى سروج، وهى إذ ذاك للإفرنج، فتزوجت بإفرنجى إسكاف، وابنها صاحب قلة جعبر".

ومن الحكايات التى يمتلئ بها كتاب "الاعتبار" أيضا ما كتبه فارسنا عن واحد من الصليبيين أسلم حين صار فى أيدى المسلمين، ثم لما عاد إلى قومه ارتد عن الإسلام هو وأسرته: "وكان فى أولئك الذين صاروا إلى دار والدى

امرأة عجوز، ومعها بنت لها: امرأة شابة حسنة الخلقة، وابن مشتد. فأسلم الابن وحسن إسلامه فيما يُرَى من صلاته وصومه، وتعلم الترخيم من مرخّم كان يرخّم دار والدى. فلما طال مُقَامُه زوَّجه الوالد امرأة من قوم صالحين وقام له بكل ما احتاجه لعرسه وبيته، فرُزِق منها ولدين، وكبرا وصار لكل واحد منهما خمس ست سنين، والغلامان أبوهما مسرور بهما، فأخذهما وأمهما وما فى بيته وأصبح فى أفامية عند الإفرنج، وتنصر هو وأولاده بعد الإسلام والصلاة والدين. فالله تعالى يطهّر الدنيا منهم". ومن هذه الحكاية نعرف أنه كانت هناك حالات دخول فى الإسلام من قبل بعض الصليبيين. ومنها أيضا تتبين نظرة أسامة إلى الصليبيين وشعوره تجاههم، إذ يدعو عليهم بأن يطهر الله الدنيا منهم بما يفيد أنه يعدّهم أنجاسا أدناسا. فهو يراهم من عَلٍ ويحتقرهم. ذلك أنه ينتمى إلى حضارة أرقى وبيئة أنقى ودين أفضل بما لا يقاس.

وهناك، غير ما مر، فصل كامل خصصه أسامة لطبائع الإفرنج وتدنى أخلاقهم وانحطاط ذوقهم وتخلفهم فى العلوم والطب وعدم غيرتهم على نسائهم وخروجهم على العقل والمنطق. قال يشير إلى قلة عقلهم وسذاجة تفكيرهم وانعدام المنطق عندهم: "سبحان الخالق البارئ. إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبَّح اللهَ تعالى وقدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال ولا غير كما فى البهائم فضيلة القوة والحمل. وسأذكر شيئًا من أمورهم وعجائب عقولهم: كان فى عسكر الملك فُلْك بن فُلْك فارس محتشم إفرنجى قد وصل من بلادهم يحج ويعود، فأنس بى وصار ملازمى ويدعونى: "أخى"، وبيننا

المودة والمعاشرة. فلما عزم على التوجه فى البحر إلى بلاده قال لى: يا أخى، إنى سائر إلى بلادى، وأريدك تنفِّذ معى ابنك (وكان ابنى معى، وهو ابن أربعة عشر سنة) إلى بلادى يُبْصِر الفرسانَ ويتعلم العقل والفروسية. وإذا رجع كان مثل رجل عاقل. فطرق سمعى كلام ما يخرج من رأس عاقل. فإن ابنى لو أُسِرَ ما بلغ به الأسرُ أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج. فقلت: وحياتك هذا الذى كان فى نفسى. لكن منعنى من ذلك أن جدته تحبه، وما تركتْه يخرج معى حتى استحلفتنى أن أرده إليها. قال: أمك تعيش؟ قلت: نعم. قال: لا تخالفها".

كما ساق أسامة حكاية أخرى تظهر جلافة الأوربيين وجفاء أخلاقهم وغلظ عقولهم وضيق عطنهم. قال: "فمن جفاء أخلاقهم، قبحهم الله، أننى إذا زرت بيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفى جانبه مسجد صغير جعلوه الإفرنج كنيسة. فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى، وفيه الداوية، وهم أصدقائى، يخلُّون لى ذلك المسجد الصغير أصلى فيه. فدخلت يومًا كبَّرْت ووقفت فى الصلاة، فهجم على واحد من الإفرنج: مسكنى ورد وجهى إلى الشرق وقال: كذا صَلِّ! فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عنى، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم وعاد هجم على ذلك بعينه ورد وجهى إلى الشرق وقال: كذا صل! فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلى وقالوا: هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج هذه الأيام، وما رأى من يصلى لغير الشرق. فقلت: حسبى من الصلاة! فخرجت. وكنت

أعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة. ورأيت واحدًا منهم جاء إلى الأمير معين الدين رحمه الله، وهو فى الصخرة، فقال: تريد تبصر الله صغيرًا ؟ قال: نعم. فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم، والمسيح عليه الصلاة والسلام صغير فى حجرها، فقال: هذا الله صغير، تعالى الله عما يقول الكافرون علوًّا كبيرًا" .

فالرجل لا يفهم أن هناك دينا آخر غير النصرانية يتجه أتباعه فى صلاتهم ناحية قبلة أخرى غير الشرق كما يفعلون هم. وكان قد مهد لهذه الحكاية بقوله إن "كل من هو قريب العهد ببلاد الإفرنج أجفى أخلاقًا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين" . فهو هنا يرى أن للمسلمين عليهم تأثيرا جميلا يخرجهم من عالم الوحشية وغلظ الطبع إلى شىء من الرقى الإنسانى، ومن ثم كان من عاشوا فى الشرق واتصلوا بالمسلمين أكثر تحضرا ممن لا يزالون حدثاء عهد ببلادهم وما بها من تخلف.

ومن أعاجيب طبهم التى تدل على وحشيتهم وجهلهم وغلظ عقولهم الحكاية التالية: "ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمى يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيبًا نصرانيًّا يقال له: ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى ! قال: أحضروا عندى فارسًا قد طلعت فى رجله دملة، وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبيخة، ففتحت الدملة فصلحت، فحميت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم: هذا ما يعرف شيئًا

يداويهم. وقال للفارس: أيما أَحَبُّ إليك: أن تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: أحضِروا لى فارسًا قويًّا وفأسًا قاطعًا. فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها. فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت، فضربه ضربة ثانية، فسال مخ الساق، ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: هذه المرأة فى رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها. فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم: الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال: الشيطان قد دخل فى رأسها. فأخذ الموسى وشق الرأس صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت من وقتها. فقلت لهم: بقى لكم إلى حاجة؟ قالوا: لا. فجئت وتعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه.

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك. وكان للملك خازن من فرسانهم يقال له: برناد، لعنه الله، من ألعن الإفرنج وأرجسهم، فرمحه حصانه من ساقه، فعَمَّلَتْ عليه رجله وفتحت فى أربعة عشر موضعًا، والجِرَاح كلما ختمت موضع فتح موضع، وأنا أدعو بهلاكه. فجاء طبيب إفرنجى فأزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق فختمت تلك الجراح، وبرأ وقام مثل الشيطان. ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له: أبو الفتوح له ولد قد طلع فى رقبته خنازير، وكلما ختم موضع فتح موضع، فدخل أنطاكية فى شغل له ومعه ابنه، فرآه رجل إفرنجى فسأله عنه فقال: هو

ولدى. قال: تحلف لى بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه؟ فحلف، فقال: تأخذ له أشنانا غير مطحون تحرقه وتربّه بالزيت والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع، ثم خذ الرصاص المحرق ورُبَّه بالسمن، ثم داوه به، فهو يبرئه. فداواه بذلك، فبرأ، وختمت تلك الجراح، وعاد ما كان عليه من الصحة. وقد داويت بهذا الدواء مَنْ طلع فيه هذا الداء، فنفعه وأزال ما كان يشكوه".

وقال أيضا ساخرا من طبهم وغلظ عقولهم وجلافتهم فى ميدان الطب: "ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبور صاحب طبرية وأنا معه، فحدثنا فى الطريق فقال: كان عندنا فى بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت، فجئنا إلى قس من قسوسنا، قلنا: تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانًا؟ قال: نعم. فمشى معنا، ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفى. فلما رآه قال: أعطونى شمعًا. فأحضرنا له قليل شمع، فليَّنه وعمله مثل عقد الإصبع، وعمل كل واحدة فى جانب أنفه، فمات الفارس، فقلنا له: قد مات. قال: نعم. كان يتعذب. سددت أنفه حتى يموت ويستريح".

ومعروف أن الغربيين لا يغارون على زوجاتهم وبناتهم كما يفعل المسلمون. وليست قلة الغيرة بالشىء المستحدث عندهم بل هو أمر معروف عنهم منذ القديم. وها هو ذا أسامة بن منقذ يلاحظ ذلك منذ قرون طوال. قال: "وليس عندهم شىء من النخوة والغيرة. يكون الرجل منهم يمشى هو

وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طَوَّلَتْ عليه خلاها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا ذهبت إلى نابلس أنزل فى دار رجل يقال له: "معز"، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق، ويقابلها من الجانب الطريق الأخر دار لرجل إفرنجى يبيع الخمر للتجار يأخذ فى قنينة من النبيذ وينادى عليه فيقول: فلان التاجر قد فتح بتية من هذا الخمر. فمن أراد منها شيئًا فهى من موضع كذا وكذا. وأجرته عن ندائه النبيذ الذى فى تلك القنينة. فجاء يومًا ووجد رجلا مع امرأته فى الفراش فقال له: أى شىء أدخلك إلى عند امرأتى؟ قال: وجدت فراشًا مفروشًا نمت فيه. قال: والمرأة نائمة معك؟ قال: الفراش لها. كنت أقدر أن أمنعها من فراشها؟ قال: وحق دينى إن عدت فعلتها تخاصمت أنا وأنت. فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته...

ودخلت الحمام بمدينة صور فجلست فى خلوة فيها، فقال لى بعض غلمانى: فى الحمام معنا امرأة. فلما خرجت جلست على المصاطب، وإذا التى كانت بالحمام قد خرجت، وهى مقابلى قد لبست ثيابها وهى واقفة مع أبيها، ولم أتحقق أنها امرأة. فقلت: بالله أبصر هذه. امرأة هى؟ وأنا أقصد أن يسأل عنها. فمضى، وأنا أراه، رفع ذيلها وطلع فيها، فالتفت إلى أبوها وقال: هذه ابنتى. ماتت أمها، وما لها من يغسل رأسها. فأدخلتها معى الحمام غسلت رأسها. قلت: جيد ما عملت. هذا لك فيه ثواب".

ويدل ذلك كله على أنه كان للمسلمين تأثيرات طيبة على النصارى خلصتهم من قذارتهم ووحشيتهم وخلعت عليهم شيئًا من الإنسانية والرقى والتحضر حتى لقد كان بعض الصليبيين يتبع المسلمين مثلا فى تجنب الأكل من لحم الخنزير كما هو الحال فى القصة التالية رغم أن الخنزير ليس محرما فى دينهم. قال ابن منقذ: "ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين، فهم أصلح من القريبى العهد ببلادهم، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه. فمن ذلك أننى نَفَّذْتُ صاحبًا إلى أنطاكية فى شغل، وكان بها الرئيس تادرس بن الصُّفِّى، وبينى وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم فى أنطاكية. فقال صاحبى يوما: قد دعانى صديق لى من الإفرنج. تجيء معى ترى زيهم؟ قال: فمضيت معه، فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا فى أول خروج الإفرنج، وقد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بأنطاكية مُلْكٌ يعيش منه، فأحضر مائدة حسنة وطعامًا فى غاية النظافة والجودة، ورآنى متوقفًا عن الأكل فقال: كُلْ طيّبَ النفس، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج. ولى طباخات مصريات لا آكل إلا من طبخهن، ولا أُدْخِل دارى لحم خنزير. فأكلت وأنا محترز، وانصرفنا. فأنا بعد مجتازاً فى السوق، وامرأة إفرنجية تعلقت بى وهى تبربر بلسانهم وما أدرى ما تقول. فاجتمع على خلق من الإفرنج، فأيقنت من الهلاك، وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآنى، فجاء فقال لتلك المرأة: مالَكِ ولهذا المسلم؟ قالت: هذا قتل أخى عرس. وكان هذا عرس فارسًا بأفامية قتله بعض جند حماة. فصاح عليهم وقال: هذا رجل برجاسى (أى تاجر) لا يقاتل ولا يحضر القتال.

وصاح على أولئك المجتمعين، فتفرقوا وأخذ بيدى ومضى. فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصى من القتل". وكثير من النصارى فى بلاد المسلمين الآن لا يأكلون الخنزير بل يعافونه ويشمئزون من إدخاله بطونهم. وكثير منهم أيضا يختنون أولادهم جريا مع المسلمين وتأثرا بهم.

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض

من مواليد قرية كتامة الغابة بمحافظة الغربية – مصر فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م

تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م

حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م

أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس

البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين

المتنبى– دراسة جديدة لحياته وشخصيته

لغة المتنبى– دراسة تحليلية

المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)

المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية – منهج جديد

عنترة بن شداد– قضايا إنسانية وفنية

النابغة الجعدى وشعره

من ذخائر المكتبة العربية

السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

جمال الدين الأفغانى- مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)

فصول من النقد القصصى

سورة طه- دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة

أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين- دراسة نقدية لرواية "العار"

مصدر القرآن- دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى

نقد القصة فى مصر من بداياته حتى١٩٨٠م

د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

ثورة الإسلام- أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)

مع الجاحظ فى رسالة "الرد على النصارى"

كاتب من جيل العمالقة: محمد لطفى جمعة- قراءة فى فكره الإسلامى

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية- خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن إسحاق

سورة يوسف- دراسة أسلوبية فنية مقارنة

سورة المائدة- دراسة أسلوبية فقهية مقارنة

المرايا المشوّهة- دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة

القصاص محمود طاهر لاشين- حياته وفنه

فى الشعر الجاهلى- تحليل وتذوق

فى الشعر الإسلامى والأموى- تحليل وتذوق

فى الشعر العباسى- تحليل وتذوق

فى الشعر العربى الحديث- تحليل وتذوق

موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم- دراسة تحليلية

منكرو المجاز فى القرآن والأسس الفكرية التى يستندون إليها

أدباء سعوديون

شعر عبد الله الفيصل- دراسة فنية تحليلية

دراسات فى المسرح

دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية

د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة

دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل

شعراء عباسيون

من الطبرى إلى سيد قطب- دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه

القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية

اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة

محمد لطفى جمعة وجيمس جويس

"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع- قراءة نقدية

لكن محمدا لا بواكى له- الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون

مناهج النقد العربى الحديث

دفاع عن النحو والفصحى- الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد

عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين

الفرقان الحق- فضيحة العصر

لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه

التذوق الأدبى

الروض البهيج فى دراسة "لامية الخليج"

المهزلة الأركونية فى المسألة القرآنية

سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب- فصول مترجمة ومؤلفة

"تاريخ الأدب العربى" للدكتور خورشيد أحمد فارق: عرض وتحليل ومناقشة (مع النص الإنجليزى)

الأسلوب هو الرجل- شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه

فنون الأدب فى لغة العرب

الإسلام فى خمس موسوعات إنجليزية (نصوص ودراسات)

فى الأدب المقارن- مباحث واجتهادات

مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام

نظرة على فن الكتابة عند العرب فى القرن الثالث الهجرى (مترجم عن الفرنسية)

فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام

بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود)

دراسات فى النثر العربى الحديث

"مدخل إلى الأدب العربى" لهاملتون جب- قراءة نقدية (مع النص الإنجليزى)

مسير التفسير- الضوابط والمناهج والاتجاهات

"الأدب العربى- نظرة عامة" لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزى)

بشار بن بُرْد- الشخصية والفن

الحضارة الإسلامية- نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ

فى التصوف وأدب المتصوفة

النساء فى الإسلام- نَسْخ التفسير البطياركى للقرآن (النص الإنجليزى مع دراسة موازية)

الإسلام الديمقراطى المدنى- الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣م عن الإسلام والمسلمين فى أرجاء العالم)

محاضرات فى الأدب المقارن

من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة

ست روايات مصرية مثيرة للجدل

هوامش على "تاريخ العرب" لفيليب حتى

أفكار مارقة- قراءة فى كتابات بعض العلمانيين العرب

موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين- مع "قسمة الغرماء" ليوسف القعيد و"تيس عزازيل فى مكة" ليوتا

"القرآن والمرأة" لأمينة ودود- النص الإنجليزى مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية

عبد الحليم محمود- صوفى من زماننا

د. ثروت عكاشة- إطلالة على عالمه الفكرى

ثروت عكاشة بين العلم والفن

إسلام د. جيفرى لانج: التداعيات والدلالات- قراءة فى كتابه: "النضال من أجل الاستسلام"

دراسات فى اللغة والأدب والدين

"مدخل إلى الأدب العربى" لروجر ألن- عرض وتقويم

على هامش كتاب جوزيف هل: "الحضارة العربية"

ابن رشد- نظرة مغايرة

تاريخ الأدب العربى من العصر الجاهلى إلى نهاية العصر الأموى

من ينابيع الثقافة الإسلامية فى العصرين الإسلامى والأموى

كتاب لويس عوض: "مقدمة فى فقه اللغة العربية" تحت المجهر

"روبنسون كروسو"- دراسة فى الأدب المقارن

أبو نواس الحسن بن هانئ- دراسة فنية نفسية اجتماعية أخلاقية

"لو كان البحر مدادا" للصحفية الأمريكية كارلا باور (حوار مع الشيخ أكرم ندوى)- عرض وتحليل د . إبراهيم عوض

الإسلام والتنافس الحضارى

تاريخ الأدب العربى- العصر العباسى

مباحث فى التشريع الإسلامى

دراستان فى الأدب المقارن

روايات أخذت أكثر من حقها- ثمانى روايات عربية (رؤية جديدة)

"محمد ونهاية العالم" لبول كازانوفا- عرض ومناقشة وتفنيد

سورة الرعد- دراسة أسلوبية أدبية

فى تحليل النص القرآنى (دفاعا عن الكتاب الكريم)

من الأدب المقارن فى كتابات طه حسين- نصوص وتحليلات

خواطر على الخواطر (مع الشعراوى فى تفسيره)

معَ روايتَىْ "عذراء الهند" لأحمد شوقى و"ربما يأتى القمر" للسعيد نجم (نقد قصصى)

جولة فى كتاب مصطفى محمود: "القرآن- محاولة لفهم عصرى"

مستشرقون مِنْ قَبْل الاستشراق . مستغربون مِنْ قَبْل الاستغراب

علاوة على الدراسات المنشورة فى المواقع المشباكية المختلفة

فهرست الكتاب

قبل جحا كان أبو دلامة

(كلمة عن الاستشراق والاستغراب قديما) ٥

هيرودوت ١٤

ديودور الصقلى ٦١

يوحنا الدمشقى ١٠٤

مستغربون قدماء ١٦٠

نبذة عن المؤلف ٢٠٥